المملكة العربيّة السعوديّة
وزارة الشّؤون الإسلاميّة
والأوقاف والدّعوة والإرشاد

التّفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

الطّبعة الأولى
١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

الجزء السّابع والعشرون

منشورات وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد
الأمانة العامّة لمسابقة القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء السّابع والعشرين من القرآن الكريم يغطّي تمام سورة الذّاريات، وسور الطّور، والنّجم، والقمر، والرّحمن، والواقعة، والحديد. وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء السّتّة والعشرين السّابقة. إنّ هذا الجزء السّابع والعشرين هو ميدان التّفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين الحقول الخمسة في مسابقة الملك عبد العزيز الدّوليّة الثّلاثين، لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، الّتي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، برئاسة معالي وزيرها الشّيخ صالح بن عبد العزيز بن محمّد آل الشّيخ في أثناء الفترة من / /١٤٢٩هـ حتّى / /١٤٢٩هـ الموافق / /٢٠٠٨م حتّى / /٢٠٠٨م . وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت في مجال التّفسير، في أثناء المسابقة.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة الّتي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الّذي حرصت فيه، كما حرصت في سابقيه،

على أمورٍ أهمّها ثلاثة:

١- أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢- أن أشير إلى الدّروس الّتي يمكن أن تستفاد.

٣- أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولاتَحْمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَه على الّذين من قبلنا. ربّنا ولاتحمّلنا مالا طاقة لنا به.واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمدلله ربّ العالمين﴾

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدلله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الجمعة
١٤٢٣/٧/١٣هـ
الموافق ٢٠٠٢/٩/٢٠م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أوّلاً: تمام سورة الذّاريات

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا
مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾
وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ
﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ
تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾
فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا
فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ
إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ
﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ
ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((على المشركين أن يتّعظوا بهلاك قوم لوط عليه السّلام وفرعون وملئه، وعادٍ وثمود، وقوم نوحٍ عليه السّلام))

الآيات (٣١-٤٦)

في نهاية الجزء السّادس والعشرين السّابق تحدّثت سورة الذّاريات المكيّة الكريمة عن ضيف إبراهيم عليه السّلام من الملائكة الأطهار الّذين أكرمهم إبراهيم عليه السّلام وزوجه سارّة شخصيّا. لقد قام عليه السّلام بواجب الضّيافة، وحينما لم تمتدّ أيديهم إلى الطّعام خاف عليه السّلام أن يكونوا أعداءً، فكشفوا له عن حقيقتهم، وبشّروه بغلامٍ من صلبه رغم أنّه شيخٌ كبير، ومن زوجه سارّة، رغم أنّها عجوزٌ عقيمٌ لاتلد منذ أن بلغت مبلغ النّساء، كما بشّروه بأنّ الغلام سيكون عالماً مستقبلا. لقد كانت المفاجأة كبيرةً للمرأة العجوز العقيم الّتي أقبلت في صرخةً مدوّيّة ولطمت وجهها لفرط العَجَب وقالت معبّرة عن دهشتها: أألد وأنا عجوز عقيم! وبيّن الملائكة الكرام أنّ ذلك هو ما قاله الله تعالى وقضى به الحكيم العليم. ويستمرّ الحديث في بداية الجزء السّابع والعشرين عن ضيف إبراهيم عليه السّلام من الملائكة الكرام.

قال إبراهيم عليه السّلام للملائكة الكرام: فما شأنكم أيّها المرسلون من الحقّ جلّ وعلا وما الأمر الخطير الّذي جئتم من أجله! قالوا إنّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ كافرين يأتون الذُّكران في أدبارهم، لنرسل عليهم حجارةً من طينٍ مطبوخٍ بالنّار، مكتوباً على كلّ حجرٍ اسم صاحبه من المسرفين على أنفسهم بارتكاب الذّنوب، علامةً من ربّك جلّ وعلا يا إبراهيم لكلّ حَجَرٍ وصاحبه. فأخرج الله تعالى من كان في قرى قوم لوطٍ من المؤمنين بقلوبهم، فلم يوجد غير بيتٍ واحدٍ من المسلمين الّذين عملوا بجوارحهم ما آمنت به قلوبهم وهو بيت لوطٍ عليه السّلام. وتركنا في قرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتي انقلبت رأساً على عقبٍ آيةً دالّةً على قدرة الله تعالى للمؤمنين الّذين يخافون العذاب الأليم.

وكذلك ترك الحقّ جلّ وعلا آيةً دالّةً على قدرته في موسى عليه السّلام حين أرسله إلى فرعون مصر الطّاغية بسلطانٍ مبين وحججٍ دامغة. فأعرض فرعون بقوّته من الجند والملأ وقال إنّ موسى عليه السّلام ساحرٌ يخدع الأعين بسحره، أو مجنونٌ بلغ به الجنون أن دعا إلى عبادة غيري! فأخذ الله تعالى فرعون وجنوده بغتة، فألقاهم في اليمّ، وأغرقهم في البحر الأحمر، وقد أتى فرعون بما يلام عليه. وكذلك ترك الحقّ جلّ وعلا آيةً دالّةً على قدرته في عادٍ بجنوبيّ الجزيرة العربيّة، وقوم هودٍ عليه السّلام، إذ أرسل عزّ وجلّ عليهم الرّيح الّتي لاخير فيها، والّتي لاتترك شيئاً أتت عليه إلّا جعلته كالعظم البالي المتفتّت. وكذلك ترك الحقّ جلّ وعلا آيةً دالّةً على قدرته في ثمود بشماليّ الجزيرة العربيّة، قوم صالحٍ عليه السّلام، حين قيل لهم بعد أن عقروا النّاقة تمتّعوا في داركم حتّى حين انقضاء آجالكم بعد ثلاثة أيّام. إنّهم بدلاً من أن يتوبوا إلى ربّهم عزّ وجلّ توبةً نصوحاً تكبّروا عن امتثال أمر ربّهم فأخذتهم صاعقة العذاب المهين وهم ينظرون نهاراً وينتظرونها في اليوم الرّابع. فما استطاعوا من قيامٍ ونهوضٍ ، فضلاً عن الدّفاع والهرب، وما كانوا قادرين على الانتصار ممّن أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهو الحقّ جلّ وعلا. وأهلك الله تعالى قوم نوحٍ عليه السّلام من قبل هؤلاء أجمعين، إنّهم كانوا قوماً خارجين عن الصّراط المستقيم.

(٢)

((وجوب الاستدلال بما خلق الله تعالى الرّزّاق ذو القوّة المتين على وحدانيتّه، والاتّعاظ بهلاك المكذّبين السّابقين، والويل للكافرين من يوم القيامة))

الآيات (٤٧-٦٠)

على الرّغم من إصرار المشركين على شركهم فإنّ رحمة الله تعالى تلاحقهم وذلك بِلَفْت الانتباه إلى آيات الله تعالى الكونيّة، ووجوب الاتّعاظ بهلاك المكذّبين السّابقين، واتّباع الرّسول الكريم ﷺ، والإيمان بيوم القيامة والعمل من أجله.

إنّ الحقّ جلّ وعلا بني السّماء بقوّة وهو عزّ وجلّ موسّعٌ أرجاءها. وبسط الله تعالى الأرض فنعم الماهدون لها نحن. ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين اثنين من ذكرٍ وأنثى لعلّكم تتّعظون وتعودون إلى بارئكم عزّ وجلّ بالإيمان وعمل الصّالحات. وهذا القانون مطّردٌ في الإنسان والحيوان والنّبات والجماد، وليس مِنْ واحدٍ سوى الله تعالى. ففرّوا إلى الله تعالى أيّها النّاس، إنّي لكم من الله تعالى نذيرٌ بين النّذارة. ولاتجعلوا مع الله تعالى إلهاً آخر تشركونه مع الله تعالى في العبادة، إنّي لكم من الله تعالى نذيرٌ بيّن النّذارة. هكذا جرت العادة. ماأتى الّذين مِنْ قَبْلِ مشركي مكّة من رسولٍ من الله تعالى إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنون كما قال فرعون الطّاغية لموسى عليه السّلام. أَوَصَّى بعضهم بعضاً بهذا القول فهم يتوارثونه!

الحقيقة أنّهم قوم طاغون جميعاً، ومن منطلق الطّغيان يتّهم كلّ قومٍ رسولهم بأنّه ساحرٌ أو مجنون. فأعرض يامحمّد عنهم حتّى يأتي أمرالله تعالى فيهم، ومأأنت بملومٍ على أيّ تقصير، فقد بلّغت الرّسالة وأدّيت الأمانة،وكنت لقومك النّاصح الأمين.

وذكّر النّاس يامحمّد بهذا القرآن الكريم، فإنّ الموعظة تنفع المؤمنين بالله تعالى. وماخلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدوني وحدي دون سواي. ما أريد منهم من رزقٍ لي أو لأنفسهم أو لغيرهم، وما أريد أن يطعموني أو يطعموا غيرهم. إنّ الله تعالى هو الرّزّاق الّذي تكفّل لكلّ دابّةٍ في الأرض برزقها، وهو ذو القوّة القاهرة، المتين الغالب. فإنّ للّذين ظلموا بإصرارهم على الشّرك نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الكافرين السّابقين، فعليهم ألّا يستعجلوا العذاب استهزاءً فإنّه آتٍ يوم القيامة. فويلٌ للّذين كفروا بالله تعالى من يومهم الّذي يوعدونه في الآخرة، وعذابٌ شديد، وهلاكٌ أكيد من نصيبهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى بالإيمان، وعمل الصّالحات.

التّفسير

(١)

((على المشركين أن يتّعظوا بهلاك قوم لوطٍ عليه السّلام وفرعون وملئه، وعادٍ وثمود وقوم نوحٍ عليه السّلام))

الآيات (٣١-٤٦)

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

فما خطبكم: فما شأنكم[١] وفَلِم جئتم[٢] والخطب: الأمر العظيم الّذي يكثر فيه التّخاطب[٣] .

حجارةً من طين: مطبوخ بالنّار[٤]

مسوّمة: مُعْلَمة عليها اسم من يُرْمَى بها[٥]

فأخرجنا من كان فيها: أي قرى قوم لوط[٦]

من المؤمنين: من أهل الإيمان بالله[٧]

فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين : هم لوط وابنتاه[٨] وصفوا بالإيمان

---

(١) تفسير الطّبري ٢/٢٧ والجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٩٨/٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني :"خطب" ٢٠٠/١.

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣٩٨/٧.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير الطّبري ٢/٢٧.

(٨) تفسير الطّبري ٢/٢٧.

والإسلام ، أي هم مصدّقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطّاعات[1].

وتركنا فيها آية: وتركناها آية، لأنّها الّتي ائتفكت بأهلها، فهي الآية[2].

قال إبراهيم عليه السّلام للملائكة الكرام الّذين لم تمتدّ أيديهم إلى طعامه فخاف أن يكونوا أعداءً فأخبروه أنّهم ملائكة وبشّروه بغلامٍ سيكون عالماً بإذن الله تعالى، قال إبراهيم: فما شأنكم أيّها المرسلون من الله تعالى، ولماذا جئتم، وماهي المهمّة الخطيرة الّتي جئتم من أجلها؟ قالوا إنّا أرسلنا الله تعالى إلى قومٍ مجرمين، هم قوم لوطٍ عليه السّلام الكافرون الّذين يأتون الذّكران ويتركون الزّوجات. لنرسل على هؤلاء المجرمين حجارةً من طينٍ مطبوخٍ بالنّار. مُعْلَمةً ومكتوباً على كلّ حجرٍ اسم الشّخص الّذي يقتله من المسرفين الّذين يأتون الذّكران مع كفرهم. فأخرج الله تعالى من كان في تلك القرى من المؤمنين بالله تعالى بقلوبهم، فما وجدنا غير بيتٍ واحدٍ من المسلمين الّذين ترجموا إيمان قلوبهم إلى عبادةٍ لله تعالى بجوارحهم، وهم لوطٌ عليه السّلام وابنتاه. وترك الله تعالى في تلك القرى الّتي انقلبت رأساً على عقب آيةً وعبرةً للّذين يخافون عذاب الله تعالى الأليم فلايكفرون ولايعملون عمل قوم لوطٍ عليه السّلام، بل يؤمنون كي ينجّيهم الله تعالى من العذاب الأليم، كما نجّى الله تعالى البيت الواحد من المسلمين.

---

[1] الجلالين.

[2] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٠﴾

بسلطانٍ مبين: بحجّة تبين لمن رآها أنّها حجّةٌ لموسى على حقيقة مايقول ويدعو إليه[١].

فتولّى بركنه: فأدبر فرعون بقومه من جنده وأصحابه[٢] وأصل الرّكن الجانب والنّاحية الّتي يعتمد عليها ويقوى بها[٣] ويستعار للقوّة. قال تعالى[٤]:﴿لو أنّ لي بكم قوّةً أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾[٥] .

وقال ساحرٌ أو مجنون: وقال فرعون لموسى هو ساحرٌ يسحر عيون النّاس أو مجنون به جِنّة[٦].

فنبذناهم في اليمّ: فألقيناهم في البحر فغرّقناهم فيه[٧].

وهو مليم: المليم هو الّذي قد أتى بما يلام عليه من الفعل[٨].

---

[١] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري٣/٢٧.

[٣] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

[٤] سورة هود ٨٠.

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"ركن" ٢٦٨/١.

[٦] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

[٧] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

[٨] تفسير الطّبري ٣/٢٧.

وجعلنا آيةً دالّةً على قدرتنا في موسى عليه السّلام حين أرسلناه إلى فرعون مصر بآياتنا البيّنات، وحججنا الباهرات، الدّالاّت على أنّه رسولنا. فأعرض فرعون بجنده وقومه واتّهم موسى عليه السّلام بأنّه ساحرٌ يسحر عيون النّاس، أو مجنون حينما بلغت به الجراءة إلى دعوة فرعون الطّاغية الّذي ادّعى الرّبوبيّة إلى توحيده تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة!

وتجاه إصرار فرعون الطّاغية وملئه على الإعراض عن آيات الله تعالى البيّنات الّتي أيّد عزّ وجلّ بها موسى عليه السّلام أخذه الله تعالى وجنوده بالعذاب الأليم، فألقاهم في البحر الأحمر وأغرقهم، وقد أتى فرعون بما يلام عليه من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى وادّعاء الرّبوبيّة.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

الرّيح العقيم: هي الّتي لاخير فيها لأنّها لاتحمل المطر ولا تلقح الشّجر[1] ثبت في الصّحيح عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ : نُصِرْت بالصَّبا، وأهلِكت عادٌ بالدَّبور[2] .

كالرّميم: كالشّيء الهالك البالي[3] المتفتّت[4]

وجعلنا آيةً دالّةً على قدرتنا في عادٍ في جنوبيّ الجزيرة العربيّة قوم هودٍ عليه السّلام حين أرسلنا عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ الرّيح العقيم الّتي لاخير فيها، فلا تحمل ماءً ولاتلقح شجراً، ولكنّها الرّيح الشّديدة الباردة الملتئمة الموصولة المزعجة بصوتها. إنّها لاتترك من شيءٍ أتت عليه إلّا جعلته كالعظم البالي المتفتّت الّذي تذروه الرّياح.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

---

[1] الجلالين وانظر تفسير الطّبري٢٧/٤.

[2] تفسير ابن كثير ٤٠٠/٧ وصحيح مسلم ٦١٧/٢ حديث رقم ٩٠٠.

[3] تفسير ابن كثير ٣٩٩/٧.

[4] الجلالين

تمتّعوا حتّى حين: أي إلى انقضاء آجالكم[١] جاء في سورة هود[٢] قوله تعالى:﴿ فعقروها فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام. ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾ .

فعتوا عن أمر ربّهم: فتركوا أمر ربّهم[٣] وتكبّروا عن امتثاله[٤]

فأخذتهم الصّاعقة: فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة[٥]

وهم ينظرون: بالنّهار[٦] وينتظرون حلول العذاب بهم[٧] وذلك أنّهم انتظروا العذاب ثلاثة أيّام، وجاءهم في صبيحة اليوم الرّابع بُكْرَةَ النّهار[٨].

فما استطاعوا من قيام: أي من هربٍ ولا نهوض[٩]

وما كانوا منتصرين: على من أهلكم[١٠]

وجعلنا آيةً دالّةً على قدرتنا في ثمود في شمالي الجزيرة العربيّة قوم صالحٍ عليه السّلام حين قيل لهم بعد أن عقروا النّاقة تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ينزل عليكم العذاب

---

[١] الجلالين.

[٢] الآية ٦٥.

[٣] انظر تفسير الطّبري ٥/٢٧.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير الطّبري ٥/٢٧.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ٥/٢٧.

[٨] تفسير ابن كثير ٤٠٠/٧.

[٩] تفسير ابن كثير ٤٠٠/٧.

[١٠] الجلالين.

بعدها. لقد تكبّرت عاد وتعالت عن الامتثال لأمر ربّها عزّ وجلّ واستحبّت العمى على الهدى فأخذت القوم صاعقة العذاب المهين وهم ينظرون نهاراً وينتظرون بُكْرة النّهار الرّابع.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

وقوم نوحٍ عليه السّلام، أوّل أرسل الله تعالى، أهلكناهم من قبل هؤلاء أجمعين. إنّهم كانوا قوماً خارجين عن الصّراط المستقيم منحرفين عن سواء السَّبيل.

(٢)

((وجوب الاستدلال بما خلق الله تعالى الرّزّاق ذو القوّة المتين على وحدانيّته، والاتّعاظ بهلاك المكذّبين السّابقين، والويل للكافرين من يوم القيامة))

الآيات (٤٧-٦٠)

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾

بأيدٍ: بقوّة [١]

وإنّا لموسعون: أي قد وسّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عَمَدٍ حتّى استقلّت كما هي[٢].

والأرض فرشناها: جعلناها فراشاً للخلق[٣]

فنعم الماهدون: فنعم الماهدون لهم نحن[٤] والمخصوص بالمدح محذوف، أي نحن[٥]

ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين: الذّكر والأنثى[٦]

ففرّوا إلى الله: فاهربوا أيّها النّاس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به واتّباع أمره والعمل بطاعته[٧]

---

[١] تفسير الطّبري ٦/٢٧.

[٢] تفسير ابن كثير ٤٠٠/٧.

[٣] تفسير الطّبري ٦/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٦/٢٧.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٤٩/١٢.

[٦] انظر تفسير الطّبري ٦/٢٧.

[٧] تفسير الطّبري ٧/٢٧.

والسّماء بنيناها بقوّة، وإنّا لموسعون أرجاءها، وممتدّون بنواحيها. وقد تبيّن العلماء لاحقاً أنّ السّماوات في اتّساع دائم.

والأرض جعلناها فراشاً للخلق، فنعم الماهدون لهم نحن.

ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين اثنين، ونوعين اثنين، ذكراً وأنثى، لعلّكم أيّها النّاس تتذكّرون وتتعّظون وتفهمون أنّ الّذي يفعل ذلك هو المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه دون سواه، وأن يطاع فلا يُعْصَى، وأن يُشْكَر فلايكفر. وقد أثبت العلم أنّ الثّنائيّة أو الزوجيّة قانونٌ مطّردٌ في النّاس والحيوان والنّبات والجماد. إنّ كلاً يتألّف من زوجين اثنين ذكرٍ وأنثى، ولم يبق واحداً إلّا الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ففرّوا أيّها النّاس إلى الله تعالى وثوابه ورحمته بعبادته وطاعته وعدم معصيته. إنّي لكم من الله تعالى نذيرٌ بيّن النِّذارة. إنّ الله تعالى لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾

كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنون: كما كذّبت قريش نبيّها محمّداً ﷺ وقالت هو شاعرٌ أو ساحرٌ أو مجنون كذلك فعلت الأمم المكذّبة رسلها الّذين أحلّ الله بهم نقمته كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وفرعون وقومه[١]

أتواصَوْا به: أي أوصَّى بعضهم بعضاً بهذه المقالة[٢]

فتولّ عنهم: فأعرض عنهم حتّى يأتيك فيهم أمر الله[٣]

فما أنت بملوم: فما أنت يامحمّد بملوم، لايلومك ربّك على تفريطٍ كان منك في الإنذار فقد أنذرت وبلّغت ما أرسلت به[٤]

كما كذبت قريشٌ محمّداً ﷺ وقالت عنه إنّه ساحرٌ أو مجنون كذّب الكافرون السّابقون وقالوا الشّيء نفسه لرسل الله تعالى إليهم. أوصّي المشركون بعضهم بعضاً أن تقول كلّ أمّةٍ مشركةٍ هذه المقالة لرسول الله تعالى إليها! لم يوص بعضهم بعضاً بهذه المقالة، والحقيقة أنّهم جميعاً قومٌ طاغون، اتّفقوا على هذه المقالة لاتّفاق الباعث وهو البغي على رسول الله تعالى إليهم والطّغيان. فأعرض عنهم يامحمّد حتّى يأتي فيهم أمر الله تعالى فما أنت يامحمّد بملوم، فقد بلّغت الرّسالة، وأدّيت الأمانة، وكنت لقومك النّاصح

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٧.

[٢] تفسير ابن كثير ٧/٤٠١.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٧.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٧.

الأمين. وذكّر يامحمّد بهذا الكتاب العزيز المؤمنين وعظهم به فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين بإذن الله تعالى وتأخذ بأيديهم إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدوني وحدي لا شريك لي. ماأريد منهم من رزقٍ لي ولا لأنفسهم ولا لغيرهم، وما أريد منهم طعاماً لي ولا لأنفسهم ولالغيرهم. إنّ الله تعالى هو الرّزّاق الّذي تكفّل لكلّ دابّةٍ في الأرض برزقها، ذو القوّة القاهرة لكلّ قوّة، المتّين الفعّال لما يريد، الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ذنوباً: الذّنوب بفتح الذّال الدّلو الّتي لها ذَنَب، واستعير للنّصيب[1] أي نصيباً من العذاب[2]

فإنّ لّلذين ظلموا فأشركوا مع الله تعالى في العبادة سواه نصيباً ضخماً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من المشركين السّابقين، فلا يستعجلوني العذاب في هذه الدّنيا على سبيل الاستهزاء. عذابٌ شديدٌ وهلاكٌ أكيدٌ للّذين كفروا في نار جهنّم وويلٌ لهم من يوم القيامة الّذي يوعدون فيه بالعقاب الأليم.

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "ذنب" ١/٢٤٠.

[2] تفسير ابن كثير ٧/٤٠٢.

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئةٍ نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الذّاريات من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى ﷺ قبل الهجرة[١]

٢- عدد آيات السّورة الكريمة ستّون آية. وعدد كلماتها ثلاثمائة وسبعون كلمة. وعدد حروفها ألفٌ ومائتان وستّة وثمانون حرفاً[٢]

٣-محور السّورة الكريمة البعث بعد الموت الّذي لايؤمن به المشركون، والّذي يستعجلونه على سبيل الهُزء والسّخرية، والّذي تعمل السّورة الكريمة العديد من الوسائل لحمل الكافرين على الإيمان به، والاستعداد له، والعمل من أجله. إنّ الوعد بيوم القيامة لصادق، وإنّ الجزاء لواقع. جاء في الآيات الكريمات السّتّ الأُوَل قول الحقّ جلّ وعلا:﴿والذّاريات ذروا. فالحاملات وِقْرا. فالجاريات يسرا. فالمقّسمات أمرا. إنّما توعدون لصادق. وإنّ الدّين لواقع﴾ وإنّ المشركين الكاذبين

---

[١] الإتقان ٤٠٣/١ وتفسير ابن كثير ٣٩٠/٧ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٢٧ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة ١٩٧/١٥ والكشّاف ١٦٦/٣ والبحر المحيط ١٣١/٨ وتفسير القرطبي ٦١٩٩/٧.

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٢٧.

الّذين هم في ضلالتهم غافلون يسألون عن يوم القيامة ويستعجلونه على سبيل السُّخرية والاستهزاء. وهم يوم القيامة سوف يُحْرَقون ويقال لهم: ذوقوا عذاب النّار الّذي كنتم في الدّنيا تستعجلونه. جاء في الآيات الكريمات من العاشرة حتّى الرّابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿قُتِل الخرّاصون. الّذين هم في غمرةٍ ساهون. يسألون أيّان يومُ الدّين. يوم هم على النّار يُفْتَنون. ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون﴾ أمّا المتّقون فإنّهم في جنّات وعيون. آخذين ما أعطاهم ربّهم عزّ وجلّ من نعيمٍ مقيم. جاء في الآيتين الكريمتين الخامسة عشرة والسّادسة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا :﴿إنّ المتّقين في جنّاتٍ وعيون. آخذين ماآتاهم ربّهم. إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ والحقّ جلّ وعلا يقسم بنفسه الكريمة وذاته الشّريفة أنّ يوم القيامة حقٌ فلا تشكوا فيه كما أنّكم لاتشكّون في نطقكم حينما تنطقون في هذه الحياة الدّنيا. جاء في الآية الكريمة الثّالثة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثلما أنّكم تنطقون﴾ وتختم السّورة الكريمة بتقرير النّصيب الضّخم من عذاب المشركين المنكرين للبعث، المستهزئين بيوم القيامة، المستعجلين لذلك العذاب، وهو عذابٌ ضخمٌ على غرار عذاب

الكافرين السّابقين. جاء في الآيتين الكريمتين التّاسعة والخمسين والسّتّين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ فإنَّ للّذين ظلموا ذَنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلايستعجلون. فويلٌ للّذين كفروا من يومهم الّذي يوعدون﴾

٤- من وسائل السّورة الكريمة لحمل المشركين على التّوحيد والإيمان بالبعث والعمل ليوم القيامة لفت الانتباه إلى آيات الله تعالى في الكون، وفي النّفس البشريّة. في الآيات الكريمات الأربع الأول يقسم الحقّ جلّ وعلا، دليلاً على صدق الوعد بالبعث والجزاء، يقسم بالرّياح الّتي تثير التّراب وتطيره، وبالسّحب الّتي تحمل ثِقْل المطر، وبالسّفن الّتي تجري بيسرٍ في البحر كالجبال، وبالملائكة الكرام الّتي تدبّر بإذن ربّها الأمر من السّماء إلى الأرض. ودليلاً على اختلاف أقوال المشركين في القرآن الكريم وكثرتها يقسم الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّابعة بالسّماء ذات الطّرق بين النّجوم والكواكب والمجرّات الّتي تشبه الطّرق في الرّمل والزّرع وفوق سطح الماء حينما يهبّ الهواء العليل، ويتحرّك النّسيم البليل. قال تعالى:﴿ والسّماء ذات الحبك﴾ وقد عمّقت هذه الصّفة من جمال السّماء وحسنها وزينتها وبهائها وكمالها. وفي الأرض والسّماء والنّفس الإنسانيّة آياتٌ دالّاتٌ على قدرة الله تعالى المطلقة ووحدانيّته. جاء في الآيات الكريمات من العشرين حتّى الثّالثة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿وفي الأرض آياتٌ لموقنين. وفي أنفسكم أفلا

تبصرون. وفي السّماء رزقكم وماتوعدون. فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثلما أنّكم تنطقون﴾ والله تعالى بني السّماء بقوّةٍ ووسّع أرجاءها، وفرش الأرض وجعلها كالمهد للإنسان، ومن كلّ شيءٍ خلق زوجين ذكراً وأنثى، من النّاس ومن الحيوان والنّبات والجماد، ولم يبق من واحدٍ سوى الله تعالى. جاء في الآيات الكريمات من السّابعة والأربعين إلى التّاسعة والأربعين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿والسّماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون﴾

٥- ومن وسائل السّورة الكريمة لحمل المشركين على الإيمان بيوم القيامة والعمل من أجله التّرهيبُ من عذاب النّار، والتّرغيبُ في نعيم الجنّة. إنّ المشركين الكذّابين الغارقين في حمأة الضّلالة يسألون عن يوم القيامة على سبيل الاستهزاء والسّخرية ويستعجلونه. وسيكون الجواب على هذا السّؤال حينما يُحْرَقون على نار جهنّم يوم القيامة. جاء في الآيات الكريمات من العاشرة إلى الرّابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿قُتِل الخرّاصون. الّذين هم في غمرةٍ ساهون. يسألون أيّان يوم الدّين. يوم هم على النّار يُفْتَنون. ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون﴾وفي مقابل الكذّابين أصحاب النّار هنالك المتّقون أصحاب الجنّة الّذين ينالون الثّواب العظيم من الله تعالى بسبب بلوغهم مرتبة الإحسان في الحياة الدّنيا. جاء في

الآيات الكريمات من الخامسة عشرة إلى التّاسعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿إنّ المتّقين في جنّاتٍ وعيون. آخذين ما آتاهم ربّهم. إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من اللّيل مايهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفي أموالهم حقٌّ للسّائل والمحروم﴾ ومن وسائل التّرهيب الإنذار المباشر. جاء في الآيتين الكريمتين الخمسين والحادية والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ففرّوا إلى الله. إني لكم منه نذيرٌ مبين. ولاتجعلوا مع الله إلهاً آخر. إنّي لكم منه نذيرٌ مبين﴾ وجاء في الآيتين الكريمتين التّاسعة والخمسين والسّتّين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿فإنّ للّذين ظلموا ذَنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلايستعجلون. فويلٌ للّذين كفروا من يومهم الّذي يوعدون﴾

٦-ومن وسائل السّورة الكريمة لِحَمْل المشركين على توحيد الله تعالى والعمل ليوم القيامة التّحذير من المصير السّيّء في الدّنيا قبل الآخرة، وذلك على غرار هلاك قوم لوطٍ عليها السّلام وابنتيه، وهلاك فرعون وملئه، وعادٍ قوم هودٍ عليه السّلام، وثمود قوم صالحٍ عليه السّلام، وقوم نوحٍ عليه السّلام. لقد كان الحديث

عن هلاك هؤلاء الأقوام في الآيات الكريمات من الرّابعة والعشرين، إلى السّادسة والأربعين.

٧- بين يدي الحديث عن إهلاك الله تعالى قوم لوطٍ عليه السّلام كان الحديث عن ضيف إبراهيم عليه السّلام من الملائكة الكرام الّذين أرسلهم الله تعالى لقلب قرى قوم لوطٍ عليه السّلام رأساً على عقب. لقد كان لوطٌ عليه السّلام ابن أخي إبراهيم عليه السّلام. وفي سورة الذّاريات حديثٌ مستفيضٌ في إكرام الضّيف. وقد تمثّل ذلك في إكرام إبراهيم عليه السّلام وزوجه سارّة الملائكة الكرام والقيام شخصيّاً على خدمتهم، علماً بأنّهم قومٌ غير معروفين لإبراهيم عليه السّلام فضلاً عن زوجه. لقد تبيّن لاحقاً أنّهم ملائكة كرامٌ لا يأكلون ولايشربون، فزال خوف إبراهيم عليه السّلام من عدم تناولهم طعامه عليه السّلام، وبشّروه عليه السّلام وزوجه سارّة بغلامٍ سيكون عالماً حينما يَكْبَر، وهو إسحاق عليه السّلام. وهذه الآيات الكريمات من سورة الذّاريات في آداب الضّيافة وإكرام الضّيف ابتداءً بالآية الكريمة الرّابعة والعشرين تذكّرنا بالآيات الكريمات في سورة هود في المعنى نفسه، ابتداءً بالآية الكريمة التّاسعة والسّتّين، وبالآيات الكريمات في سورة الحِجْر ابتداءً بالآية الكريمة الحادية والخمسين.

٨- في السّورة الكريمة تسليةٌ مباشرةٌ للمصطفى ﷺ. جاء في الآيات الكريمات من الثّانية والخمسين إلى الخامسة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿كذلك ماأتى الّذين من قبلهم من رسولٍ إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنون. أَتَواصَوْا به. بل هم قومٌ طاغون. فتولّ عنهم فما أنت بملوم. وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين﴾

٩- نصّت سورة الذّاريات الكريمة على الحكمة من خلق الله تعالى الجنّ والإنس وهو إفراد الله تعالى بالعبادة. جاء في الآية الكريمة السّادسة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿وماخلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾ والله تعالى هو الغنيّ الرّزّاق ذو القوّة المتين. جاء في الآيتين الكريمتين السّابعة والخمسين والثّامنة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ماأريد منهم من رزقٍ وماأريد أن يُطْعِمون. إنّ الله هو الرّزّاق ذو القوّة المتين﴾

١٠- نزلت سورة الذّاريات الكريمة بعد سُوَر آل حم[١]

١١- سبق أن بيّنّا تحت عنوان:" بين يدي التّفسير" التّرابط العضويّ بين معاني السّورة الكريمة وقضاياها في شيءٍ من التّفصيل. ونودّ أن نبيّن هنا في شيءٍ من الإيجاز هذا النّوع من التّرابط العضويّ. أقسم الحقّ جلّ وعلا بالرّيح الّتي تطير التّراب، فالسّحب الموقرة بالماء، فالسّفن الّتي تجري بيسرٍ في الماء،فالملائكة الّتي

[١] الإتقان ١/٤٣.

تدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض بإذن ربّها. وجواب القسم تمثّل في وعد الصّدق بالبعث، وفي الجزاء يوم القيامة. وكان القَسَم بماله عَلاقةٌ بالسّماء موطّئاً للقسم بالسّماء ذات الطّرق بين النّجوم والكواكب والمجرّات. وهي طرقٌ مختلفة كاختلاف أقوال الكافرين في حقّ القرآن الكريم. وقد زاد الله تعالى قلوب الكافرين المنصرفين عن القرآن الكريم انصرافاً. وهم يستحقّون الهلاك بسبب افترائهم على الله تعالى الكذب بشركهم، وبسبب الضّلالة الّتي هم منغمسون فيها وغافلون عنها. إنّهم يسألون على سبيل السّخرية عن يوم القيامة. إنّه يوم هم على النّار يُحْرَقون، ويقال لهم ذوقوا نار الحريق والعذاب الّذي كنتم تستعجلونه في الحياة الدّنيا على سبيل الهزء والسّخرية.

أمّا المتّقون فإنّهم في جنّاتٍ وعيون. وهم يأخذون ما أعطاهم الله تعالى من ثواب، بسبب بلوغهم في الدّنيا مرتبة الإحسان. إنّهم كانوا ينامون قليلاً من الّليل، وفي آخر الّليل قرب وقت الفجر هم يستغفرون الله تعالى. وفي أموالهم حقٌّ للسّائل والمحروم في هيئة الزّكاة والصّدقة.

وتجاه إصرار المشركين على شركهم يتمّ التّحوّل إلى بعض آيات الله تعالى في الكون والنّفس بقصد أن يتدبّرها القوم ويؤمنوا بيوم القيامة. إنّ في الأرض آياتٍ لمن بلغوا مرتبة اليقين بالآخرة وعملوا ليوم القيامة، وكذلك في النّفس الإنسانيّة آياتٌ

دالّاتٌ على قدرة الله تعالى المطلقة فلعلّ المشركين يبصرونها ويتدبّرونها. وفي السّماء رزقكم أيّها النّاس وذلك في هيئة المطر سبب الرّزق بإذن الله تعالى، وفي السّماء ما نوعد من خيرٍ أو شرّ. فوربّ السّماء والأرض إنّ البعث بعد الموت لحقٌّ مثلما أنّكم تنطقون أيّها المشركون في هذه الحياة الدّنيا.

وتجاه إصرار المشركين على شركهم يتمّ التّحوّل إلى بعض الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى كي يعتبر المشركون فيؤمنوا. وكان المنطلق الحديث عن ضيف إبراهيم عليه السّلام الّذين أكرمهم عليه السّلام هو وزوجه سارّة. وكان هؤلاء الضّيف ملائكةً كراماً أرسلهم الله تعالى لقلب قرى قوم لوطٍ عليه السّلام رأساً على عقب.لقد نجّى الله تعالى لوطاً عليه السّلام وابنتيه وأهلك الباقين. وكذلك أهلك الله تعالى فرعون وملأه، وعاداً قوم هودٍ عليه السّلام، وثمود قوم صالحٍ عليه السّلام، وقوم نوحٍ عليه السّلام. وهكذا تتنوّع الوسائل من ترغيبٍ وترهيب لحمل المشركين على نبذ الشّرك واعتناق عقيدة التّوحيد.

ويعود السّياق إلى الحديث في بعض آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ ومنها البعث. إنّ الله تعالى هو الّذي بنى السّماء بقوّةٍ ووسّع أرجاءها، ومدّ الأرض وجعلها مهداً لخلقه، ومن كلّ شيءٍ خلق زوجين اثنين، ذكراً وأنثى. وهذا قانونٌ مطّردٌ في النّاس، والحيوان، والنّبات، والجماد، فلم يبق من واحدٍ

سوى الله تعالى خالق كلّ شيء، فأفردوه بالعبادة أيّها المشركون وفرّوا إليه جلّ وعلا، ولاتجعلوا معه إلهاً آخر. إنّ الله تعالى قد أرسل محمّداً ﷺ للعالمين نذيراً.

ويتحوّل السّياق إلى تسلية المصطفى ﷺ. إنّ عادة المشركين في كلّ زمان ومكانٍ أن يتّهموا رسول الله تعالى إليهم بالسّحر والجنون. وهم ينطلقون في الاتّهام من باعث الطّغيان والبغي. فأعرض عنهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم حتّى يأتيك أمر الله تعالى فيهم. إنّك يامحمّد لست بملومٍ فقد بلّغت الرّسالة وأدّيت الأمانة ونصحت الأمّة. وإنّ مهمّتك تقف عند الإنذار وقد فعلت فذكّر إنّ الذّكرى أو الموعظة تنفع المؤمنين.

وللذّات العليّة حظّها في السّورة الكريمة. فالله تعالى إنّما خلق الجنّ والإنس ليعبدوه عزّوجلّ وحده دون سواه. والله تعالى مايريد من خلقه أن يرزقوه هو أو أنفسهم أو غيرهم، ولا أن يطعموه هو أو أنفسهم أو غيرهم. إنّ الله تعالى هو الرّزّاق ذو القوّة الغالبة المتين الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وتختم السّورة بتقرير العذاب الّذي ينتظر المصرّين على الشّرك وإنكار البعث. إنّ لهم عذاباً شديداً مثل عذاب أمثالهم من المشركين السّابقين فلا يستعجلوا العذاب على سبيل الاستهزاء في الدّنيا. إنّ من نصيبهم العذاب الشّديد والهلاك الأكيد في يوم القيامة الّذي ينكرونه.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

ثانياً: سورة الطّور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ
ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ
﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا
لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ
﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ
أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ
أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ
بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ
ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ
هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا
فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ
يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾
وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((عذاب الكافرين الشّديد في نار جهنّم جزاء سوء عملهم في الدّنيا))

الآيات (١-١٦)

يُقْسِم الحقّ جلّ وعلا بجبل الطّور في شبه جزيرة سَيْناء، ولهذا الجبل عَلاقةٌ بموسى عليه السّلام الّذي أوحى الله تعالى إليه التّوراة، كما يُقْسِمُ الحقّ جلّ وعلا بالكتاب الموحى به المسطور الّذي قد يكون التّوراة أو القرآن الكريم أو جميع الكتب السّماويّة الموحى بها من ربّ العالمين. وكأنّ ثمّة صعوداً من الجبل إلى السّماوات العلى مصدر الوحي. ثمّ يقسم الحقّ جلّ وعلا بالبيت المعمور في السّماء السّابعة، ثمّ بالسّماء الدّنيا الّتي رفعها عزّ وجلّ وجعلها سقفاً للأرض، ثمّ بالبحر المملوء ماءً. وهكذا يكون بعد الصّعود نزولٌ متدرّجٌ فيما يشبه الدّائرة انطلاقاً من الجبل صعوداً وانتهاءً بالبحر نزولا. وجواب القَسَم يُقَرِّرُ أنّ عذاب ربّك أيّها الإنسان واقعٌ بالكافرين، وليس له دافع، ويكون يوم تتحرّك السّماء وتضطرب اضطراباً شديداً، وتسير الجبال سيراً عنيفاً، إيذاناً بقيام السّاعة. فشديد العذاب في ذلك اليوم للمكذّبين الّذين هم في باطلهم يخوضون، وفي لعبهم ينغمسون. إنّهم سوف يُدْفَعون في ظهورهم إلى النّار بعنف ويقال لهم: هذه هي النّار الّتي كنتم تكذّبون بها في الدّنيا. أفسحرٌ هذا على غرار اتّهامكم الوحي بأنّه سحرٌ أم أنّكم قد ذهبت منكم الأبصار فأنتم لاتبصرون. ادخلوا أعماق نار جهنّم فاصبروا على حرّها أو لاتصبروا سواءٌ عليكم صَبْرُكم وجزعكم إنّما تجزون عقاب ماكنتم تعملون من آثام وترتكبون من ذنوب وتأتون من فواحش.

(٢)

((ثواب المؤمنين الواسع في الجنّة وثواب ذرّيّتهم بسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وَحْدَه))

الآيات(١٧-٢٨)

وفي مقابل عذاب الكافرين الشّديد في نار جهنّم هنالك ثواب المؤمنين الواسع في جنّات النّعيم. إنّ المتّقين في جنّاتٍ ونعيم، متلذّذين بسبب ما أعطاهم ربّهم من ثوابٍ عظيم، ووقاهم ربّهم عزّ وجلّ عذاب الجحيم فضلاً منه ونعمة. ويقال لهم كلوا واشربوا هنيئاً بسبب ماكنتم تعملون من حسنات، ويَبْدُون متّكئين على سررٍ مصفوفةٍ متقابلين. وزوّجهم الله تعالى بحورٍ عين. والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمانٍ وعمل صالحات ألحق الله تعالى الذّريّة بالآباء في رفيع المنزلة دون أن ينقص ذلك من ثواب الآباء أو يحطّ من منزلتهم الرّفيعة. إنّه الفضل من الله تعالى وكفى. وكلّ امرىءٍ يوم القيامة رهينٌ بما كسب ومجازىً بما عمل من خيرٍ أو شرّ. وقد زاد الحقّ جلّ وعلا المؤمنين وذرّيّتهم بما اشتهوا من فواكه ولحوم. ويتجاذبون في الجنّة كئوس خمرٍ بريئةٍ من كلّ منغصّات خمر الدّنيا. إنّها على سبيل المثال لاتغتال عقولهم فلا كلام سيّئاً يتعلّق بشربها ولافعل قبيحاً يأثم المرء بسببه. أمّا الخدم والحشم فإنّهم الغاية في الأناقة والنّظافة فكيف بأصحاب الجنّة أنفسهم. إنّهم يطوف عليهم غلمانٌ لهم في عمر الزّهور كأنّهم صفاء بشرة ونقاء لون لؤلؤٌ مستورٌ في صدفه.

وعلى سبيل التّلذّذ والتّحدّث بنعمة الله تعالى يُقْبِل بعض أصحاب الجنّة على بعضٍ يتساءلون عن أيّامهم الخالية في الدّنيا وقالوا جميعاً معبّرين عن حذرهم وعدم غفلتهم: إنّا كنّا في الدّنيا في أهلنا خائفين أن يعذّبنا الله تعالى وألّا يتفّضل بقبول أعمالنا الصّالحة الّتي أردنا بها وجهه الكريم جلّ وعلا. لقد منّ الله تعالى علينا فقبل أعمالنا

الصّالحة وتفضّل علينا فَوَقانا عذاب السّموم. إنّا كنّا من قبل نخلص العبادة له عزّ وجلّ وحده دون سواه. إنّه جلّ وعلا هو الواسع الجود والكرم، الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ.

وهكذا يبيّن المتّقون النّعوت الّتي اتّسموا بها فدخلوا الجنّة بفضل الله تعالى بسببها، وفي مقدّمتها إخلاص العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

(٣)

((انقادَ المشركون للشّيطان الرّجيم ولِهَوَى النّفس الأمّارة بالسّوء فأصرّوا على الكفر بالله تعالى وبالرّسول الكريم والقرآن العظيم))

الآيات (٢٩-٤٤)

على الرّغم من التّرهيب والتّرغيب في السّورة الكريمة الّتي كان المصطفى ﷺ والمؤمنون يرتّلونها في الصّلاة وفي غير الصّلاة ترتيلاً فقد أصرّ المشركون على شركهم وعلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى. وتأبى رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم إلّا أن تلاحقهم وتقلّب لهم أسلوب الدّعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم على وجوهه المختلفة. وفي هذا القِسْم من السّورة الكريمة تثبيتٌ لفؤاد المصطفى ﷺمن ناحية، وتبكيتٌ للمشركين الّذين انقادوا للشّيطان الرّجيم وهوى النّفس الأمّارة بالسّوء من ناحيةٍ أخرى. فاستمرّ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم في وعظك الكافرين وإنذارهم بين يدي عذاب جهنَّم الشّديد، فما أنت يامحمّد، بنعمة ربّك وفضله عليك، بكاهنٍ يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورَئِيّاً يُلْقِي إليه الأخبار، ومن ثمّ يدّعى معرفة الأسرار، ويتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزّمان[١] ولا أنت يامحمّد، بشهادة الحقّ جلّ وعلا بمجنون تسيطر على قواه العقليّة قوًى خارجيّةٌ خفيّةٌ شرّيرة. إنّ كفّار مكّة حينما يزعمون أنّ مَثَلَ محمّد ﷺ مثل الكاهن يُكْذِبُهُمُ الحقّ

[١] انظر هنا- مثلاً- النّهاية في غريب الحديث والأثر٤/٢١٤.

جلّ وعلا ويجيء بالحقّ وبالتّفسير الأحسن، فما محمّدٌ ﷺ بكاهنٍ ولامجنون. وكذلك ليس محمّدٌ ﷺ بشاعر، وليس القرآن الكريم ضرباً من الشّعر وهذيان الشّعراء. إنّ كفّار مكّة يصرّون على الإعراض عن القرآن الكريم، وعلى عمى القلوب الّتي في الصّدور. إنّهم بدلاً من أن يُقْلِعُوا عن اتّهام محمّد ﷺ بأنّه كاهنٌ أو مجنون ويعودوا إلى الحقّ، هم يتمادون في غيّهم فيتّهمون النّبيّ ﷺ بأنّه شاعر، ويتربّصون به ﷺ ريب المنون، وصروف الدّهر، وينتظرون على أحرّ من الجمر موته وذهابه كأمس الدّابر، كما مضى قبله سائر الشّعراء الّذين هم في كلّ وادٍ من أودية القول والطّبيعة يهيمون.

إنّ الحقّ جلّ وعلا ينكر على كفّار مكّة اتّهامهم له ﷺ بأنّه شاعر وتربّصهم به ﷺ ريب المنون واخترام المنيّة له. إنّ الحقّ جلّ وعلا الّذي ينفي عن النّبيّ ﷺ صفة الشّعر الّتي أصرّ المشركون على إلصاقها به ﷺ يهدّد الكافرين وينذرهم فيأمر المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين: تربّصوا الشّرّ والموت بي فإنّي معكم من المتربّصين بكم الشّرّ والموت الزّؤام. لقد تحقّق ماتربصّه المصطفى ﷺ بالمشركين من شرّ مستطير وموتٍ زؤام.

وهل كفّار مكّة ينطلقون في اتّهامهم المصطفى ﷺ بأنّه شاعر من عقولهم الرّاسخة وأحلامهم الّتي تزن الجبال رزانة ! لا. إنّهم أوّل من يعرف أنّهم كاذبون في اتّهامهم لأنّهم أعرف النّاس بضروب الشّعر ومقاصده. بل الحقيقة أنّ القوم قد بلغوا غاية البغي ومنتهى الطّغيان. لقد عصف طغيانهم الجامح وعاطفتهم المندفعة بأحلامهم وعقولهم فهم أشبه بالثّور الهائج أو المركبة الّتي فقدت كوابحها في اتّجاهها نحو الهاوية.

ولم يَرْعَوِ المشركون إلى سبيل الرّشاد، بل تحوّلوا إلى المزيد من الاندفاع والشّطط والعناد. إنّهم بباعث الكفر وعدم الإيمان بالله تعالى يتّهمون المصطفى ﷺ بأنّه اختلق القرآن الكريم وافتراه. فالقرآن الكريم بحسب زعم المشركين من تأليف محمّد ﷺ. وبما أنّ محمّداً ﷺ بَشَر وهم بشر فليأتوا إذن بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين في زعمهم أنّ القرآن من كلام محمّد ﷺ. ولمّا كان المشركون قد عجزوا عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدةٍ من سور

القرآن الكريم، ورغم ذلك هم أصرّوا على زعمهم أنّ القرآن الكريم، من كلام محمّد ﷺ، فقد بيّنت السّورة الكريمة السّبب وراء هذا الإصرار. إنّهم لايؤمنون بالله تعالى فهم كافرون، وليس وراء الكفر ذنب.

ولمّا كان المشركون المصرّون على شركهم قد استنفدوا جلّ اتّهاماتهم للنّبيّ ﷺ، وقد دَحَضَتْها السّورة الكريمة دحضاً، فهل إصرار المشركين على تكذيب النّبيّﷺ كان بباعث الاعتقاد أنّهم خَلَقُوا أنفسهم، أو أنّهم خُلِقوا من غير شيء، أو أنّهم خَلَقُوا السّماوات والأرض. ويلاحظ التّدرج المّطرد من الأمر الخطير إلى الأمر الأخطر منه. الحقيقة أنّ القوم لا يوقنون بالبعث والحساب والجزاء. هذه هي مصيبتهم العظمى وطامّتهم الكبرى.

أم أنّ الباعث لكفّار مكّة على كيل التّهم للمصطفى ﷺ أنّ عندهم خزائن ربّك يامحمّد من النّبوّة والرّزق وما إليهما، أم هم المسيطرون على الكون المحرّكون دفّته! وبما أنّ المشركين ليس عندهم هذا ولايملكون ذاك فهل لهم سلّمٌ يستمعون فيه إلى الملأ الأعلى وإلى الحُجَج الّتي يستدلّون بها على صواب رأيهم وصحّة موقفهم! ما أَسْهَلَ القولَ وأصعب الفعل. فليأت مستمعهم بالسّلطان المبين والحجّة الدّامغة.

إنّ مشركي مكّة ما ازدادوا إلّا استكباراً وعتوّا. إنّهم تطاولوا إلى مقام الذّات العليّة فزعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى، وصوّروا أصنامهم على هيئة الملائكة وفق تصوّرهم السّقيم وخيالهم المريض، وقالوا مانعبد الملائكة إلّا ليقرّبونا إلى الله تعالى زلفى! إنّهم يختارون لأنفسهم البنين الّذين يحبّونهم ويختارون لله تعالى البنات الّلاتي لايحبونهنّ بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى.

أم أنّ المشركين مصرّون على الإعراض عنك يامحمّد لأنّك مقابل دعوتك لهم إلى توحيد الله تعالى تسألهم أجراً كبيرا، وتفرض عليهم غُرْماً ثقيلا. إنّك يامحمّد تعطيهم كلّ

شيء دون مقابل. فلماذا هم يقفون منك إذن موقف المناوئ لك، الكافر بالله تعالى، الصّادّ عن سبيله عزّ وجلّ! أمن أجل أنّ عندهم شيئاً من الغيب كالبعث وأمور الآخرة فهم يكتبونه ليحاجّوك به. إنّهم ليس عندهم شيءٌ من الغيب.

أم أنّ المشركين يقفون منك يامحمّد هذا الموقف لأنّهم يريدون الكيد لك والمكر بك. إنّ الحقّ جلّ وعلا يعد ووعده الحقّ بأنّ المشركين هم المكيدون وهم المغلوبون والمقمورون والمقهورون.

أم أنّ للمشركين إلهاً غَيْرَ الله تعالى فهم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه. تنزّه الله تعالى الواحد الأحد عن كلّ صور الشّرك الّتي تورّط فيها المشركون وعن كلّ ماحاول الظّالمون إلحاقه بالذّات العليّة ممّا يصطدم بوحدانيّتها وعظمتها.

بل إنّ المشركين قد انحط بهم درك بلادة الإحساس إلى حدّ أنّهم لو رأوا قطعاً من السّماء ساقطةً عليهم عقاباً من الله تعالى لهم وعذاباً لقالوا كما قالت هود: هذا سحابٌ مركوم، وعارضٌ مُمْطِرُنا، وغيثٌ ساقه الله تعالى لنا!

وهل وراء هذا الدّرك من بلادة الإحساس وراء! لا. والمعروف أنّ كفّار مكّة رمزٌ للكافرين في كلّ زمانٍ ومكان. ولايملك المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة للدّعاة إلى الله تعالى في كلّ زمانٍ ومكان إلّا الاستمرار في الدّعوة إلى الله تعالى والصّبر إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولا.

(٤)

((عذاب المشركين في الدّنيا والآخرة، وتسلية النّبيّ ﷺ))

الآيات (٤٥-٤٩)

فدع يامحمّد المشركين في غيّهم حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يصعقون حينما ينفخ إسرافيل عليه السّلام في الصّور النّفخة الأولى نفخة الصَّعَق الّتي تميت بإذن الله تعالى الخلائق إلّا من شاء ربّك من الملائكة والولدان والحور العين. في يوم القيامة لايغنى عن المشركين كيدهم في الدّنيا شيئاً ولا هم يُنصَرون بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه. وإنّ للّذين أشركوا عذاباً قبل يوم القيامة ولكنّ أكثر المشركين لا يعلمون أنّ ما يحلّ بهم في الحياة الدّنيا من مصائب إنّما هو العذاب الأدنى الّذي يذيقهم الله تعالى قبل العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى. واصبر يا محمّد لحكم الله تعالى فيهم مستقبلاً فإنّك يا محمّد بأعيننا وتحت رعايتنا. والمطلوب منك أن تسبّح متلبّساً بحمد الله تعالى فتقول: سبحان الله وبحمده. إنّ ذلك هو المطلوب منك حين تقوم من النّوم، وحين تقوم للصّلاة فرضها ونفلها، ليلاً ونهاراً. ومن اللّيل فسبّح بحمد ربّك لغروب الشّمس إلى غسق اللّيل، وعليك بصلاة الفجر وبسنّة الفجر الرّكعتين بين يدي صلاة الفجر، عند إدبار النّجوم واللّيل، وإقبال الفجر والصّبح.

التّفسير

(١)

((عذاب الكافرين الشّديد في نار جهنّم جزاء سوء عملهم في الدّنيا))

الآيات (١-١٦)

وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨

والطّور: والجبل الّذي يُدْعى الطّور[١] والطّور اسم جبلٍ مخصوص[٢] والطّور في كلام العرب الجبل. وقال بعض أهل اللّغة: لايُسَمَّى طوراً حتّى يكون ذا شجر[٣] وطور سَيْناء اسم جبل بقرب أَيْلة[٤] وأيلة بالفتح: مدينة على ساحل بحر القُلْزُم ممّا يلي الشّام[٥] وبحر القلزم هو البحر الأحمر.

وكتاب: التّوراة أو القرآن [٦]

مسطور: مكتوب [٧]

في رَقّ: في صحيفة [٨]

منشور: يقرأ على النّاس جِهارا [٩]

والبيت المعمور: عن أنس بن مالك عن النّبيّ ﷺ قال: البيت المعمور في السّماء السّابعة يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لايعودون إليه

---

[١] تفسير الطّبري٢٧/١٠.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"طور" ٢/٤٠٣.

[٣] معجم البلدان:"طور"

[٤] معجم البلدان: "طور سيناء".

[٥] معجم البلدان:"أيلة"

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/١٠.

[٨] تفسير الطّبري ٢٧/١٠.

[٩] انظر تفسير ابن كثير ٧/٤٠٢.

حتّى تقوم السّاعة[١] والبيت المعمور الّذي يُعْمَر بكثرة غاشيته وهو بيتٌ فيما ذُكِر في السّماء بحيال الكعبة من الأرض[٢] وجاء في صحيح مسلم[٣] في حديث الإسراء:"ثمّ عَرَج إلى السّماء السّابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك. قال: محمّد ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتِح لنا. فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَك لايعودون إليه" وقال ابن كثير[٤] عن البيت المعمور:" هو كعبة أهل السّماء السّابعة. ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السّلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنّه باني الكعبة الأرضيّة. والجزاء من جنس العمل. وهو بحيال الكعبة. وفي كلّ سماء بيتٌ يَتَعَبَّدُ فيه أهلها ويصلّون إليه. والّذي في السّماء الدّنيا يقال له: بيت العزّة والله أعلم"

والسّقف المرفوع: السّماء. وجعلها سقفاً لأنّها سماءٌ للأرض، كسماء البيت الّذي هو سقفه[٥]

والبحر المسجور: أي المملوء [٦]

يُقسِم الحقّ جلّ وعلا بجبل الطّور في شبه جزيرة سَيْناء الّذي كلّم الله تعالى موسى عليه السّلام عنده وأوحى إليه بالتّوراة، كما يقسم جلّ وعلا بكتابٍ مسطورٍ ومكتوبٍ في رَقٍّ منشورٍ وصحيفةٍ مقروءة. ويصحّ أن يكون المراد بالكتاب التّوراة لوجود قرينة الطّور، ويصحّ أن يكون المراد القرآن الكريم، كما يصحّ أن يكون المراد جميع

---

[١] انظر تفسير الطّبري ١١/٢٧ وصحيح مسلم تحقيق محمّد فؤاد عبدالباقي ١٤٦/١ حديث رقم ٢٥٩ وبشرح الإمام النّووي ٢١٣/٢.

[٢] تفسير الطّبري ١٠/٢٧.

[٣] تحقيق عبدالباقي ١٤٦/١ وبشرح النّووي ٢١٣/٢.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٠٣/٧.

[٥] تفسير الطّبري ١١/٢٧.

[٦] تفسير الطّبري ١٢/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٠٥/٧ والجلالين.

الكتب السّماويّة. والمعروف أنّ السّطر أو الكتابة إحدى وسيلتي حفظ جميع الكتب السّماويّة، ويكاد يختصّ القرآن الكريم بوسيلة الحفظ الأخرى وهي الصّدر أو الحفظ، فقد يسّر الحقّ جلّ و علا القرآن الكريم للذّكر وسهّله للحفظ. ويقسم الحقّ جلّ و علا كذلك بالبيت المعمور في السّماء السّابعة بحيال الكعبة من الأرض ويدخله كلّ يومٍ سبعون ألف ملك ثمّ لايعودون إليه حتّى تقوم السّاعة. كما يقسم الحقّ جلّ وعلا بالسّقف المرفوع وهي السّماء الّتي جعلها الله تعالى سقفاً مرفوعاً للأرض. وقد قال عزّ من قائل[1]:﴿ وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ ويقسم الحقّ جلّ وعلا أخيراً بالبحر المملوء.

ويصحّ أن نتبيّن التّدرّج في الصّعود والنّزول على النّحو التّالي. إنّ الجبل مرتفع. ولجَبَلِ الطّور عَلاقةٌ بالوحي على نحوٍ من الأنحاء. ومصدر الوحي السّماء عموما. ثمّ كان الحديث عن البيت المعمور في السّماء السّابعة ثمّ كان الحديث عن السّماء الأولى. ثمّ كان الحديث عن البحر المملوء ماءً. وكأنّ الذّهن يتحرّك فيما يشبه الدّائرة وكذلك العين تبعاً. ولايخفى الرّاحة في هذه الحركة والسّعادة.

وجواب القسم:﴿إنّ عذاب ربّك لواقع. ماله من دافع﴾ والمعنى: إنّ عذاب ربّك يامحمّد ويا أيّها الإنسان لواقعٌ على الكافرين يوم القيامة. وليس لهذا العذاب من دافعٍ يدفعه، أو صارفٍ يصرفه إذا قضى الله تعالى بوقوعه ونزوله.

---

[1] سورة الأنبياء ٣٢.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾

يوم: ظرف زمان منصوب متعلّق بـ:﴿ دافع﴾ أو بـ :﴿واقع﴾[1].

يوم تمور السّماء مورا: تتحرّك في استدارة[2] وتجري بسرعة[3] وتذهب وتجيء وتضطرب في تحرّكها[4]

فويلٌ: شدّة عذاب[5]

الّذين هم في خوضٍ يلعبون: الّذين هم في الدّنيا يخوضون في الباطل[6] ويلعبون غافلين عمّا هم صائرون إليه من عذاب الله في الآخرة[7].

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/١٥٥.

[2] تفسير الطّبري ٢٧/١٣ وتفسير ابن كثير ٧/٤٠٦ والجلالين.

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"مور" ٢/٦١٨.

[4] انظر لسان العرب:"مور"

[5] الجلالين.

[6] تفسير ابن كثير ٧/٤٠٦.

[7] تفسير الطّبري ٢٧/١٣.

يوم يدعّون إلى نار جهنم: يوم يدفعون بعنف وشدّة[١] وجفوة[٢] أي يدفعون دفعاً عنيفاً[٣] يقال: دععت في قفاه إذا دفعت فيه[٤]

أفسحرٌ هذا: العذاب الّذي ترون كما كنتم تقولون في الوحي هذا سحر[٥].

اصلوها: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته[٦]

إنّ عذاب ربّك الّذي ليس له من دافعٍ لَواقِعٌ يوم تتحرّك السّماء وتضطرب في استدارتها وذهابها ومجيئها، ويوم تسير الجبال سيراً وتصير هباءً منثوراً،إيذاناً بقيام السّاعة. إنّ شديد العذاب في ذلك اليوم المهيب للمكذّبين الّذين هم في الحياة الدّنيا يخوضون في باطلهم، وينشغلون عن جدّ الأمور بلعبهم، ويَغْفُلون عمّا هم صائرون إليه من عذاب الآخرة. إنّهم في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود سوف يُدْفَعون بعنفٍ في ظهورهم، ويساقون بشدّةٍ إلى النّار وبئس القرار. ويقال لهم على سبيل التّبكيت والتّقريع: هذه هي النّار الّتي كنتم تكذّبون بها في الدّنيا. أفسحرٌ هذا العذاب الّذي تذوقون الآن، وبذلك هو من جنس السّحر الّذي كنتم تصفون به الوحي، أم أنتم لاتبصرون بعيونكم، وبذلك اجتمع لكم عمى البصر إلى عمى البصيرة. ادخلوا أعماق نار جهنّم كي يشملكم لهبها فاصبروا على ألم العذاب أو لا تصبروا سواءٌ عليكم صبركم وجزعكم لأنّه لاشيء ينفعكم. إنّكم إنّما تجزون عذاب ماكنتم تعملون في الحياة الدّنيا من سوء.

---

[١] تفسير الطّبري ١٣/٢٧ و١٤ وتفسير ابن كثير ٤٠٦/٧ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني:"دع" ٢٢٦/١.

[٢] لسان العرب:"دعع"

[٣] لسان العرب:"دعع"

[٤] تفسير الطّبري ١٤/٢٧.

[٥] الجلالين.

[٦] تفسير ابن كثير ٤٠٦/٧.

(٢)

((ثواب المؤمنين الواسع في الجنّة وثواب ذريّتهم بسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وَحْدَه))

الآيات (١٧-٢٨)

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ ﴾

فـاكهين: متلـذّذين[١] ويتفكّهـون بمـا آتاهـم الله مـن النّعـيم مـن أصـناف الملاذّ[٢]وعندهم فاكهة كثيرة. وذلك نظير قول العرب للرّجل يكون عنده تمرٌ كثير رجلٌ تامر، أو يكون عنده لبنٌ كثيرٌ فيقال هو لابن[٣]

متّكئين: توكّأ على الشّيء واتّكأ: تحمّل واعتمد، فهو متّكئ. والمتّكئ في العربيّة كلّ من استوى قاعداً على أحد شِقَّيْه [٤]

على سررٍ مصفوفة: بعضها إلى جنب بعض[٥] قد جعلت صفوفا[٦] أي وجوه بعضهم إلى بعض[٧]

وزوّجناهم بحور: الحور جمع حوراء وهي الشّديدة بياض مقلة العين في شدّة سواد الحَدَقَة[٨]

---

[١] الجلالين.

[٢] تفسير ابن كثير ٤٠٧/٧.

[٣] تفسير الطّبري١٤/٢٧.

[٤] لسان العرب :"وكأ"

[٥] الجلالين.

[٦] تفسير الطّبري ١٤/٢٧.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٠٧/٧.

[٨] تفسير الطّبري ١٥/٢٧.

عين: جمع عيناء وهي العظيمة العين في حسنٍ وسَعَة[1]

إنّ الّذين اتّقوا الله تعالى وخافوا الوقوف بين يديه عزّ وجلّ ففعلوا ماأُمِروا به واجتنبوا مانُهُوا عنه في جنّاتٍ ونعيمٍ مقيم. متلذّذين بما آتاهم ربّهم جلّ وعلا من خيرٍ عميم عُبِّر عنه بالفاكهة الكثيرة. ووجود الفاكهة وهي من التّفكّه بمعنى التّلذّذ، دليلٌ على توافر كلّ ماهو ضروريّ. وقد وقى الرّب جلّ وعلا المتّقين عذاب الجحيم، فهم بفضل الله تعالى يدخلون جنّات النّعيم رأسا.

وممّا يزيد الفاكهة الكثيرة اللّذيذة مزيد لذّة ويزيد المتّقين بهجةً وسعادةً ورضا تكرار القول:﴿ ربّهم﴾ في الآية الكريمة. إنّ لفظ الرّب الّذي يومئ إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه إنّما يجئ في مواطن الخصوص، وحينما يراد إذاعة جوّ الرّضا والبهجة والحبور. وهاهوذا اللّفظ الحبيب إلى كلّ قلبٍ سليم، ونفسٍ مطمئنّة، يجيء مرّتين اثنتين، وفي صيغةٍ صوتيّةٍ واحدة:﴿ربّهم﴾ وبذلك يكون التّناغم كبيراً بين كلٍّ من المعنى والمبنى.

وهؤلاء المتّقون يقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الحياة الدّنيا من أعمالٍ صالحة، وبما أسلفتم في الأيّام الخالية.

ودليلاً على قمّة النّعيم الّذي هم فيه تراهم متّكئين متقابلين على سررٍ قد جُعِلَت صُفُوفاً. وقد زوّجهم الله تعالى بحورٍ عين، شديدات بياض الأعين شديدات سوادها، عظيمات الأعين في حسنٍ وسَعة. وإنّ جمال أعين الزّوجات في الجنّة دليل جمالهنّ الفتّان، وحسنهنّ الخلّاب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾

وما ألتناهم: ومانقصناهم [1]

---

[1] تفسير الطّبري ١٥/٢٧.

ويتوّج النّعيم المقيم في جنّات الخلود في حقّ الّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ولَحِقَتْهُمْ بإحسان أنّ الحقّ جلّ وعلا يُلْحِق بالآباء الصّالحين أبناءهم الصّالحين الّذين قصّرت أعمالهم الصّالحة أن تبلغ بهم منزلة الآباء. إنّه جلّ وعلا يرفع الأبناء إلى المنزلة الرّفيعة للآباء، فضلاً منه ونعمة، دون أن يؤخذ شيءٌ من الأعمال الصّالحة للآباء. إنّه الفضل العظيم من الله تعالى وكفى.

ويلاحظ أنّ صفة الإيمان مشتركةٌ بين الآباء والأبناء. وتأكيداً لوجوب الحذر وعدم الغفلة، وطرداً لما قد يسبق إلى رُوع بعضنا وظنّه أنّ صلاح الآباء يشمل دائماً الأبناء جاء التّذييل في الآية الكريمة:﴿ كلّ امرىءٍ بما كسب رهين﴾ إنّ كلّ إنسانٍ مجازىً على مايفعل من خيرٍ أو شرّ. هذه هي القاعدة الّتي ينبغي أن يفهمها الجميع جيّداً ويعمل في ضوئها. أمّا إلحاق الله تعالى الأبناء بالآباء وذلك برفعهم إلى منزلة الآباء لكرامة الآباء على الله تعالى فهذا محض فضلٍ منه تعالى. وينبغي دائماً وأبداً الإيمان وعمل الصّالحات بمقياس الإسلام ابتغاء وجه الله تعالى وَحْدَه دون سواه.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطّبري ١٦/٢٧.

وأمددناهم: زدناهم في وقتٍ بعد وقت [١] وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب. والمدّ في المكروه[٢].

ممّا يشتهون: وإن لم يصرّحوا بطلبه[٣].

يتنازعون فيها كأساً: يتعاطون في الجنّة[٤] ويتجاذبون[٥] خمراً[٦] وكأس الشّراب و يتداولونها بينهم [٧].

لا لغوٌ فيها: لا باطل[١] بسبب شربها يقع بينهم[٢] وعن مجاهد: لايستبّون [٣] أي لايتكلّمون عنها بكلامٍ لا غٍ أي هذيان[٤].

---

[١] الجلالين.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"مدّ" ٢/٦٠٠.

[٣] الجلالين .

[٤] تفسير الطّبري ١٧/٢٧ وفتح الباري ٦٠١/٨.

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"نزع" ٦٣١/٢.

[٦] تفسير ابن كثير ٤٠٩/٧ والجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ١٧/٢٧.

[١] تفسير الطّبري ١٧/٢٧.

[٢] الجلالين.

ولا تأثيم: ولافعل فيها يؤثم صاحبه[٥] وعن مجاهد: لايؤثمون[٦].

ويطوف عليهم غلمان: ويطوف هؤلاء الغلمان على هؤلاء المؤمنين في الجنّة بكئوس الشّراب الّتي وصف جلّ ثناؤه صفتها[٧].

كأنّهم لؤلؤٌ مكنون: مصونٌ في الصَّدَف[٨] فهو أنقى له وأصفى لبياضه[٩].

لقد زاد الله تعالى أولئك المؤمنين ومن اتّبعهم من ذرّيّتهم ورفعهم الله تعالى إلى مستوى آبائهم وأمدّهم في وقتٍ بعد وقت بفاكهةٍ ولحمٍ ممّا يشتهون ويتمنّون وإن لم يصرّحوا بالطّلب. ويتعاطون في الجنّة ويتداولون كأساً من الخمر المغايرة لخمر الدّنيا تماماً، فلا لغو من القول بسبب شربها ولاهذيان سكران، ولافِعْلَ سيّئاً يؤثم صاحبه بسببه. إنّ خمر الآخرة ليس فيها شيءٌ من منغّصات خمر الدّنيا، لأنّ أثرها حَسَنٌ في كلٍّ من الرّأس والجسد.

ويطوف على أولئك المؤمنين في الجنّة خدمهم وحشمهم في هيئة الغلمان والولدان الغاية في الحسن والأناقة وكأنّهم ذلك اللّؤلؤ المكنون في صدفه، المستور في كِنّه، فهو الأنقى مظهراً، الأصفى لونا.

---

[٣] تفسير الطّبري ١٧/٢٧.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٠٩/٧.

[٥] تفسير الطّبري ١٧/٢٧.

[٦] تفسير الطّبري ١٧/٢٧.

[٧] تفسير الطّبري ١٨/٢٧.

[٨] الجلالين.

[٩] تفسير الطّبري ١٨/٢٧.

﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨ ﴾

ووقانا عذاب السّموم: عذاب النّار[١] لدخولها في المسامّ[٢] والسَّموم الرّيح الحارّة الّتي تؤثّر تأثير السّمّ الّذي يدخل بواطن البدن بلطف تأثيره ويقتل[٣].

إنّه هو البَرّ: اللّطيف[٤] والمحسن الصّادق في وعده[٥] والبَرّ في الأصل خلاف البحر. وتصوّر منه التّوسّع فاشتقّ منه البَرّ، أي التّوسّع في فعل الخير. ويُنْسَب ذلك إلى الله تعالى تارةً كما في الآية الكريمة، وإلى العبد تارةً فيقال: برَّ العبد ربّه أي توسّع في طاعته. فِمَن الله تعالى الثّواب، ومن العبد الطّاعة[٦].

الرّحيم: العظيم الرّحمة[٧] الرّحيم بخلقه أن يعذّبهم بعد توبتهم[٨] .

وأقبل بعض المؤمنين في الجنّة على بعض يتساءلون على سبيل التّلذّذ والاعتراف بالنّعمة والشّكر لله تعالى عليها.قال بعضهم لبعضهم الآخر إنّا كنّا قبل في الحياة الدّنيا في أهلنا مشفقين أن يعذّبنا الله تعالى إن لم يتغمّدنا الله تعالى بواسع رحمته، وإن لم يتفضّل علينا بقبول أعمالنا الصّالحة الّتي أردنا بها وجهه الكريم جلّ وعلا. فمنّ الله

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/٢٧.

(٢) الجلالين.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"سمم" ٣١٨/١.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/٢٧.

(٥) الجلالين.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: :بر" ٥١/١.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبري ١٨/٢٧.

تعالى فغفر ذنوبنا، وستر عيوبنا، وقبل أعمالنا الصّالحة، ووقانا عذاب جهنّم، وأدخلنا بفضله جنّات النّعيم، وألحق بنا من آمن وعمل صالحاً من ذرّيّتنا، ورفعهم بمنّه وجوده إلى منزلتنا الرّفيعة الّتي أكرمنا بها. وها نحن أولاء نرفل في نعيم الجنّة المقيم. إنّا كنّا من قبل نُخْلِصُ له العبادة في دار الفناء، وندعوه مخلصين له الدّين. إنّه عزّ وجلّ هو الواسع العطاء، العظيم الرّحمة، الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ، الّذي يرحم عباده فلايعذّبهم بعد أن تابوا إليه عزّ وجلّ توبةً نصوحا.

(٣)

((انقاد المشركون للشّيطان الرّجيم ولِهَوى النّفس الأمّارة بالسّوء فأصرّوا على الكفر بالله تعالى وبالرّسول الكريم والقرآن العظيم))

الآيات (٢٩-٤٤)

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم

مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

بكاهن: الكاهن الّذي يأتيه الرَّئِيّ من الجانّ بالكلمة يتلقّاها من خبر السّماء[1].
نتربّص به: التّربّص الانتظار بالشّيء[2] والصّبر عليه[3]

ريب المنون: صروف الدّهر وحوادثه[1] والمنون: المنيّة[2] والموت[3]
وقوله:﴿ريب المنون﴾ سمّاه ريباً لا أنّه مشكَّكٌ في كونه، بل من حيث تُشكِّك في وقت

---

[1] تفسير ابن كثير ٤١١/٧.

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"ربص" ٢٤٦/١.

[3] انظر تفسير ابن كثير ٤١١/٧.

[1] لسان العرب:"ريب"

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "منن" ٦١٤/٢.

حصوله. فالإنسان أبداً في ريب المنون من جهة وقته لا من جهة كونه[٤] يقول المشركون: هو شاعرٌ نتربّص به حوادث الدّهر يكفيناه بموتٍ أو حادثةٍ مُتْلِفة[٥] روى ابن إسحاق عن ابن عبّاس أنّ قريشاً لمّا اجتمعوا في دار النّدوة في أمر النّبيّ ﷺ قال قائلٌ منهم: احبسوه في وثاق ثمّ تربّصوا به المنون حتّى يهلك كما هلك من قبله من الشّعراء زهير والنّابغة. إنّما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك من قولهم الآية الكريمة[٦].

أحلامهم: عقولهم [٧]

تقوّله: اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه[٨]

بل لايوقنون: بوعيدالله وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة[٩]

أم عندهم خزائن ربّك: من النّبوّة والرّزق وغيرهما فيخصّوا من شاءوا بما شاءوا[١٠]

أم هم المسيطرون: الجبّارون المتسلِّطون [١]

مغرم: المغرم والغُرْم ماينوب الإنسان في ماله من ضررٍ لغير جِنايةٍ منه أو خِيانة[٢] .

---

[٣] المعجم الوسيط: "منّ"

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "ريب" ١/٢٧٠.

[٥] تفسير الطّبري ١٩/٢٧.

[٦] تفسير الطّبري ١٩/٢٧ وانظر السّيرة النّبويّة ٤٨٠/١ فما بعدها.

[٧] تفسير الطّبري ١٩/٢٧ ومفردات الرّاغب الأصفهاني:"حلم" ١٧١/١.

[٨] تفسير ابن كثير ٤١١/٧ وتفسير الطّبري ٢٠/٢٧ والجلالين.

[٩] تفسير الطّبري ٢٠/٢٧.

[١٠] الجلالين.

[١] تفسير الطّبري ٢٠/٢٧.

أم يريدون كيداً: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرّسول وفي الدّين غرور النّاس وكيد الرّسول وأصحابه[٣].

فالّذين كفروا هم المكيدون: فهم المكور بهم دونك فثق بالله وامض لما أمرك به[٤].

فذكّر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بهذا القرآن الكريم المشركين الّذين يصرّون على شركهم ولا يستقرّون على رأي واحدٍ فيك يا محمّد دليلاً على تمكّن عمى البصيرة منهم. ذكّر أيّها الرّسول الكريم واستمرّ في تذكيرك فذلك منتهى المطلوب منك، فما أنت بنعمة ربّك وفضله العظيم عليك بكاهنٍ يأتيه الرَّئِيُّ من الجانّ بالكلمة يتلقّاها من خبر السّماء، وما أنت بمجنون غلبتك على قواك العقليّة قوىً خارجيّة شِرّيرة. إنّك يامحمّد لتُلَقّى القرآن الكريم من لدن حكيمٍ عليم. أم يقول كفّار مكّة تارةً أخرى إنّك شاعرٌ نتربّص به ريب المنون، وننتظر به صروف الدّهر وحوادثه، ونترقّب موته فيمضي كأمس الدّابر كما مضى قبله سائر الشّعراء. قل تربّصوا هلاكي فإنّي متربّصٌ بكم الهلاك وذلك الّذي كان في غزوة بدرٍ على سبيل المثال. وهل كفّار مكّة في قولهم عن النّبيّ ﷺ إنّه شاعرٌ كانوا ينطلقون في هذا القول من اقتناع عقولهم الّتي تزن الجبال رزانةً بأنّ القرآن الكريم ضربٌ من الشّعر ! ألم ينتهوا في اجتماعٍ من أهمّ اجتماعاتهم إلى أنّ النّبيّ ﷺ ليس بشاعرٍ وإلى أنّ القرآن الكريم ليس من الشّعر في شيء؟[١] إذن لماذا يصرّ المشركون على وصف النّبيّ ﷺ بأنّه شاعر ؟ لأنّهم قومٌ بلغوا في الطّغيان غايته والبغي منتهاه.

---

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"غرم" ٢٦٦/٢.

[٣] تفسير ابن كثير ٤١١/٧.

[٤] تفسير الطّبري ٢١/٢٧.

[١] انظر –مثلاً– السّيرة النّبويّة ٢٧٠/١ فما بعدها.

ولم يستقرّ المشركون على إحدى الصّفات الثّلاث الّتي اخترعوها له عليه الصّلاة والسّلام دليلاً على اضطرابهم وعدم تصديقهم أنفسهم فزعموا أنّ النّبيّ ﷺ قد اختلق القرآن الكريم وافتراه. وينكر القرآن الكريم عليهم هذا الافتراء. ويبيّن الباعث الحقيقيّ وراءه وهو أنّ القوم لايؤمنون بالله تعالى بباعث الاستكبار والاستنكاف، وهم يعبّرون عن كفرهم باتّهام المصطفى ﷺ بافتراء القرآن الكريم. والدّليل على أنّ القوم كاذبون في افترائهم أنّهم يتحدّاهم القرآن الكريم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم إن كانوا صادقين في ادّعائهم أنّه من قول محمّد ﷺ، فهو بشرٌ وهم بشر. والدّليل على كذبهم عجزهم عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدةٍ من القرآن الكريم.

وحينما يصرّ المشركون على شركهم وعدم اتّباع المصطفى ﷺ رغم علمهم بكذبهم في ادّعائهم أنّه ﷺ كاهن، أو مجنون، أو شاعر، أو مُخْتَلِقٌ للقرآن الكريم، ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾[٢] فلم يَبْقَ إلّا أن يكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين.

فإذا أصرّ المشركون على شركهم وتكذيبهم الرّسول الكريم والقرآن العظيم فهل هذا يَعْني أنّ المشركين يعتقدون أنّهم خُلِقوا من غير شيء؟ ولكنّ المشركين يؤمنون بتوحيد الرّبوبيّة ويعتقدون أنّ الله تعالى هو الّذي خلقهم. جاء –مثلاً– في سورة الزّخرف[٣] قوله تعالى:﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون﴾ أمّ أنّ المشركين يظنّون أنّهم قد خَلَقوا أنفسهم ! ومن يدري؟ بل ربّما كان المشركون يظنّون أنّهم خَلَقوا السّماوات والأرض! الحقيقة أنّ الباعث للقوم على مواقفهم غير المقبولة، بل غير المعقولة أنّهم لايوقنون بأنّ ثمّة بعثاً وحساباً وجزاءً، وبأنّ الحياة الأولى حياة العمل وبذر البذور، وأنّ الحياة الآخرة حياة الحصاد وجني الثّمار. إنّهم بسبب عدم الإيقان يَظْهَرون في هيئة من

---

[٢] سورة الكهف ٥.

[٣] الآية ٨٧.

يظنّ أنّه خُلِق من غير شيء، أو أنّه خَلَقَ ذاته، أو أنّه خَلَق السّماوات والأرض. ولايخفى أنّ ثمّة تحوّلاً مطّرداً من عمىً إلى عمّى أشدّ. وبطبيعة الحال لم يخلق المشركون ذباباً فضلاً عمّا وراء ذلك. إذن لماذا يصرّ المشركون على عماهم.

أمّ أنّ المشركين عندهم خزائن ربّك يامحمّد من النّبوّة والرّزق وما إليهما! ليس عندهم شيءٌ من ذلك. إنّهم يعرفون هذا ويعترفون به. أم أنّهم هم المسيطرون الجبّارون المتسلّطون! إذا كان المشركون يعترفون بعجزهم عمّا هو أقلّ من هذا فكيف يدّعون أن بيدهم شيئاً من الأمر. إنّهم يعترفون بأنّ لله تعالى وحده دون سواه الخلق والأمر ولكنّهم يعبدون الآلهة المزعومة كي تقرّبهم إلى الله تعالى حسب زعمهم.

أم أنّ للمشركين سلّماً يَرْقَوْن عليه ويستمعون فيه ما يقال في الملأ الأعلى ممّا يعتبر دليلاً لهم وحجّة. إذا ادّعوا هذا فليأت مستمعهم بسلطانٍ مبين وحجّة بيّنة تُبَرّرُ مواقفهم الخاطئة من دعوة المصطفى ﷺ إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد.

وبما أنّ أحداً من المشركين لم يدّع بأنّه استمع إلى الملائكة أو ارتقى سلّماً فضلاً عن أن يأتي بدليلٍ على ذلك، وانظر إلى جملة:"أتى" الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد والاستحالة في مثل هذا الموقف، فقد كان الحديث عن الملأ الأعلى مرشّحاً للحديث في معنىً قريبٍ منه.

أمّ أنّ المشركين الّذين يُحِبُّون البنين ويُبْغِضُون البنات يعتقدون أنّ الله تعالى قد اصطفى لنفسه البنات وأصفاهم بالبنين، وأنّ الملائكة بنات الله تعالى لذا هم يجعلون الأصنام على صور الملائكة وفق تصوّرهم السّقيم ويعبدونهم كي يقرّبوهم إلى الله تعالى زلفى. هل لدى المشركين دليلٌ على شيءٍ من ذلك؟ لا، ولكنّهم يكذبون ويهرفون بما لايعرفون.

أمّ أنّ المشركين انصرفوا عنك يامحمّد لأنّك تسألهم أجراً أرهقهم وألحق بهم الضّرر من غير جنايةٍ منهم أو خِيانة إنّما تسألهم الأجر مقابل دعوتك لهم إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد. ولكنّك يامُحَمَّد لاتسألهم شيئا.

أم أنّ المشركين عندهم شيءٌ من علم الغيب كالبعث وأمور الآخرة فهم يكتبون ذلك حتّى يتمكّنوا من منازعة المصطفى ﷺ ومغالبته. إنّهم ليس عندهم شيءٌ من علم الغيب.

أمّ أنّ المشركين يريدون المكر بالنّبيّ ﷺ والكيد له. إنّ الله تعالى خير الماكرين ومُوْهِن كيد المشركين.

أمّ أنّ للمشركين إلهاً غير الله تعالى له شيءٌ من الخلق والأمر. تنزّه الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولو يولد ولم يكن له كفواً أحد عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون ممّا لايليق بجلاله وعظمته ووحدانيّته.

الحقيقة أنّ المشركين انقادوا للشّيطان الرّجيم ولهوى النّفس الأمّارة بالسّوء وكفى.

والشّيء الّذي نودّ أن نقرّره هو أنّ هذا النّوع من الأسئلة المتلاحقة الّتي يراد بها تبكيت كفّار مكّة وتقريعهم ممّا تختصّ به سورة الطّور المكيّة بين سائر سور القرآن الكريم.

وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾

كسفا: الكسف جمع كسفة مثل التّمر جمع تمرة والسِّدر جمع سدّرة[١] والكسفة قطعة من السّحاب والقطن ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة الحائلة وجمعها كِسف بسكون السّين وفتحها[٢] عن ابن عبّاس: كسفاً قطعا [٣].

سحابٌ مركوم: مركومٌ بعضه على بعض[٤]

وإن يرَ كفّار مكّة قطعاً من السّماء متّجهةً نحوهم لإنزال العذاب استجابةً لدعائهم وطلبهم ذلك على سبيل الاستهزاء لقالوا على سبيل الاستعباد للعذاب دليلاً على عمى القلوب الّتي في الصّدور: هذا الّذي نراه سحابٌ مركومٌ بعضه على بعض وعارضٌ ممطرنا وغيثٌ متّجهٌ صوبنا. وحُمْقُ كفّار مكّة باستعجال العذاب على نحو ما أشارت إلى ذلك سورة الأنفال[٥] مثلاً وسورة الإسراء[٦] وظنّهم قِطَعَ العذاب من السّماء سحاباً ركاميّاً يحمل المطر الغزير والخير الوفير سبق أن تمثّل في عادِ قوم هودٍ عليه السّلام وذلك في سورة الأحقاف في الآيات الكريمات من الحادية والعشرين حتّى السّادسة والعشرين.

---

[١] تفسير الطّبري ٢١/٢٧.

[٢] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"كسف" ٥٥٧/٢.

[٣] تفسير الطّبري ٢١/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٢١/٢٧.

[٥] الآية ٣٢.

[٦] الآية ٩٢.

(٤)

((عذاب المشركين في الدّنيا والآخرة، وتسلية النّبيّ ﷺ))

الآيات (٤٥-٤٩)

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

الّذي فيه يصعقون: الّذي فيه يهلكون وذلك عند النّفخة الأولى[1].

فاترك يا محمّد قومك كفّار مكّة ودعهم هم والمشركين أمثالهم حتّى يلاقوا يومهم الّذي يهلكون فيه وذلك عند النّفخة الأولى حينما ينفخ إسرافيل عليه السّلام في البوق إيذاناً بقيام السّاعة. إنّ نفخة الصَّعَق هذه تميت بإذن الله تعالى الخلائق إلّا من شاء ربّك من الملائكة والولدان ومن إليهم. في ذلك اليوم لا يُغْني عن المشركين كيدهم في الدّنيا شيئاً لأنّهم يعاقبون في الآخرة عليه، ولا هم يُنْصَرون بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

وإنّ للّذين أشركوا عذاباً في الدّنيا قبل ذلك العذاب في الآخرة، ولكنّ أكثر المشركين لايعلمون أنّ الّذي يصيبهم في الدّنيا من عذاب هو من الله تعالى بل يظنّون ويعلنون أنّ الدّهر تاراتٌ وتارات. تاراتٌ يَسُرّ وتاراتٌ يَسُوء.إنّ على المشركين أن يعلموا أنّ كلّ مايجري في هذا الكون هو بتقدير العزيز العليم، فعليهم أن يهجروا الشّرك إلى التّوحيد.

---

[1] تفسير الطّبري ٢١/٢٧.

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾

فإنّك بأعيننا: فإنّك بمرأىً منّا نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك فلايصل إليك من أرادك بسوءٍ من المشركين[١].

وسبّح بحمد ربّك حين تقوم: قل سبحان الله وبحمده إذا قمت من نومك[٢] أو قمت لصلاةٍ من ليلٍ أو نهار[٣] أو قمت إلى الصّلاة المفروضة[٤] أو إذا قمت من نومك وذلك نوم القائلة. وإنّما عني صلاة الظّهر. وهذا رأي الطّبري[٥] علماً بأنّ الصّلاة بعد نوم القائلة صلاة العصر في العادة.

ومن اللّيل فسبّحه: ومن اللّيل فعظّم ربّك يامحمّد بالصّلاة والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء[٦] وقيل صلاة العشاء[٧].

وإدبار النّجوم: قيل هما ركعتا الفجر[٨] وقيل هما الرّكعتان قبل صلاة

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/٢٧.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/٢٧.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧.

(٧) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧.

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/٢٧ و٢٤.

الفجر[1] وعن ابن عبّاس قال: بتّ ليلةً عند رسول الله ﷺ فصلّى ركعتين خفيفتين، اللّتين قبل صلاة الفجر ثمّ خرج إلى الصّلاة فقال: يا ابن عبّاس، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النّجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السّجود[2] وقد ثبت في الصّحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيءٍ من النّوافل أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر. وفي لفظٍ لمسلم: ركعتا الفجر خيرٌ من الدّنيا وما فيها [3].

واصبر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لحكم ربّك جلّ وعلا الّذي قضى بإمهالهم وباستمرارك في دعوتهم فإنّك يامحمّد بأعيننا وموضع رعايتنا، وسبّح بحمد ربّك بقول: سبحان الله وبحمده حين تقوم للصّلاة ومن النّوم. ومن اللّيل فسبّح بحمد ربّك حين تقوم للصّلاة، فرضها ونفلها، وحين تؤدّي الرّكعتين قبل صلاة الفجر عند إدبار النّجوم وطلوع الفجر.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٣/٢٧ و ٢٤.

[2] تفسير ابن كثير ٣٨٧/٧ وانظر في تخريج الحديث ودرجة صحّته ص٣٨٨ و ٤١٦.

[3] تفسير ابن كثير ٤١٦/٧ وانظر فتح الباري باب المداومة على ركعتي الفجر ٤٢/٣ حديث رقم ١١٥٩ و٤٥ باب ما يقرأ في ركعتي الفجر حديث رقم ١١٧٠ و١١٧١ وانظر صحيح مسلم ٥٠٠/١ باب استحباب ركعتي سنّة الفجر حديث رقم ٧٢٤ و٧٢٥.

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الطّور من المكّيّ من القرآن الكريم[١] وقد قرأ النّبيّ ﷺ بالسّورة الكريمة وهو يصلّي إلى جنب البيت الحرام بعد الهجرة[٢] كما قرأ قبل الهجرة بالسّورة الكريمة في صلاة المغرب[٣].

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وأربعون آية، وعدد كلماتها ثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة، وعدد حروفها ألفٌ وخمسمائة حرف [٤].

٣- محور السّورة الكريمة البعث بعد الموت، فهو الهدف الّذي تَرْمِي هذه السّورة الكريمة المكّيّة إلى تحقيقه. إنّه بعد القَسَم في الآيات الخمس الأُوَل يجيء الحديث عن يوم القيامة وعذاب المشركين. وهذا التّرهيب يجيء في الآيات الكريمات من التّاسعة حتّى السّادسة عشرة في نهاية القِسْم الأوّل. قال تعالى:﴿يوم تمور السّماء مورا. وتسير الجبال سيرا. فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين. الّذين هم في خوضٍ يلعبون. يوم يُدَعُّون إلى نار جهنّم دعّا. هذه النّار الّتي كنتم بها تكذّبون. أفسحرٌ هذا أم أنتم لاتبصرون. اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواءٌ عليكم إنّما تجزون ماكنتم تعملون﴾ بل إنّ المشركين لو رَأَوْا بعضاً من السّماء ساقطاً لِعَذابهم ومتّجهاً نحوهم لقالوا دليلاً على التّمادي في الطّغيان والغفلة هذا سحابٌ ممطرنا وغيثٌ يَقْصِدنا. وبقصد تهديدهم يؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يدعهم في غيّهم هم والمشركين من أمثالهم حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يموتون حينما ينفخ إسرافيل عليه

---

[١] الإتقان ٤٣/١ وتفسير ابن كثير ٤٠٣/٧ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٧/٢٧ والمحرّر الوجيز ٢٢٩/١٥ والكشّاف ١٧٢/٣ وتفسير القرطبي ٦٢٢٨/٧ .

[٢] فتح الباري ٦٠٣/٨ حديث رقم ٤٨٥٣.

[٣] فتح الباري ٦٠٣/٨ حديث رقم ٤٨٥٤.

[٤] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٧/٢٧.

السّلام في البُوق النّفخة الأولى يوم لا يغنى عنهم كيدهم في الدّنيا بالنّبيّ ﷺ وبدين الإسلام ولاهُمْ يُنْصَرون بصرف العذاب أو تخفيفه. وكما هُدّد المشركون بعذاب يوم القيامة هدّدوا بعذاب الدّنيا. جاء في الآيات الكريمات من الرّابعة والأربعين إلى السّابعة والأربعين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿وإن يروا كِسْفاً من السّماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مركوم. فذرهم حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يصعقون. يوم لايغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون. وإنّ للّذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنّ أكثرهم لايعلمون﴾

٤- وكما كان التّرهيب بعذاب المشركين يوم القيامة ذا عَلاقَةٍ بمحور السّورة الكريمة وهو البعث بعد الموت كان التّرغيب بنعيم المتّقين في الجنّة ذا عَلاقةٍ بهذا المحور. وقد جاء الحديث عن المتّقين في جنّات النّعيم في الآيات الكريمات من السّابعة عشرة إلى الثّامنة والعشرين.

٥- عناصر القَسَم في أوّل السّورة الكريمة تنطلق من الجبل صعوداً إلى مصدر الوحي المتمثّل في الكتاب المسطور في الصّحيفة أو الجلد الرّقيق الّذي يكتب عليه[1] إلى البيت المعمور في السّماء السّابعة إلى السّماء الأولى إلى البحر المملوء ماءً. وهكذا يتألّف مايشبه الدّائرة ابتداءً بالجبل وانتهاءً بالماء. وجواب القَسَم يتجلّى في عذاب يوم القيامة الواقع الّذي ليس له من دافع. جاء في الآيات الكريمات من الأولى حتى الثّامنة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ والطّور. وكتابٍ مسطور. في رَقٍّ مَنشور. والبيت المعمور. والسّقف المرفوع. والبحر المسجور. إنّ عذاب ربّك لواقع. ماله من دافع﴾

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/١٥٦.

وإنّ أوجه الشَّبه الكثيرة بين سورتي الذّاريات والطّور المكيّتين بإجماع المفسّرين المتجاورتين في المصحف الشّريف أَغْرَتْ بالمقارنة بين مظاهر الإعجاز في السّورتين الكريمتين. وإنّه بالمقارنة بين القَسَم وجوابه في أوّل السّورتين الكريمتين يتبيّن أنّ عناصر القسم في سورة الطّور الكريمة إذا كانت أكثر عددا، وتتّجه من الجبل صعوداً إلى الأعلى، فنزولاً إلى السّماء السّابعة فالأُولَى فالماء الكثير، وكان حظّها من العلوّ والسّماوات العلى موفوراً فإنّ عناصر القَسَم في سورة الذّاريات يقلّ حَظُّها من الارتفاع بالقياس إلى الحظّ في سورة الطّور. إنّ الرّياح والسّحب محدودة الارتفاع. وإنّ السّفن ترتفع فوق الماء. وإنّ الملائكة تدبرّ بإذن الله تعالى الأمر من السّماء إلى الأرض. ومعروفٌ أنّ جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على الوحي ذهب ليلة الإسراء والمعراج بالمصطفىﷺ بعد السّماء السّابعة إلى سدرة المنتهى[1] وقد جاء في شرح الإمام النّووي لصحيح مسلم[2] :" قال ابن عبّاس والمفسّرون وغيرهم: سميت سدرة المنتهى لأنّ علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلّا رسول الله ﷺ. وحكي عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنّها سمّيت بذلك لكونها ينتهي إليها مايَهْبِط من فوقها ومايصعد من تحتها من أمر الله تعالى" وجواب القَسَم في سورة الذّاريات يتجلّى في الوعد الصّادق بيوم القيامة، وفي الجزاء الواقع حتماً. إنّ ثمّة وعداً صادقاً وجزاءً واقعاً. وإنّ في سورة الطّور عذاباً واقعاً ليس له من دافع. وبذلك يبدأ جواب القسم في سورة الطّور من حيث انتهى في سورة الذّاريات. وإنّ زيادة المعنى في جواب القسم في سورة الطّور يتناغم مع الحظّ الموفور لعناصر القَسَم في الارتفاع صعداً حتّى مصدر الوحي في السّماوات العلى.

---

[1] صحيح مسلم بشرح النّووي ٢/٢١٤ وبتحقيق عبدالباقي ١/١٤٦.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي ٢/٢١٤ وبتحقيق عبدالباقي ١/١٤٦.

جاء في الآيات الكريمات السّتّ الأُوَل من سورة الذّاريات قول الحقّ جلّ وعلا:﴿والذّاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسّمات أمراً. إنّما توعدون لصادق. وإنّ الدّين لواقع﴾

٦- وكما تمّت المقارنة بين إعجاز سورتي الذّاريات والطّور الكريمتين في حقّ القَسَم وجوابه يصحّ أن تتمّ المقارنة بين التّرغيب في السّورتين. إنّ في كلٍّ من السّورتين ترغيباً في الجنّة. وهذا هو وجه الشّبه بين التّرغيبين. ولكنّ لكلّ من التّرغيبين خصائصه. جاء بشأن ثواب المتّقين في سورة الذّاريات النّصّ على العيون في الجنّات. والماء في أيّ جنّة أوّل عنصرٍ وأهمّ عنصر. وجاء تمشّياً مع عنصر الماء الضّروري عمليّة أخذ المتّقين ما أعطاهم ربّهم عزّ وجلّ جزاء إحسانهم في الحياة الدّنيا، ومجافاة جنوبهم للمضاجع، واستغفار الله تعالى بالأسحار، وإعطاء السّائل والمحروم حقّه. وجاء بشأن ثواب المتّقين في سورة الطّور النّصّ على النّعيم في الجنّات. والنّعيم يتجاوز وجود العيون في الجنّة. وكلّ ما جاء بعد ذلك من ترغيب هو تفصيلٌ لذلك النّعيم، وتجاوزٌ لنعوت المتّقين في سورة الذّاريات، تلك النّعوت الّتي استحقّوا بسببها الجنّات والعيون. إنّ المتّقين في سورة الطّور فاكهون متلذّذون بما أعطاهم ربّهم عزّ وجلّ الّذي وقاهم عذاب الجحيم ودخلوا الجنّة رأساً. والتّلذّذ يترتّب على أخذ المتّقين ما أعطاهم ربّهم على نحو ماتبيّن في سورة الذّاريات. والمتّقون في سورة الطّور يأكلون هنيئاً، ويشربون مريئا، ويتّكئون على سررٍ مصفوفةٍ متقابلين، ويزوّجهم الله تعالى بحورٍ عين، ويُلِحقُ الله تعالى بالآباء الصّالحين الذّريّة المؤمنة فترتفع إلى مستوى الآباء دون أن ينقص شيءٌ من ثواب الآباء أو يمسّ ذلك رفيع منزلتهم، وزادهم الله تعالى كلّ وقتٍ مايشتهون من فاكهةٍ ولحمٍ دليل تحقّق كلّ ماقبل ذلك من ضروريّات، ويتجاذب المتّقون كئوس الخمر الّتي خلت من كلّ منغصّات خمر الدّنيا. وقد رُمز إلى عدم وجود المنغّصات بعدم وجود لغو القول وآثم الفعل، وهما أقرب النّتائج السّيّئة لخمر الدّنيا. ويطوف عليهم الخدم والحشم في هيئة الغلمان في مقتبل العمر وكأنّهم اللّؤلؤ المكنون في

صدفه صفاء بشرة ونقاء لون. بل إنّ المتّقين يسأل بعضهم بعضاً على سبيل التّلذّذ والاعتراف بالنّعمة عن خوفهم في الدّنيا ألّا يتقبّل الله تعالى أعمالهم الصّالحة. ودليلاً على النّعيم الّذي هم فيه يمنّ الله تعالى عليهم بقبول الأعمال الصّالحة، ونيل رفيع الدّرجات، في جنّات النّعيم الّتي دخلوها رأساً، بفضل الله تعالى الّذي وقاهم عذاب السّموم.

وكأنّ عناصر التّرغيب في سورة الطّور تُبْنى على عناصر التّرغيب في سورة الذّاريات وذلك على غرار بناء جواب القسم في سورة الطّور على جواب القسم في سورة الذّاريات. جاء في نعيم المتّقين في سورة الذّاريات من الآية الكريمة الخامسة عشرة إلى التّاسعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ إنّ المتّقين في جنّاتٍ وعيون. آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من الّليل مايهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفي أموالهم حقٌّ للسّائل والمحروم﴾ وهكذا نكون بصدد الحرث وبذر البذور في الحياة الدّنيا. وجاء في نعيم المتّقين في سورة الطّور من الآية الكريمة السّابعة عشرة إلى الثّامنة والعشرين قول الحقّ جلّ و علا:﴿إنّ المتّقين في جناتٍ ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربّهم ووقاهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون. متّكئين على سررٍ مصفوفةٍ وزوّجناهم بحورٍ عين. والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم وماألتناهم من عملهم من شيء. كلّ امرئٍ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ ممّا يشتهون. يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمانٌ لهم كأنّهم لؤلؤٌ مكنون. وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون. قالوا إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين. فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السَّموم. إنّا كنّا من قبل ندعوه إنّه هو البرّ الرّحيم﴾ وهكذا نكون بصدد الزّرع وجني الثّمار.

٧– جاءت جملة:" ألتناهم " في القرآن الكريم كلّه في موضع واحدٍ هو سورة الطّور في الآية الكريمة الحادية والعشرين.

٨- جاء في سورة الذّاريات النّصّ على اتّهامين من قِبَل الكافرين للنّبيّ ﷺ وهما السّحر والجنون وذلك جرياً على عادة المكذّبين لكلّ رسول. وقد دحضت السّورة الكريمة الاتّهامين دحضاً وخاطبت المصطفى ﷺ مباشرةً بقصد تسليته عليه الصّلاة والسّلام الّذي قام على خير وجهٍ بكلّ المطلوب منه فعليه أن يستمرّ في تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة. جاء في الآيات الكريمات من الثّانية والخمسين إلى الخامسة والخمسين قول الحقّ جلّ و علا:﴿ كذلك ماأتى الّذين من قبلهم من رسولٍ إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنون. أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون. فتولّ عنهم فما أنت بملوم. وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين﴾ وجاء في سورة الطّور النّصّ على أربعة اتّهامات هي الكهانة والجنون والشّعر وافتراء القرآن الكريم. لقد دحضت سورة الطّور الكريمة كذلك هذه الاتّهامات دحضاً. ويلاحظ أنّ سورة الطّور في دحضها الاتّهامات بدأت من حيث انتهت سورة الذّاريات. لقد ابتدأت بالأمر بالتّذكير،ثمّ عرضت الاتّهامات في أسلوب القرآن الكريم المعجز، ودحضت الاتّهامات واحداً بعد الآخر في أسلوب القرآن الكريم المعجز.وسورة الطّور الكريمة لم تقف فقط عند دحض الاتّهامات وكشف البواعث الخفيّة وراءها من تعطيلٍ للأحلام وكفرٍ وكذب،إنّما تجاوزت كلّ ذلك إلى سرد كلّ الاحتمالات المحتملة وراء إصرار كفّار مكّة على عمى البصيرة الّذي يلازمهم.وكلّ الاحتمالات غير ممكنة،وأريد بسردها تبكيت القوم وتقريعهم لأنّهم يعطّلون عقولهم ويجرون وراء السّراب والأوهام. هل القوم خُلِقوا من غير شيء، أو خلقوا أنفسهم وغيرهم، أو خلقوا السّماوات والأرض. إنّهم بحاجة إلى الإيقان بيوم القيامة والعمل من أجله. هل عند القوم خزائن الله تعالى، وهل هم المسيطرون على الكون،وهل لهم سُلَّمٌ يَرْقَوْن عليه إلى السّماء لاستراق السّمع فليأت مستمعهم بالدّليل على ذلك. هل لله تعالى البنات ولهم البنون فلهم دليلٌ على عبادة الأصنام الّتي صاغوها على هيئة الملائكة وفق خيالهم السّقيم.لا. هل تسألهم أجراً على دعوتك لهم فهم يفرّون منك بسبب ذلك الغُرْم.لا. هل عندهم شيءٌ من الغيب ليحاجّوك به يامحمّد. لا. هل يريدون

الكيد لك. إنّهم هم المكيدون. هل لهم إلهٌ غير الله. تنزّه الله تعالى عمّا يشركون. بل إنّهم لِعَمَى بصائرهم لو رأوا قِطَعَ العذاب نازلةً من السّماء ومتّجهةً نحوهم لقالوا هذا سحابٌ ممطرنا!

وهذه المعاني تجيء في سورة الطّور الكريمة في الآيات الكريمات من التّاسعة والعشرين إلى الرّابعة والأربعين.

وإنّ هذا الحشد من الأسئلة الّتي تبدأ بالقول:﴿أم﴾ والّتي يراد بها تقريع القوم وتبكيتهم ليس له مثيلٌ في القرآن الكريم كلّه. بل هو ممّا تختصّ به سورة الطّور المكّيّة الكريمة[1]. وقد عرفنا أنّ الآيات الكريمات تبدأ بأمر المصطفى ﷺ بالاستمرار في التّذكير ذلك الأمر الّذي انتهت عنده الآيات المشابهة في سورة الذّاريات.

وهكذا يتبيّن في العديد من مواطن أوجه الشَّبه بين السّورتين الكريمتين أنّ سورة الطّور تبدأ من حيث انتهت سورة الذّاريات. وهذا أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم.

٩- حذّرت سورة الذّاريات المكّيّة الكريمة الكافرين وأنذرتهم بطريقٍ مباشر وذلك بتقرير إهلاك الله تعالى قوم لوطٍ عليه السّلام، وفرعون مصر، وعاد وثمود وقوم نوحٍ عليه السّلام. لقد تمّ ذلك في الآيات الكريمات من الحادية والثّلاثين إلى السّادسة والأربعين. أمّا سورة الطّور المكّيّة الكريمة فإنّها تجاوزت ذلك إلى طرح حشدٍ كبيرٍ من الأسئلة الّتي تبدأ بالقول: ﴿أم﴾ ويراد بذلك تقريع القوم وتبكيتهم كما مرّ بنا.

وبذلك تكون روح الاستهزاء بالكافرين والسّخرية منهم من صفات سورة الطّور الكريمة.

---

[1] كاد قلب المطعم بن عديّ يطير حينما سمع النّبيّ ﷺ يقرأ في المغرب الآيات الكريمات من سورة الطور. فتح الباري ٨/٦٠٣ حديث رقم ٤٨٥٤ وأسلم المطعم بعد ذلك.

وقد جاءت أم في السّورة الكريمة خمس عشرة مرّة وكلّها من نوع الاستفهام الدّالّ على التّوبيخ والتّقبيح. وهي بمعنى بل مرّة، وبمعنى بل والهمزة مرّة أخرى[١] وأم هنا هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة[٢].

١٠- سورة الطّور نزلت بعد سورة الذّاريات وبينهما نزلت ثماني سور كريمات[٣].

١١- إذا كانت لفظة عين في صيغة المفرد بمعنى المحبّة[٤] جاءت في حقّ موسى عليه السّلام في الآية الكريمة التّاسعة والثلاثين من سورة طه في قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً لموسى عليه السّلام:﴿ولتُصْنَعَ على عيني﴾ فإنّ لفظة أعين في صيغة الجمع جاءت في حقّ محمّد ابن عبدالله ﷺ في الآية الكريمة الثّامنة والأربعين من سورة الطّور في قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً لمحمّد بن عبدالله ﷺ :﴿واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا وسبّح بحمد ربّك حين تقوم﴾ وهذا فضلٌ خَصَّ الله تعالى به محمّداً ﷺ.

١٢- ثمّة وجه شبه بين الآية الكريمة التّاسعة والخمسين من سورة الذّاريات. قال تعالى:﴿ فإنّ لّلذين ظلموا ذَنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلايستعجلون﴾ أي نصيباً من العذاب، وبين الآية الكريمة السّابعة والأربعين من سورة الطّور. قال تعالى:﴿وإنّ للّذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنّ أكثرهم لايعلمون﴾ أي لهم في الدّنيا عذابٌ قبل عذاب الآخرة.

١٣- محمّد بن عبدالله ﷺ هو الأسوة الحسنة للدّعاة إلى الله تعالى في كلّ زمانٍ ومكان. وإنّ الحقّ جلّ وعلا ليأمر حبيبه ﷺ في الآيتين الكريمتين الثّامنة والأربعين والتّاسعة والأربعين من سورة الطّور الكريمة بالصّبر والتّسبيح بحمد الله تعالى بحمد الله تعالى في

---

[١] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٦٣/١٢.

[٢] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٦٣/١٢ ومعجم النّحو ٥٩.

[٣] انظر الإتقان ٤٣/١.

[٤] تفسير الطّبري ١٢٣/١٦.

الصّلاة وفي غير الصّلاة وفي كلّ زمانٍ ومكان. قال تعالى:﴿واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا وسبّح بحمد ربّك حين تقوم. ومن اللّيل فسبّحه وإدبار النّجوم﴾

١٤- سبق أن بيّنّا بين يدي التّفسير للسّورة الكريمة في شيءٍ من التّفصيل وَحْدَتَها العضويّة. ونودّ أن نومىء هنا إلى هذه الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة. ابتدأت السّورة الكريمة بالقَسَم بمجموعةٍ من العناصر تأخذ صُعُداً إلى السّماء ثمّ تنزل إلى البحر المملوء فيما يشبه الدّائرة فَيَرْضَى العقل وتشبع النّفس. وجواب القَسَم يتمثّل في عذاب الله تعالى الواقع الّذي ليس له من دافع ويكون ذلك يوم القيامة حينما يُدْفع المكذّبون في ظهورهم دفعاً عنيفاً إلى النّار الّتي يجدون أنفسهم في أعماقها وتحيط بهم من كلّ جانب. وبعد التّرهيب بنار جهنّم يأتي التّرغيب بجنّات النّعيم. إن الحديث عن المتّقين في الجنّة يبيّن عناصر ذلك النّعيم.

ولمّا لم ينفع التّرهيب والتّرغيب في المكذّبين كان ثمّة تكذيبٌ لهم في كلّ اتّهاماتهم للنّبيّ ﷺ كما كان ثمّة تبكيتٌ لهم وتقريعٌ في هيئة أكبر حشدٍ من الأسئلة في القرآن الكريم بـ:﴿أم﴾ المنقطعة الّتي تفيد معنى بل مرّة ومعنى بل والهمزة مرّةً أخرى.

وفي التّبكيت والتّقريع للمشركين تسليةٌ للنّبيّ ﷺ غير مباشرة، ثمّ تكون التّسلية المباشرة للمصطفى ﷺ حتّى نهاية السّورة الكريمة. وتختم التّسلية بأمره ﷺ بالصّبر والتّسبيح بحمد الله تعالى في الصّلاة فرضها ونفلها لَيْلاً ونهاراً وفي كلّ الأوقات.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

ثالثاً: سورة النّجم

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا
يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ
۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨
فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا
كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً
أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ
يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ
مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ
ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢
إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ
ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ۝٢٥ وَكَم
مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ
ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ
وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ۝٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن

ذِكۡرَنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ
وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ
وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ
أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ
قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا
فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ
أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ
ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ
ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا

غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ
ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ
هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

بين يدي التّفسير

(١)

معجزة المعراج

الآيات (١-١٨)

يُقْسِمُ الحقّ جلّ وعلا بالنّجم إذا غرب، وبالثّريّا إذا غابت فجراً، أو بالشّهاب الّذي يتبع الشّيطان الّذي يَسْتَرِقُ السّمع فيثقبه. ما ضلّ صاحبكم محمّدٌ ﷺ يا كفّار مكّة ولا حاد عن طريق الهداية، وما غَوَى محمّدٌ ﷺ فانحرف عمداً عن سبيل الرّشاد، بل هو ﷺ المهتدي الرّاشد. وماينطق محمّدٌ ﷺ بباعث هوى النّفس. مانُطْقُهُ إلّا وحيٌ يوحَى إليه قرآناً كريماً وسنّةً مطهّرة. علّم محمّداً ﷺ مَلَكٌ كريم شديد القوى هو جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على وحيه، ذو قوّةٍ ومنظرٍ حسن فاستوى واستقرّ، وهو بالأفق الأعلى، أفق الشّمس عند مطلعها، فسدّ عليه السّلام الأفق وهو ذو السّتمائة جَناح. ثمّ دنا جبريل عليه السّلام من محمّدٍ ﷺ واقترب، فتدلّى وازداد قرباً ودنوّا. فكان جبريل عليه السّلام من محمّدٍ ﷺ على بعد قوسين أو ذراعين بل أدنى من ذلك. فأوحى جبريل عليه السّلام إلى عبدالله تعالى محمّد ﷺ ما أوحى الله تعالى إليه. ما كَذَبَ فؤاد محمّدٍ ﷺ ما رأت عيناه عليه الصّلاة والسّلام بل صَدَقه. أَتُنْكِرُون يا كفّار مكّة قوله عليه الصّلاة والسّلام فتجادلونه على مايرى. إنّ محمّداً ﷺ طلب من جبريل عليه السّلام أن يَظْهَرَ له على صورته فرآه كما طلب حينما كان عليه الصّلاة والسّلام في أجياد بجوار الصَّفا ولجبريل عليه السّلام ستّمائة جَناح وقد سدّ الأُفُق. وهذه إحدى مرّتين رأى محمّدٌ ﷺ فيهما جبريل عليه السّلام في صورته.

ولقد رأى محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام مرّةً أخرى ليلة المعراج إلى السّماوات العُلَى. لقد رآه على صورته عند سِدْرَةِ المنتهى الّتي ينتهي عندها كلّ علم، والّتي لم يجاوزها أحدٌ إلّا رسول الله ﷺ. وعند تلك السّدرة الجنّة الّتي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشّهداء والمتّقين. حين يغشى تلك السّدرة ما يغشاها من نور الله تعالى ومن الملائكة الكرام. عند

ذلك المشهد المهيب ما مال بصر محمّدٍ ﷺ يميناً ولا شمالاً دليلاً على رباطة الجأش، وماطغى ذلك البصر وماتجاوز الحدّ الّذي عُيّن له دليلاً على فرط الطّاعة. لقد رأى محمّدٌ ﷺ ليلة الإسراء والعروج به إلى السّماوات العُلَى من آيات ربّه جلّ وعلا الكبرى. ومن هذه الآيات جبريل عليه السّلام في صورته، وسدرة المنتهى، وجنّة المأوى. وهذا الجوّ الملائكيّ الرّوحانيّ رشّح لتحوّل الحديث إلى الملائكة الكرام الّتي تنفع شفاعتها بإذن الله تعالى ورضاه.

(٢)

((لا تشفع الملائكة إلّا من بعد أن يأذن الله تعالى لِمَنْ يشاء ويرضى، فكيف تشفع الأصنام الّتي ماأنزل الله تعالى بها من سلطان، وعقاب المسيئين وثواب المحسنين))

الآيات (١٩-٣٢)

أعرفتم أيّها المشركون قدرة الله تعالى فرأيتم عجز الّلات والعزّى ومناة الثّالثة الأخرى. أتصرّون على ادّعاء الولد لله تعالى وعلى نسبة البنات إليه، وعلى الزّعم أنّ الملائكة بنات الله تعالى، وتصوّرون تلك الأصنام على هيئة الملائكة وفق تصوّركم السّخيف للملائكة الكرام، وتزعمون أنّكم ماتعبدون تلك الأصنام إلّا ليقرّبوكم إلى الله تعالى زلفى. أتجعلون لكم الذّكور الّذين تحبّونهم وتجعلون لله تعالى الإناث الّلاتي تكرهونهنّ. تلك إذن قسمةٌ ظالمةٌ جائرة. ما المذكورات إلّا أسماءٌ سمّيتم بها تلك الأصنام، أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله تعالى بعبادتها من برهان، فكيف ترجون شفاعتها لكم عند الله تعالى. مايتّبع المشركون في عبادتهم الأصنام إلّا الظّنّ وما تهوى أنفسهم الأمّارة بالسّوء. ولقد جاءهم من ربّهم الهدى عن طريق المصطفى ﷺ قرآناً كريماً وسنّةً نبويّة مطهّرة.

أم أنّ لكلّ إنسانٍ ماتمنّاه وذلك على غرار تمنّى كفّار مكّة أن تقرّبهم الأصنام الّتي يعبدونها من الله تعالى زلفى. إنّ كلّ شيءٍ في الآخرة وفي الدّنيا لايتمّ إلّا بمشيئة الله تعالى،

فما شاء الله تعالى كان ومالم يشأ لم يكن. وكم من مَلَكٍ في السّماوات العُلَى لاتُغْني شفاعتهم شيئاً ولاتنفع إلّا مِنْ بعد إذن الله تعالى ورضاه.

وهؤلاء المشركون الّذين لايؤمنون بالآخرة ولايعملون من أجلها ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى ويزعمون أن الملائكة بنات الله. إنّهم ليس لهم بمايقولون من تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى من حقيقة علم. مايتّبعون إلّا ظنّا بغير علم. وإنّ الظّن لايغنى من الحقّ شيئاً فيقوم مقامه. فأعرض يامحمّد عمّن أعرض عن الذّكر الحكيم ولم يرد إلّا الحياة الدّنيا ونعيمها الزّائل إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولا. طلب الحياة الدّنيا والسّعي لها مبلغ علمهم ومنتهى همّهم. إنّ ربّك يامحمّد هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله عزّ وجلّ وهو أعلم بمن اهتدى وسار في الصّراط المستقيم. ولله تعالى مافي السّماوات والأرض مِلْكاً وخلقاً وعبيداً ليجزي عزّ وجلّ يوم القيامة الّذين أَساءوا بما عملوا من سوء، وليجزي الّذين أحسنوا بالجنّة ونعيمها المقيم. إنّهم الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش كجريمة الزّنا إلّا لَمَمَ الذّنوب وصغارها فإنّهم إذا ارتكبوها واستغفروا الله تعالى فإنّه عزّ وجلّ يغفر لهم بمشيئته. إنّ ربّك يامحمّد واسع المغفرة. هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض في هيئة أبيكم آدم عليه السّلام، وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمّهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم ولاتشهدوا لها بأنّها بريئةٌ من الذّنوب. الله تعالى هو أعلم منكم بمن اتّقاه عزّ وجل وخافه بالغيب.

(٣)

((الله تعالى علّام الغيوب، الخلّاق، الفعّال لما يريد، فاعملوا ليوم القيامة، واعبدوا الله تعالى وَحْدَه))

الآيات (٣٣-٦٢)

أفرأيت يامحمّد ذلك الّذي أعرض عن دين الإسلام. وأعطى الّذي تكفّل له أن يَحْمِلَ عنه يوم القيامة خطاياه بعض المال المتّفق عليه ثمّ امتنع عن مواصلة الإعطاء. أعند هذا المعطى المُكْدِي شيءٌ من علم الغيب، أَمِنْ عِلْمِ الغيب الّذي عنده أنّ هناك من يمكن أن يحمل عنه خطاياه. فهو يرى ويعلم أن غيره يمكن أن يحمل عنه عذاب الآخرة. أم لم ينبّأ بما صحف موسى عليه السّلام وهي التّوراة، وصحف إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء، الّذي وفّى كلّ ما كلّفه الله تعالى به من طاعات، أنّه لاتزر نفسٌ وازرةٌ وزر أخرى يوم القيامة. وأنّه ليس للإنسان في الآخرة إلّا ماسعى في الدّنيا من خيرٍ أو شرّ. وأنّ سعيه سوف يُرَى يوم القيامة وسوف يجازَى عليه الجزاء الأَوْفَى من كلّ جزاء فلا حذف لحسنة، ولا إضافة لسيّئة. وأنّ إلى ربّك عزّ وجلّ المعاد يوم القيامة.

ألم تنبّأ أيّها الإنسان أنّ ربّك جلّ وعلا هو الّذي خلق في عباده الضّحك والبكاء وسببهما. وأنّه هو أمات الحيّ وأحيا الميّت حينما كان نطفةً وسوف يحييه يوم القيامة. وأنّه جلّ وعلا خلق الزّوجين الذّكر والأنثى من نطفةٍ إذا تصبّ في رحم الأنثى. وأنّ عليه جلّ وعلا إعادة إحياء الخلائق يوم القيامة. وأنّه جلّ وعلا هو الّذي أَغْنَى من أغنى من عباده بالمال، وأقنى من أقنى فجعل له مالاً مُدَّخراً وأصول أموالٍ ثابتة. وأنّه جلّ وعلا هو ربّ نجم الشِّعري الّذي يَعْبُدُهُ بعض عرب الجاهلية سَفَهاً. وأنّه جلّ وعلا أهلك عاداً الأولى الموغلة في القدم. وأهلك ثمود فما أبقى أحداً منهم. وأهلك قوم نوحٍ من قبل عادٍ وثمود. إنّهم كانوا هم الأظلم والأَطْغَى. وقُرى قوم لوطٍ عليه السّلام أمر الله تعالى جبريل عليه السّلام أن يرفعها من الأرض بجَناحه وأن يُسْقِطَها مقلوبةً على رأسها فَفَعَل. فغشىّ قرى

قوم لوطٍ عليه السّلام وغطّاها ماغشّاها وغطّاها من الحجارة المتتابعة المكتوب على كلّ حجرٍ اسم صاحبه الموسوم عليه صفته. فبأيّ نعمةٍ من نعم ربّك عليك أيّها الإنسان أنت تُنْكِر وتَجْحَد. محمّدٌ ﷺ نذيرٌ من جنس النّذر الأولى كنوحٍ وإبراهيم ولوطٍ وموسى عليهم الصّلاة والسّلام. دَنَتِ القيامة فآمِنوا بها واعملوا من أجلها. ليس لها من دون الله تعالى نفسٌ كاشفةٌ لها، عالمةٌ بوقتها. أَفَمِنْ هذا القرآن الكريم أنتم ياكفّار مكّة تعجبون لأنّ الله تعالى خصّ به محمّداً ﷺ. وتضحكون استهزاءً ولاتبكون اعتبارا. وأنتم غافلون رافعون رءوسكم كبراً وتيهاً، تظنّون أنّكم تُحْسِنُون صنعاً وأنتم الأخسرون أعمالاً . فاسجدوا لله تعالى في الصّلاة وفي غير الصّلاة، وأفردوه بالعبادة، وخصّوه بها وَحْدَه دون سواه.

التّفسير

(١)

((معجزة المعراج))

الآيات (١-١٨)

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾

والنّجم: والثّريّا[١] والعرب إذا أطلقت لفظ النّجم قصدت به الثّريّا [٢]

إذا هوى: سقط[٣] وغاب[٤] وتأويل الكلام: والثّريّا إذا سقطت مع الفجر[٥] والثّريّا مجموعةٌ من النّجوم في صورة الثّور، وكلمة النّجم عَلَمٌ عليها[٦] ولايتكلّم به إلّا

---

[١] تفسير الطّبري ٢٤/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤١٧/٧ والجلالين.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"نجم" ٦٢٥/٢.

[٣] تفسير الطّبري ٢٤/٢٧.

[٤] الجلالين وانظر التّبيان في أقسام القرآن لابن القيّم ٢٤٢.

[٥] تفسير الطّبري ٢٤/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤١٧/٧.

[٦] المعجم الوسيط: "الثّريّا"

مُصَغَّراً، وهو تصغيرٌ على جهة التّكبير[١] وقيل: يَعْنِي النّجوم الّتي تُرْمَى بها الشّياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السّمع، وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال[٢] .

ماضلّ صاحبكم: ماضلّ صاحبكم محمّدٌ عليه الصّلاة والسّلام عن طريق الهداية[٣] وما حادَ عن الحقّ ولا زالَ عنه ولكنّه على استقامةٍ وسداد [٤] والضّلال العدول عن الطّريق المستقيم ويضادّه الهداية[٥] والضّلال في كلام العرب هو الذّهاب عن سَنَن القصد وطريق الحقّ[٦] وقد جاء تفسيراً لِلضّالّين في الآية الكريمة الأخيرة من سورة الفاتحة في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[٧] : " هم الّذين فقدوا العِلْم فهم هائمون في الضّلالة لا يهتدون إلى الحقّ "

وما غوى: وما صار غَوِيّاً ولكنّه رشيدٌ سديد[٨] والغاوِي هو العالِم بالحقّ العادل عنه قصْداً إلى غيره[٩] .

وما ينطق عن الهوى: الهوى مَيْل النّفس إلى الشَّهْوَة. وقيل سُمّي بذلك لأنّه يهوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية وفي الآخرة إلى الهاوية[١٠] وما ينطق محمّدٌ بهذا القرآن عن هواه [١١].

---

[١] لسان العرب:" ثرا"

[٢] التّبيان في أقسام القرآن ٢٤٢.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ٢٥/٢٧.

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"ضل" ٣٨٨/٢.

[٦] تفسير القرطبي ١٣٠.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٥/١.

[٨] تفسير الطّبري ٢٥/٢٧.

[٩] تفسير ابن كثير ٤١٧/٧.

[١٠] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"هوى" ٧١٢/٢.

[١١] تفسير الطّبري ٢٥/٢٧.

إن هو إلّا وحيٌ يوحى: ماهو إلّا وحيٌ يوحى إليه[١]

علّمه شديد القوى: علّم محمّداً ﷺ هذا القرآن جبريل عليه السّلام[٢] والقُوَى جمع قوّة[٣] وقد جاءت بلفظ الجمع ومعرَّفة تعريف الجنس تنبيهاً أنّه إذا اعْتُبِر بهذا العالَم وبالّذين يعلِّمهم ويفيدهم هو كثير القُوَى عظيم القدرة [٤].

ذو مِرّة: ذو قوّةٍ ومنظرٍ حسن[٥] وفي الحديث: لاتحلّ الصّدقة لِغَنِيٍّ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيّ. والسّويّ: الصّحيح الأعضاء[٦].

فاستوى: أي ارتفع واعتدل[٧] واستقرّ[٨] يعني جبريل عليه السّلام[٩].

وهو بالأفق الأعلى: أفق الشّمس عند مطلعها[١٠] .

---

[١] الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/١٧٦.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٢٥.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٢٥.

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قوى" ٢/٥٤٢.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٢٥ وتفسير ابن كثير ٧/٤١٩ والجلالين.

[٦] النّهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٣١٦.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٢٦.

[٨] الجلالين.

[٩] تفسير الطّبري ٢٧/٢٦ وتفسير ابن كثير ٧/٤١٩ والجلالين.

[١٠] انظر تفسير الطّبري ٢٧/٢٦ وتفسير ابن كثير ٧/٤١٩ والجلالين.

ثمّ دنا فتدلّى: ثمّ دنا جبريل من محمّد ﷺ[١] وقَرُبَ منه [٢] فتدلَّى إليه[٣] وزاد في القرب[٤]

فكان قاب قوسين أو أدنى: فكان جبريل من محمّد ﷺ على قدر قوسين[٥] إذا مُدّا [٦] أي فاقترب جبريل إلى محمّد لمّا هبط عليه إلى الأرض[٧] وهو على الصّورة الّتي خلقه الله تعالى عليها له ستّمائة جناح[٨] وكانت هذه الرّؤية الأُولَى في أوائل البعثة[٩] وقد تَبَدَّى جبريل عليه السّلام، ورسول الله ﷺ في الأَبْطَح، في صورته الّتي خَلَقَه الله عليها، له ستّمائة جَناح، قد سَدَّ عُظْمُ[١٠] خَلْقِهِ الأُفُق فاقترب منه وأَوْحَى إليه عن الله عزّ وجلّ ما أمره به، فعرف عند ذلك عَظَمَةَ الملك الّذي جاءه بالرّسالة وجلالَةَ قدْره وعُلُوَّ مكانته عند خالقه الّذي بعثه إليه[١١] وكان ﷺ قد سأل جبريل عليه السّلام أن

---

[١] تفسير الطّبري ٢٦/٢٧.

[٢] الجلالين.

[٣] تفسير الطّبري ٢٦/٢٧.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير الطّبري ٢٦/٢٧ وانظر لسان العرب:"قوب"

[٦] تفسير ابن كثير ٤٢٢/٧.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٢٢/٧ و٤٢٠.

[٨] تفسير ابن كثير ٤٢٠/٧.

[٩] تفسير ابن كثير ٤٢٠/٧.

[١٠] عُظْم الشيء: أكبره انظر –مثلاً– النّهاية لابن الأثير ٢٦٠/٣ وانظر صحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٥٩/١ حديث رقم ٢٨٧.

[١١] تفسير ابن كثير ٤٢٠/٧.

يُرِيَهُ نفسه على صورته الّتي خُلِقَ عليها [١] فرآه في جياد[٢] له سِتُّمائة جَناح قد سَدَّ الأُفُق[٣] وقد رأى النَّبيّ ﷺ جبريل عليه السّلام في صورته مرّتين[٤] ومن معاني القوس الذّراع، ويقاس بكلٍّ منهما المذروع :﴿فكان قاب قوسين ﴾ أي قَدْرَ قوسين عربيّتين أو قدر ذراعين. والقوس اسم ذات لأداة الحرب المعروفة[٥]

فأوحى: جبريل عليه السّلام[٦]

إلى عبده: إلى عبدالله محمّد ﷺ[٧]

ما أوحى: ما أوحى إليه ربّه [٨] جلّ وعلا. ولم يذكر الموحَى تفخيماً لِشَأْنِه[٩]

ما كذب الفؤاد ما رأى: ما كذب فؤاد محمّدٍ محمّداً الّذي رأى ولكنّه صَدَّقَه[١٠]

عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّ النّبيّ ﷺ رأى جبريل عليه السّلام له سِتُّمائة جَناح[١١].

---

[١] الجلالين.

[٢] لغة في أجياد. معجم البلدان:"جياد" وأجياد موضع بمكّة يلي الصّفا. معجم البلدان:"أجياد"

[٣] سنن التّرمذي ٣٦٨/٥ حديث رقم ٣٢٧٨ وصحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٥٨/١ حديث رقم ٢٨٠و١/ ١٦١ حديث رقم ٢٩٠ .

[٤] انظر فتح الباري ٦٠٦/٨ حديث رقم ٤٨٥٥.

[٥] انظر القاموس المحيط:"القوس" ولسان العرب :"قوب" وتفسير الطّبري ٢٧/٢٧ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٧٧/١٢.

[٦] تفسير الطّبري ٢٨/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٢٣/٧.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٢٣/٧ وتفسير الطّبري ٢٨/٢٧.

[٨] تفسير الطّبري ٢٨/٢٧.

[٩] الجلالين.

[١٠] تفسير الطّبري ٢٨/٢٧ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٧٨/٢ .

[١١] انظر صحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٥٨/١ حديث رقم ٢٨١.

أفتمارونه على مايرى: أفتجادلون أيّها المشركون محمّداً على مايرى ممّا أراه الله من آياته[١] أتنكرون قوله فتمارونه [٢].

ولقد رآه نزلةً أخرى: ولقد رأى محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام مرّةً أخرى ليلة الإسراء والمعراج على صورته[٣] روى البخاريّ في صحيحه[٤] عن مسروق قال: قلت لعائشة ﵂: يا أُمَّتاه، هل رأي محمّدٌ ﷺ ربّه؟ فقالت: لقد قَفَّ شَعْرِي ممّا قلت[٥] أين أنت من ثلاث من حدّثكهنّ فقد كذب[٦] من حدّثك أنّ محمّداً ﷺ رأى ربّه فقد كذب. ثمّ قرأت[٧] :﴿لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾ : ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [٨] ومن حدّثك أنّه يعلم ما في غدٍ فقد كذب. ثم قرأت[٩] :﴿ وماتدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ﴾ ومن حدّثك أنّه كَتَمَ فقد كذب. ثمّ قرأت[١٠] :﴿يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك﴾ الآية. ولكن رأى جبريلَ عليه السّلام في صورته مرّتين.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٩/٢٧.

[٢] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٧٨/١٢.

[٣] انظر–مثلاً– تفسير الطّبري ٣٠/٢٧وتفسير ابن كثير ٤٢٤/٧ والجلالين وصحيح مسلم ١٥٨/١ حديث رقم ٢٨٣.

[٤] فتح الباري ٦٠٦/٨ حديث رقم ٤٨٥٥ وانظر صحيح مسلم ١٥٩/١ حديث رقم ٢٨٧.

[٥] أي قام من الفزع لما حصل عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. فتح الباري ٦٠٧/٨.

[٦] أي كيف يغيب فهمك عن هذه الثّلاث؟ وكان ينبغي لك أن تكون مستحضرها ومعتقداً كذب من يدّعي وقوعها . فتح الباري ٦٠٧/٨.

[٧] سورة الأنعام ١٠٣.

[٨] سورة الشورى ٥١.

[٩] سورة لقمان ٣٤.

[١٠] سورة المائدة ٦٧.

عند سدرة المنتهى: السِّدرة شجرة النَّبِق. وقيل لها سدرة المنتهى في قول بعض أهل العلم من أهل التّأويل لأنّه إليها ينتهي علم كلّ عالم[١] وجاء عن سدرة المنتهى في صحيح مسلم[٢] :" وإذا وَرَقها كآذان الفِيَلة. وإذا ثمرها كالقِلال" والقِلال جمع قُلّة، وهي جَرّة كبيرة تَسَعُ قربتين أو أكثر[٣] وجاء عن سدرة المنتهى كذلك[٤] :" قال ابن عبّاس والمفسّرون وغير هم: سمّيت سدرة المنتهى لأن عِلْمَ الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلّا رسول الله ﷺ . وحُكِيَ عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنّها سمّيت بذلك لكونها ينتهي إليها مايَهْبِطُ من فوقها وما يَصْعَدُ من تحتها من أمر الله تعالى" وجاء في صحيح مسلم[٥] عن سدرة المنتهى :" إليها ينتهي مايُعْرَج به من الأرض فيُقْبَض منها. وإليها ينتهي ما يُهْبَط به من فوقها فيُقْبَض منها" وقيل إنّها في السّماء السّابعة[٦] وقيل هي عن يمين العرش لايتجاوزها أحدٌ من الملائكة وغيرهم [٧] .

عندها جنّة المأوى: عند سدرة المنتهى جنّة مأوى الشّهداء[٨] وتأوى إليها الملائكة وأرواح الشّهداء والمتّقين[٩] .

---

[١] تفسير الطّبري ٣١/٢٧.

[٢] ١٤٦/١ حديث رقم ٢٥٩.

[٣] صحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٤٦/١.

[٤] صحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٤٦/١.

[٥] ١٥٧/١ حديث رقم ٢٧٩ وقد رواه ابن مسعود ﷺ.

[٦] تفسير الطّبري ٣٣/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٢٩/٧.

[٧] الجلالين.

[٨] تفسير الطّبري ٣٣/٢٧.

[٩] الجلالين.

إذ يغشى السّدرة مايَغْشَى: جاء في صحيح مسلم[١] :" ﴿إذ يغشى السّدرة ما يغشى﴾ قال: فَراشٌ من ذَهَب" والفراش دُوَيْبَّة ذات جَناحَيْن تتهافت في ضوء السّراج. واحدتها فَراشة[٢] وقيل غشيها نور الخلّاق وغشيتها الملائكة أمثال الغِرْبان حين يَقَعْنَ على الشَّجَر[٣].

ما زاغ البصر: ما مال بصر محمّدٍ ﷺ ولا ذهب يميناً ولا شمالاً عن مرئيّه المقصود له[٤].

وما طغى: ولا جاوز ماأُمِرَ به فارتفع عن الحَدِّ الّذي حُدَّ له[٥] وهذه صفةٌ عظيمةٌ في الثّبات والطّاعة، فإنّه مافعل إلّا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أُعْطِي [٦] .

لقد رأى من آيات ربّه الكبرى: لقد رأى محمّدٌ هنالك من أعلام ربّه وأدلّته الأعلام والأدلّة الكبرى[٧] لقد رأى محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام له سِتّمائة جَناح[٨] ورأى رفرفاً أخضر قد سَدَّ الأُفُق[٩] والمراد بالرّفرف الحُلّة[١٠] وأصل الرّفرف ما كان من الدّيباج رقيقاً حَسَنَ الصّنعة، ثمّ اشتهر استعماله في السّتر. وكلّ مافَضَلَ من شيءٍ فَعُطِفَ وثُنِيَ

---

[١] ١٥٧/١ حديث رقم ٢٧٩.

[٢] صحيح مسلم ١٥٧/١.

[٣] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧ والجلالين وتفسير ابن كثير ٤٢٩/٧.

[٥] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

[٦] تفسير ابن كثير ٤٢٩/٧ وانظر التّبيان في أقسام القرآن ٢٦٢.

[٧] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

[٨] صحيح مسلم تحقيق عبدالباقي ١٥٨/١حديث رقم ٢٨٢ وفتح الباري ٦١٠/٨ حديث رقم ٤٨٥٧.

[٩] فتح الباري ٦١١/٨ حديث رقم ٤٨٥٨.

[١٠] فتح الباري ٦١١/٨.

فهو رَفْرَف[1] قال رسول الله ﷺ: ثمّ عَرَج بي (جبريل عليه السّلام) حتّى ظهرت لِمُسْتَوًى[2] أَسْمَعُ فيه صَرِيفَ[3] الأقلام[4] وقال رسول الله ﷺ: ثُمَّ أُدْخَلْتُ الجنّة فإذا فيها جنابذ[5] اللّؤلؤ. وإذا ترابها المسك[6].

من البيّن أنّ الآيات الكريمات تتحدّث عن معجزة المعراج بالرّسول ﷺ إلى السّماوات العُلَى. وقد تمّت معجزة المعراج من بيت المقدس ليلة الإسراء به ﷺ من المسجد الحرام في مكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس. ومن هنالك كان العروج إلى السّماوات العلى. فمعجزتا الإسراء والمعراج مُتَلازِمتان، وكانتا بجسد المصطفى ﷺ ورُوحِه[7] وكانتا قبل هجرة النّبيّ ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. وذهب فريقٌ من العلماء إلى أنّ الإسراء والمعراج كانا قبل الهجرة بسنة[8].

وسبق لنا في أثناء تفسير سورة الإسراء الكريمة أن ذكرنا بعض أحاديث الإسراء والمعراج[9] ولأنّ المعجزتين متلازمتان نودّ أن نذكر بعض تلك الأحاديث مع شيءٍ من التّركيز على المعراج مادام ذلك ممكناً.

---

(١) فتح الباري ٨/٦١١.

(٢) علوت لمكان.

(٣) صحيح مسلم ١/١٤٩ حديث رقم ٢٦٣.

(٤) صحيح مسلم ١/١٤٩ حديث رقم ٢٦٣.

(٥) جنابذ، هي القِباب . واحدتها جُنْبُذة.

(٦) صحيح مسلم ١/١٤٩ حديث رقم ٢٦٣.

(٧) انظر –مثلاً– تفسير ابن كثير ٥/٤٠ و٤١ ونور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٧٩.

(٨) انظر –مثلاً– تفسير ابن كثير ٥/٤٠ ونور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٧٩.

(٩) التّفسير البيسط ١٥/٥٣.

روى الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أنس بن مالك عن ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنّه جاءه ثلاثة نفر[٢] حينما كان المصطفى ﷺ عند البيت بين النّائم واليقظان إذ سمع ﷺ قائلاً يقول: أحد الثّلاثة بين الرّجلين[٣] فأتيت فانطُلِق بي فأُتيت بطستٍ من ذهبٍ فيها من ماء زمزم. فشُرِح صدري[٤].... فاستُخْرِج قلبي فَغُسِل بماء زمزم ثمّ أعيد مكانه. ثمّ حُشِي إيماناً وحكمة. قال رسول الله ﷺ[٥] أُتيت بالبُراق. وهو دابّةٌ أبيض طويلٌ فوق الحمار ودون البغل. يضع حافره عند منتهى طَرْفه. قال: فركبته حتّى أتيت بيت المَقْدِس. قال: فربطته بالحَلْقة الّتي يربط به[٦] الأنبياء. قال: ثمّ دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين. ثمّ خرجت فجاءني جبريل عليه السّلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن. فاخترت اللّبن. فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة[٧] ثمّ عَرَج بنا إلى السّماء. فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد . قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا. فإذا أنا بآدم. فرحّب بي ودعا لي بخير. ثمّ عَرَج بنا إلى السّماء الثّانية. فاستفتح جبريل عليه السّلام. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتِح لنا. فإذا أنا يابَنِي الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريّاء صلوات الله عليهما. فرحَّبا ودعوا لي بخير. ثمّ عَرَج

---

[١] انظر صحيح مسلم ١٥٠/١ حديث رقم ٢٦٤ وبشرح النّووي ٢١٧/٢ وفتح الباري ٤٧٨/١٣ حديث رقم ٧٥١٧ و ٣٧٤/٦ حديث رقم ٣٣٤٢ .

[٢] صحيح مسلم ١٤٨/١ حديث رقم ٢٦١ وبشرح النّووي ٢١٧/٢ .

[٣] كانت قريش تنام حول الكعبة. فتح الباري ٤٨٠/١٣.

[٤] أي شقّ صدري . جاء في صحيح مسلم ١٥١/١ حديث رقم ٢٦٥ وبشرح النّووي ٢٢٦/٢:"فشُقّ من النّحر إلى مراقّ البطن" أي ماسفل من البطن ورقّ من جلده ولا واحد له.

[٥] صحيح مسلم ١٤٥/١ حديث رقم ٢٥٩ وبشرح النّووي ٢١٠/٢-٢١٥.

[٦] هكذا في الطّبعتين.

[٧] فسّروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة. وجعل اللّبن علامةً لكونه سهلاً طيّباً سائغاً للشّاربين سليم العاقبة.

بنا إلى السّماء الثّالثة فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك. قال: محمّد ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ. إذا هو قد أُعطي شَطْرَ الحُسْن. فرحّب ودعا لي بخير. ثمّ عَرَج بنا إلى السّماء الرّابعة. فاستفتح جبريل عليه السّلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. فَفُتِح لنا. فإذا أنا بإدريس. فرحّب ودعا لي بخير. قال الله عزّ وجلّ [1]:﴿ ورفعناه مكاناً عليّا﴾ ثمّ عَرَجَ بنا إلى السّماء الخامسة. فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا. فإذا أنا بهارون ﷺ. فرحّب ودعا لي بخير . ثمّ عَرَجَ بنا إلى السّماء السّادسة. فاستفتح جبريل عليه السّلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال:محمّد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتِح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ . فرحّب ودعا لي بخير. ثمّ عَرَجَ إلى السّماء السّابعة. فاستفتح جبريل. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَك لايعودون إليه. ثمّ ذهب بي إلى السِّدْرة المنتهى [2] وإذا ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقِلال[3] قال: فلمّا غشيها من أمر الله ماغَشِي تغيّرت . فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها. فَأَوْحَى اللهُ إليّ ماأَوْحَى . ففرض عليّ خمسين صلاةً في كلّ يومٍ وليلة. فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فَرَض ربّك على أمّتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف فإنّ أمّتك

---

[1] سورة مريم ٥٧.

[2] هكذا وقع في الأصول السّدرة، بالألف واللّام. وفي الروايات بعد هذا، سدرة المنتهى . صحيح مسلم ١٤٦/١.

[3] القلال جمع قُلَّة بضمّ القاف وهي جرّةٌ كبيرةٌ تسع قربتين أو أوكثر.

لايطيقون ذلك. فإنّي قد بَلَوْت بني إسرائيل وخَبَرْتهم. قال: فرجعت إلى ربّي فقلت: ياربِّ خفّف عن أمّتي. فحطّ عنّي خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حَطّ عنّي خمساً. قال: إنّ أمّتك لايطيقون ذلك فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف. قال: فلم أزل أَرْجِعُ بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السّلام حتّى قال: يامحمّد، إنّهنّ خمس صلوات كلَّ يومٍ وليلة. لكلّ صلاةٍ عشر. فذلك خمسون صلاة. ومَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حَسَنة. فإن عملها كُتِبَتْ له عشرا. ومن هَمَّ بسيّئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها كتبت سيّئةً واحدة. قال: فَنَزَلْتُ حتّى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربّي حتّى استحييت منه.

وبالإضافة إلى الصّلوات الخمس الّتي أعطيها ﷺ أُعْطِي خواتيم سورة البقرة، وغُفِر لِمَنْ لم يشرك بالله من أمّته شيئاً المُقْحِمات[1].

يُقْسِم الحقّ جلّ وعلا بالنّجم في السّماء المولّد للطّاقة إذا هوى، وبالثّريّا إذا سقطت مع الفجر، أو بالنّجم الّذي يتبع الشّيطان عند استراق السّمع. ماضلّ صاحبكم محمّدٌ ﷺ الّذي عاش بين ظَهْرانَيْكُمْ وتعرفونه حقّ المعرفة، وما أخطأ طريق الهداية، ولاغَوَى محمّدٌ ﷺ ولا خرج عن سبيل الرّشاد. بل هو ﷺ المهتدي الرّاشد. وماينطق محمّد ﷺ عن هوى نفسه. مانطقه عليه الصّلاة والسّلام[2] قرآناً كريماً وسنّةً نبويّة مطهّرة، إلّا وحيٌ يوحَى إليه من ربّ العالمين. علّم محمّداً ﷺ ذلك الوحي مَلَكٌ شديد القوى هو جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على وحيه. إنّه ذو قوّةٍ ومَنْظَرٍ حَسَن، فاستوى جبريل

---

[1] صحيح مسلم ١٥٧/١ حديث رقم٢٧٩ وبشرح النّووي ٣/٣ والمقحمات بضمّ الميم وإسكان القاف وكسر الحاء: الذّنوب العظام الكبائر الّتي تهلك أصحابها وتوردهم النّار وتقحمهم إيّاها. والتّقحّم: الوقوع في المهالك. ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمّة غير مشرك بالله غفر له المقحمات. والله أعلم. الإمام النّووي.

[2] انظر التّبيان في أقسام القرآن ٢٤٥.

عليه السّلام وارتفع على صورته الّتي خلقه الله تعالى عليها وهو بالأفق الأعلى حيث تطلع الشّمس ويأتي النّهار. وهذه هي المرّة الأولى الّتي رأى محمّدٌ ﷺ فيها جبريل عليه السّلام في صورته بناءً على طلب محمدٍ ﷺ. لقد كان محمّدٌ ﷺ في أجياد بالقرب من الصَّفا فرأى جبريل عليه السّلام له ستّمائة جَناح وقد سَدَّ الأُفُق. وهذه إحدى مرّتين اثنتين رأى فيهما محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام على صورته.

ثمّ دنا جبريل عليه السّلام من محمّدٍ ﷺ واقترب، فتدلّى وازداد قرباً، فكان على قدر قوسين أو ذراعين من محمّدٍ ﷺ أو أقلّ من القوسين أو الذّراعين. فَأَوْحَى جبريل عليه السّلام إلى عبدالله محمّدٍ ﷺ ما أَوْحَى الله تعالى إليه. ماكَذَبَ فؤاد محمّدٍ ﷺ ما رأى محمّدٌ ﷺ بكلتا عينيه بل صدّقه. أفتجادلون أيّها المشركون محمّداً ﷺ وتنكرون عليه ما يرى.

ولقد رأى محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام مرّةً أخرى في السّماوات العلى ليلة الإسراء والمعراج. لقد رآه على صورته عند سدرة المنتهى، وشجرة النَّبِق الّتي ينتهي إليها علم كلّ عالم، والّتي ينتهي إليها مايَهْبِط من فوقها ومايصعد من تحتها من أمر الله تعالى. عندها جنّة المأوى الّتي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشّهداء والمتّقين. حين يغشى السّدرة مايغشى من نور الله تعالى، فلايستطيع أحدٌ أن ينعتها من حسنها. مازاغ بصر محمّدٍ ﷺ ولا مال يميناً ولاشمالاً، وما طغى بصر محمّدٍ ﷺ ولا جاوز المدى الّذي حُدِّد له، دليلاً على فرط رباطة الجأش، وعظيم الطّاعة. لقد رأى محمّدٌ ﷺ من آيات ربّه عزّ وجلّ الكبرى، كجبريل عليه السّلام، وسِدْرَةِ المنتهى، وجنّة المأوى.

ولايخفى الانسجام بين القَسَمِ وجوابه. إنّ النّجوم يُرْمَى بها شياطين استراق السّمع. جاء في سورة الصّافّات [1] قوله تعالى:﴿إنّا زيّنّا السّماء الدّنيا بزينةٍ الكواكب. وحفظاً من كلّ شيطانٍ مارد. لايَسَّمَّعُون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كلّ جانب. دُحوراً

---

[1] الآيات ٦-١٠.

ولهم عذابٌ واصب. إلّا من خَطِف الخَطْفَةَ فأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقب﴾ وممّا جاء في تفسير الشّهاب الّذي يثقب الشّيطان الّذي يسترق السَّمع قول الإمام البخاري[1]:" ومسترقو السّمع هكذا واحدٌ فوق واحد. ووصف سفيان (بن عيينة)[2] بيده وفرّج بين أصابع يده اليُمْنَى، نَصَبها بعضها فوق بعض. فربّما أدرك الشّهابُ المستمعَ قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيُحرقَه. وربّما لم يدركه حتّى يرمي بها إلى الّذي يليه، إلى الّذي هو أسْفَلَ منه، حتّى يلقوها إلى الأرض– وربّما قال سفيان: حتّى تنتهي إلى الأرض– فتُلْقَى على فم السّاحِر، فيكذِبُ معها مائة كَذْبة "

---

[1] فتح الباري ٨/٣٨٠ حديث رقم ٤٧٠.

[2] فتح الباري ٨/٥٣٨.

(٢)

((لاتشفع الملائكة إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فكيف تشفع الأصنام الّتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وعقاب المسيئين وثواب المحسنين))

الآيات (١٩– ٣٢)

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

أفرأيتم اللّات والعزّى: أخبروني ألهذه الأصنام قدرةٌ على شيءٍ فتعبدونها دون الله القادر على ماتقدّم ذكره[1] اللّات اشتقّوا اسمها من اسم الله فقالوا اللّات، يعنون مؤنّثةً منه، تعالى الله عن قولهم علّواً كبيرا[2] فقد سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه فقالوا من الله اللّات ومن العزيز العُزّى وزعموا أنّهنّ بنات الله. تعالى الله عمّا يقولون وافتروا[3] وكانت اللّات صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيتٌ بالطّائف له أستارٌ وسَدَنة. وحوله فناءٌ معظّمٌ عند أهل الطّائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش[4] وكانت العُزّى شجرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بِنَخْلَة. وهي بين مكّة والطّائف. كانت قريش يعظّمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العُزّى ولاعُزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: قولوا: الله مولانا ولامولى لكم[5] .

---

[1] الجلالين.

[2] تفسير ابن كثير ٤٣٠/٧ وتفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

[3] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

[4] تفسير ابن كثير ٤٣٠/٧ وتفسير الطّبري ٣٥/٢٧.

[5] تفسير ابن كثير ٤٣١/٧ وانظر تفسير الطّبري ٣٥/٢٧.

ومناة الثّالثة الأخرى: مناة صَنَمٌ بين مكّة والمدينة بالمُشَلَّل من قُدَيد[١] وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليّتها يعظّمونها ويهلّون منها للحجّ إلى الكعبة[٢] ومناة مشتقّة من فعل مَنَى يُمْنِي أي صبّ، لأنّ دماء الذّبائح كانت تصبّ عندها[٣] وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظّمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثّلاثة الّتي نصّ عليها في كتابه العزيز. وإنّما أفرد هذه بالذّكر لأنّها أشهر من غيرها[٤] ومفعول:﴿ أرأيتم﴾ الثّاني محذوف والتّقدير: أعرفتم عظمة الله تعالى وقدرته فرأيتم الّلات والعزّى ومناة كيف هي عاجزة وحقيرة وليست أهلاً للعبادة[٥] والأخرى صفة ذم للثّالثة[٦] وقد هَدَمَ المصطفى ﷺ الأصنام الثّلاثة كما هَدَمَ ماسواها من الأصنام[٧].

ألكم الذّكر وله الأنثى: أي أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذّكور[٨] وتجعلون له الأنثى الّتي لاترضونها لأنفسكم ولكنّكم تقتلونها كراهةً منكم لهنّ[٩].

تلك إذن قسمةٌ ضيزى: جائرة غير مستوية ناقصة غير تامّة. والعرب تقول: ضِزْتُهُ حَقَّهُ بكسر الضّاد وضُزته بضمّها فأنا أَضِيزه وأَضُوزه وذلك إذا نقصته حقّه ومنعته[١].

---

[١] فتح الباري ٦١٣/٨ حديث رقم ٤٨٦١.

[٢] تفسير ابن كثير ٤٣١/٧.

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨١/١٢.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٣١/٧.

[٥] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨٠/١٢.

[٦] الجلالين.

[٧] انظر تفسير ابن كثير٤٣١/٧-٤٣٣.

[٨] تفسير ابن كثير ٤٣٣/٧.

[٩] تفسير الطّبري ٣٤/٢٧.

إن هي: ما المذكورات[٢].

سمّيتموها: أي سمّيتم بها[٣] من تلقاء أنفسكم[٤]

ما أنزل الله بها: بعبادتها[٥]

من سلطان: حجّة وبرهان[٦]

إن يتّبعون إلّا الظّنّ: مايتّبع هؤلاء المشركون في هذه الأسماء الّتي سمّوا بها آلهتهم[٧] وفي عبادتها[٨] إلّا الظّنّ بأنّ مايقولون حقّ [٩].

أخبروني أيّها المشركون ألهذه الأصنام العاجزة قدرةٌ على شيءٍ فتشركونها مع الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ في العبادة، أعرفتم قدرة الله تعالى فرأيتم عجز الّلات والعُزّى ومناة الثّالثة الأخرى ثالثة الأَثافِي. أتصرّون على ادّعاء الولد لله تعالى، وعلى نسبة البنات إليه، وعلى الزّعم بأنّ الملائكة بنات الله تعالى وتصوّرون تلك الأصنام على هيئة الملائكة وفق تصوّركم السّخيف وتزعمون أنّكم ماتعبدون تلك الأصنام إلّا ليقرّبوكم إلى الله تعالى زُلْفَى. أتجعلون لكم الذّكور الّذين تحبّونهم وتجعلون الإناث الّلاتي تكرهونهنّ لله تعالى بزعمكم أنّ الملائكة بنات الله تعالى. تلك إذن قسمةٌ ظالمةٌ غير عادلة، جائرةٌ غير منصفة. ما المذكورات إلّا أسماءٌ سمّيتم بها تلك الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون المشركون.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٣٦.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير ابن كثير ٧/٤٣٣.

[٥] الجلالين.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٣٧.

[٨] الجلالين.

[٩] تفسير الطّبري ٢٧/٣٧.

ما أنزل الله تعالى بعبادتها من حجّةٍ ولابرهان . مايتّبعون في عبادة الأصنام إلّا الظّنّ الّذي لايُغْني من الحقّ شيئاً وهوى النّفس الأمارة بالسّوء المُسْتَخْذِيَة للشّيطان الرّجيم. ولقد جاء مشركي مكّة الهدى من ربّهم جلّ وعلا في هيئة القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة الموحى بهما من ربّ العالمين.

وواضحٌ أنّنا في تفسيرنا للآيات الكريمات قد تجاهلنا فِرْيَة الغَرانِيق وتجاوزنا قصّتها. وفرية الغرانيق زعم الزّاعمون في شأنها أنّ ابن إسحاق شيخ رجال السّيرة النّبويّة هو الّذي رواها. وقد جاء في البحر المحيط[1]:" وهي قصّةٌ سئل عنها الإمام محمّد ابن إسحاق جامع السّيرة النّبويّة فقال: هذا من وضع الزّنادقة. وصَنَّفَ في ذلك كتاباً " وقصّة الغرانيق الّتي وضعها الزّنادقة تزعم أنّ النّبيّ ﷺ، وهو يتلو سورة النّجم المكّيّة الكريمة، استطاع الشّيطان الرّجيم أن يُجْرِيَ على لسانه ﷺ كلمتين ليستا منها. فبَعد أن تلا قوله تعالى[2]:﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى. ومناة الثّالثة الأخرى﴾ زعموا أنّه جرى على لسانه ﷺ ما يفيد أنّ شفاعة هذه الأصنام تُرْتَجَى، وأنّ جبريل عليه السّلام نبّهه ﷺ إلى ذلك ، فَحَذَفَ ماليس من القرآن. وتمضي الرّواية فتقول: إنّه نزل في هذا الشّأن الآية الكريمة الثّانية والخمسون من سورة الحجّ، تسرّى عنه ﷺ.

وكما تجاهلنا هنا فرية الغرانيق تجاهلنا هذه الفرية في أثناء تفسير آية سورة الحجّ الكريمة في التّفسير البسيط للقرآن الكريم[3] وضربنا بتلك القصّة الّتي وَضَعَها الزّنادقة عُرْضَ الحائط، وأشرنا إلى دراستنا لهذه القصّة تحت عنوان: " رأيٌ في قصّة الغرانيق" الّتي تمّت كتابتها يوم الجمعة ١٣٩٦/٧/١٢هـ الموافق ١٩٧٦/٧/٩م في مدينة سِدْني بأستراليا، والّتي دَحَضْنا فيها تلك الفرية، ورددنا بها دراسةً لأحد المستشرقين أثبت فيها

---

(١) ٣٨١/٦.

(٢) سورة النّجم ١٩ و ٢٠.

(٣) ٢٤١/١٧.

الفرية، جرياً على عادة المستشرقين . لقد ألقى المستشرق الدّراسة في المؤتمر الثّقافيّ العالميّ الّذي انعقد في مدينة جلبرن بأستراليا في شهر ذي الحجّة من عام ١٣٩٥هـ ديسمبر عام ١٩٧٥م وكنت آنذاك أستاذا زائراً بجامعة سدني. إنّ دراستي للفرية أَلْحَقْتُها بكتابي: تأمّلات في سورة الحاقّة[١] الّذي كُتِبَتْ مقدّمته يوم الأحد ١٣٩٧/٥/٢٠هـ الموافق ١٩٧٧/٥/٨م وطُبِعَ في القاهرة في السّنة ذاتها. لقد تبيّن أنّ فرية الغرانيق تعتمد على حديثٍ واهي السّند والمتن معاً، وأنّها تصطدم بعصمة المصطفى ﷺ ،وبما جاء في سورة النّجم ذاتها في قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثّالثة : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وبالإضافة إلى قلق هذه الزّيادة في السّياق معنويّاً، هي قلقةٌ صوتيّاً. ثمّ إنّ إحدى صور هذه الزّيادة توافق بيتاً من الشّعر كاملاً:

تلك الغرانيق العُلَى ∴ منها الشفاعَةُ تُرْتَجى [٢]

وقد قال عزّ من قائل عن المصطفى ﷺ في سورة يس[٣] :﴿ وما علّمناه الشّعر وماينبغي له. إن هو إلّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين﴾

إنّا من أجل الأسباب السّابقة تجاهلنا فرية الغرانيق الّتي وَضَعَها الزّنادقة وضربنا بها عُرْض الحائط.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

[١] الصّفحات ١٣٩-١٤٨.

[٢] تفسير الطّبري ١٣٣/١٧.

[٣] الآية ٦٩.

أم أنّ لِكُلِّ إنسانٍ ماتمنّاه على غرار تمنّى مشركي مكّة أن تقرّبهم الأصنام الّتي يعبدونها إلى الله تعالى زُلْفى. إنّ كلّ شيءٍ في الآخرة وفي الدّنيا إنّما يتمّ بمشيئة الله تعالى، فما شاء الله تعالى كان ومالم يشأ لم يكن، وليست الأمور منوطةً بالعباد ولكن بربّ العباد جلّ وعلا. وكم من الملائكة الكرام الّذين لهم المنزلة الرّفيعة عند الله تعالى لاتُغْني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله تعالى لمن يشاء منهم أن يشفعوا له من العباد ويرضى عنه. وتلك الأصنام لم يأذن الله تعالى بعبادتها فكيف تُرْجَى شفاعتها. إنّ الأمور شديدة الاختلاط على مشركي مكّة وإنّهم بحاجةٍ إلى أن يَرْعَوُوا إلى سبيل الرشاد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى: وذلك أنّهم كانوا يقولون هم بنات الله [1]

ومالهم به من علم: ومالهم بما يقولون من تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى من حقيقة علم[2].

---

[1] تفسير الطّبري ٣٧/٢٧.

إن يتّبعون إلّا الظّنّ: مايتّبعون في ذلك إلّا الظّنّ، يعني أنّهم إنّما يقولون ذلك ظنّاً بغير علم[٣] والظّنّ اسمٌ لما يحصل عن أمارة. ومتى قويت أدّت إلى العلم. ومتى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التّوهّم[٤].

وإنّ الظّنّ لايغني من الحقّ شيئا: وإنّ الظّنّ لاينفع من الحقّ شيئاً فيقوم مقامه[٥] عن ذكرنا: أي القرآن[٦].

ذلك مبلغهم من العلم: أي طلب الدّنيا والسّعي لها هو غاية ماوصلوا إليه[٧].

إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة ولايعملون من أجلها ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى. ومالهم بما يقولون من علم حقّ. مايتّبعون إلّا الظّنّ. وإنّ الظّنّ لايغني من الحقّ شيئاً، ولايقوم مقامه، ولايشهد مشهده. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: إيّاكم والظّنَّ[٨] فإنّ الظّنّ أكذب الحديث[٩] فأَعْرِضْ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم عمّن أَعْرَضَ عن ذكرنا، وانصرف عن القرآن الكريم وَحْيِنا، ولم يرد بقوله وفعله إلّا الحياة الدّنيا ومتاعها الرّخيص ونعيمها الزّائل. إنّ طلب الدّنيا والسّعي لها هو منتهى علمهم ومبلغ عملهم ولأجل هذا هم يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا وجانبها المادّيّ، وهم عن الآخرة والعمل من أجلها غافلون ولا هون. إنّ

---

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٣٧.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٣٧.

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"ظنّ" ٢/٤١٢.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٣٧.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير ابن كثير ٧/٤٣٤.

[٨] المراد النّهي عن ظنّ السَّوْء.

[٩] صحيح مسلم ٤/١٩٨٥ حديث رقم ٢٥٦٢.

ربّك يامحمّد هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله عزّ وجلّ ككفّار مكّة، وهو أعلم بالمهتدين بهديه، السّائرين نحوه، المسافرين إليه عزّ وجلّ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾

ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى: بالجنّة [1]

الّذين يجتنبون كبائر الإثم: الّذين يبتعدون عن كبائر الإثم الّتي نهى الله عنها وحرّمها عليهم فلا يقربونها وذلك كما جاء في الحديث الّذي رواه أبوهريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السّبع الموبقات[2] قيل يارسول الله وماهنّ؟ قال: الشّرك بالله، والسّحر، وقتل النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ، وأكل مال اليتيم، وأكل الرّبا، والتّولّي يوم الزّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1].

والفواحش: الزّنا وما أشبهه ممّا أَوْجَبَ الله فيه حدّا[2]

---

[1] تفسير الطّبري ٣٨/٢٧.

[2] الموبقات: المهلكات.

[1] صحيح مسلم ٩٢/١ حديث رقم ١٤٥.

[2] تفسير الطّبري ٣٨/٢٧.

إلّا اللّمم: اللّمم منصوب على الاستثناء المنقطع[٣] وعليه يكون المعنى إلّا اللّمم بما دون كبائر ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدّنيا والعذاب في الآخرة فإنّ ذلك معفوٌّ لهم عنه[٤] عن ابن عبّاسٍ قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَم ممّا قال أبوهريرة عن النّبيّ ﷺ: إنّ الله كتب على ابن آدم حظّه من الزّنا أدركه ذلك لامحالة. فزنا العينين النّظر، وزنا اللّسان المنطق، والنّفس تتمنّى وتشتهي والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه[٥] وجعل بعضهم اللّمم من جملة الكبائر، فالاستثناء متّصل[٦] ويقال: فلانٌ يفعل كذا لَمَماً أي حيناً بعد حين[٧]

فلا تزكّوا أنفسكم: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنّها زكيّةٌ بريئة من الذّنوب والمعاصي[٨].

ولله تعالى وحده دون سواه كلّ ما في السّماوات وما في الأرض خلقاً ومِلكْاً وعبيدا، ليجزي عزّ وجلّ يوم القيامة الّذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الّذين أحسنوا بالجنّة الّتي عَرْضُها السّماوات والأرض. إنّهم الّذين يجتنبون كبائر الإثم، ابتداءً بالشّرك. ويجتنبون الفواحش ، وهي ما عَظُمَ قبحه من الأفعال ابتداءً بالزّنا، إلّا لمم الذّنوب وصغارها فإنّهم قد يرتكبونها، وقد وعد الله تعالى أن يغفرها لمن استغفر الله تعالى وتاب إليه عزّوجلّ توبةً نصوحا. إنّ ربّك أيّها الإنسان واسع المغفرة، وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيٍّ، ويغفر الذّنوب جميعاً مادام الذّنب غير الشّرك. الله تعالى أعلم بكم أيّها

---

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨٨/١٢ وانظر تفسير الطبري ٤٠/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٤١/٢٧.

[٥] تفسير الطّبري ٣٩/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٣٥/٧ وانظر صحيح مسلم ٢٠٤٦/٤ حديث رقم ٢٦٥٧.

[٦] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨٨/١٢.

[٧] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"لمّ" ٥٨٥/٢.

[٨] تفسير الطّبري ٤١/٢٧.

النّاس إذ أنشأكم من الأرض وخلق أباكم من طينٍ لازب، وإذ أنتم أجنّةٌ مستورون في بطون أمّهاتكم. إنّ الله تعالى لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولاتشهدوا لها بأنّها بريئةٌ من الذّنوب. إنّ الله تعالى هو أعلم بمن اتّقى فجعل وِقايةً بينه وبين عذاب النّار بعمل الصّالحات، وبَلَغَ مرتبة التّقوى، الوجه الآخر للإحسان، بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

(٣)

((الله تعالى عَلّام الغيوب، الخلّاق، الفعّال لما يريد، فاعملوا ليوم القيامة، واعبدوا الله تعالى وَحْدَه))

الآيات (٣٣-٦٢)

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

سبب النّزول:

رُوِيَ أنّ الآيات الكريمات نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنّه عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتّبع رسول الله ﷺ على دينه فضمن له الّذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً مِنْ مالِهِ ورَجَعَ إلى شركه أن يتحمّل عنه عذاب الآخرة ففعل.فأعطى الّذي عاتبه على ذلك بعض ما كان ضمن له ثمّ بَخِلَ عليه ومَنَعَهُ تمام ما ضَمِنَ له[1]

وأكدى: بخل وانقطع عطاؤه[2] والكُدْية صَلابَةٌ في الأرض. يقال: حفر فأكدى إذا وصل إلى كُدْية وجبل واستعير ذلك للطّالب الْمُخْفِق والمُعْطِي المُقِلّ[3]

أعنده علم الغيب فهو يرى: أعند هذا الّذي ضمن له صاحبه أن يتحمّل عنه عذاب الله في الآخرة علم الغيب فهو يرى حقيقة قوله ووفائه بما وعده[4]

أفرأيت يا محمّد ذلك الإنسان الّذي ارتدّ بعد أن عيّره أحد شياطين الإنس بإسلامه. وبعد أن تعهّد له المُعَيِّر بأن يحمل يوم القيامة عنه خطاياه إن هو استمرّ في دفع مالٍ معيَّنٍ له. لقد أعطى قليلاً من ماله ثمّ بَخِل عليه ومنعه تمام ما ضمن له. أعند هذا المُعْطِي علم الغيب فهو يرى ويعلم من جملة الغيب بأنّ غيره يتحمّل عنه عذاب الآخرة. بطبيعة الحال ليس عنده شيءٌ من علم الغيب مطلقا.

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

---

[1] تفسير الطّبري ٤٢/٢٧ وانظر أسباب النّزول ٤٦١.

[2] تفسير الطّبري ٤٢/٢٧.

[3] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني "كدي" ٥٥١/٢ وتفسير الطّبري ٤٢/٢٧.

[4] تفسير الطّبري ٤٢/٢٧.

وإبراهيم الّذي وفَّى: وفّى جميع شرائع الإسلام وجميع ما أُمِرَ به من الطّاعة[1].

أم لم ينبّأ هذا الّذي اعتقد أنّ غيره يحمل عنه وزره يوم القيامة بما في صحف موسى عليه السّلام من التّوراة، وصحف إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء الّذي وفَّى جميع ما أمره الله تعالى به من الطّاعة، ألّا تحمل نفسٌ وازرة وزر نفسٍ أخرى يوم القيامة، وأن ليس للإنسان في الآخرة إلّا ما سَعَى في الدّنيا، وأنّ سَعْيَ الإنسان من خيرٍ أو شرٍّ سوف يراه في الآخرة، ثمّ سوف يُجْزاهُ الجزاء الأوفى من كلّ جزاء، ثواباً أو عقابا.

[1] تفسير الطّبري ٢٧/٤٣.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

وأنّ إلى ربّك المنتهى: وأنّ إلى ربّك يامحمّد انتهاء جميع خلقه ومرجعهم وهو المجازي جميعهم بأعمالهم صالحهم وطالحهم ومحسنهم ومسيئهم[1].

وأنّه هو أضحك وأبكى: أي خلق في عباده الضّحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان[2].

وأنّه هو أمات وأحيا: وأنّه هو أمات من مات من خلقه، وهو أحيا من حَيِيَ منهم، فَنَفَخَ الرّوح في النّطفة الميتة فجعلها حيّةً بتصَييره الرّوح فيها[3] وأحيا للبعث[4]

من نطفة: من منيّ[5]

---

[1] تفسير الطّبري ٢٧/٤٤.

[2] تفسير ابن كثير ٧/٤٤٢.

[3] تفسير الطّبري ٢٧/٤٤.

[4] الجلالين.

[5] الجلالين.

إذا تُمْنى: تُصَبّ في الرّحم[١]

وأنّ عليه النّشأة الأخرى: وأنّ على ربّك يامحمّد أن يخلق هذين الزّوجين بعد مماتهم وبلاهم في قبورهم الخلق الآخر. وذلك إعادتهم أحياء خلقاً جديداً كما كانوا قبل مماتهم[٢].

وأنّه هو أغنى وأقنى: أي أعطى مافيه الغني وما فيه القِنْية[٣] أي المال المُدَّخَر[٤] يقول تعالى ذكره: وأنّ ربّك هو أغنى من أغنى من خلقه بالمال، وأقناه فجعل له قنية أصول أموال[٥] يقال: له غنم قِنية وقُنية إذا كانت خالصةً له ثابتةً عليه[٦]

وأنّه هو ربّ الشِّعرى: الشّعرى هذا النّجم الوقّاد الّذي يقال له: مِرْزم الجوزاء، كانت طائفة من العرب يَعْبُدُونه[٧] وهو كَوكب خلف الجوزاء[٨] وذكره على جهة الخصوص لِكَوْنِهِ معبوداً لقومٍ من العرب[٩].

وأنّه أهلك عاداً الأولى: يقال إنّها قيل لها الأولى لأنّها أهلكت قبل عادٍ الآخرة[١٠]

---

[١] الجلالين.

[٢] تفسير الطّبري ٤٤/٢٧.

[٣] القنية والقنية بكسر القاف وضمّها. لسان العرب:"قنى"

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قنى" ٥٣٥/٢.

[٥] تفسير الطّبري ٤٤/٢٧.

[٦] لسان العرب :"قنى"

[٧] تفسير ابن كثير ٤٤٢/٧.

[٨] تفسير الطّبري ٤٥/٢٧ والجلالين.

[٩] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"شعر" ٣٤٦/١.

[١٠] تفسير الطّبري ٤٦/٢٧.

فما أبقى: فما أبقى منهم أحداً[1]

إنّهم كانوا هم أظلم وأطغى: إنّهم كانوا هم أشدّ ظلماً لأنفسهم وأعظم كفراً بربّهم وأشدّ طغياناً وتمرّداً على الله من الّذين أهلكهم مِنْ بَعْدُ من الأمم[2]

والمؤتفكة: والمخسوف بها المقلوب أعلاها أسفلها، وهي قرية سَدُوم قوم لوطٍ عليه السّلام[3]

أهوى: أهوى الله، فأمر جبريل ﷺ فَرَفَعَها من الأرض بجَناحه ثمّ أهواها مقلوبة[4] وأسقطها بعد رفعها إلى السّماء[5]

فغشّاها ما غشّى: فغشّى الله المؤتفكة من الحجارة المَنْضُودة المسوَّمة ماغشّاها فأمطرها إيّاه من سجّيل[6]

فبأيّ آلاء ربّك تتمارى: فبأيّ نعمات ربّك يا ابن آدم الّتي أنعمها عليك ترتاب وتشكّ وتجادل. والآلاء جمع إلى وفي واحدها لغاتٌ ثلاث، إِلَى وأَلى وأُلى[7].

أو لم تنبّأ ياابن آدم فتعلم أنّ إلى ربّك الّذي ربّاك بنعمه وآلائه المنتهى والمعاد يوم القيامة، وأنّه جلّ وعلا هو الّذي خلق في عباده كلاًّ من الضّحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان، وأنّه جلّ وعلا هو الّذي أمات الحيّ وأحيا الميّت وذلك حينما كان نطفة، ويقاس عليه الإحياء يوم القيامة للحساب والجزاء، وأنّه جلّ وعلا هو الّذي خلق الزّوجين، الذّكر والأنثى، من نطفةٍ إذا تُصَبُّ في رحم الأنثى، وأنّ عليه جلّ وعلا خلق الزّوجين مرّةً

---

[1] تفسير ابن كثير ٤٤٢/٧ والجلالين.

[2] تفسير الطّبري ٤٦/٢٧.

[3] تفسير الطّبري ٤٧/٢٧.

[4] تفسير الطّبري ٤٧/٢٧.

[5] الجلالين.

[6] تفسير الطّبري ٤٧/٢٧.

[7] انظر تفسير الطّبري ٤٧/٢٧.

أخرى بعد الموت والبعث من القبور يوم القيامة، وأنّه جلّ وعلا هو الّذي أعطى عباده مافيه غِناهم، كما أعطاهم مايَقْتَنُون من أصول أموالٍ ومايدّخرون، وأنّه جلّ وعلا هو ربّ نجم الشِّعْرى الّذي كان يعبده بعض أهل الجاهليّة سفهاً منهم وحمقاً، إذ لا معبود بحقٍّ إلّا الله تعالى، وأنّه جلّ وعلا هو الّذي أهلك عاداً الأولى في جنوب جزيرة العرب وكانت موغلةً في القدم، وقد أبادها الله تعالى قبل عادٍ الآخرة، كما أهلك ثمود في شمال جزيرة العرب بعد إهلاك عاد، فما أبقى الله تعالى منهم أحدا. وأهلك جلّ وعلا قوم نوحٍ من قبل كلٍّ من عاد وثمود. لقد كان قوم نوحٍ عليه السّلام، وهو أوّل رسل الله تعالى إلى البشريّة، أشدّ ظلماً وأكثر بغياً من الهالكين بعدهم، فقد لبث نوحٌ عليه السّلام يدعوهم إلى الله تعالى ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً فما آمن معه عليه السّلام إلّا قليل. وأهلك الله تعالى قرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتي رفعها جبريل عليه السّلام من الأرض بِجَناحه بأمر ربّه عزّ وجلّ ثمّ أسقطها مقلوبةً رأساً على عَقِب. فَغَشَّى تلك القرى وغطّى القوم ماغشّى وغطّى من الحجارة المتتابعة الموسوم على كلّ حجرٍ منها سمة صاحبه. فبأيّ نعمةٍ من نعم الله تعالى عليك أيّها الإنسان أنت تتمارى وتجادل وتشكّ وترتاب. إنّ نعم الله تعالى عليك لاتُحْصَى فعليك أن تبادل الإحسان بالإحسان وأن تبادر إلى توحيد الواحد الدّيّان، وأن تفرده بالعبادة في كلّ زمانٍ ومكان.

﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾

هذا نذيرٌ من النذر الأولى: محمّدٌ ﷺ من النّذر الأولى، أي من جنسهم، أرسل كما أرسلوا[١]

أزفت الآزفة: دنت الدّانية. وإنّما يعني دنت القيامة القريبة منكم أيّها النّاس. يقال منه: أَزِفَ رَحِيل فلان إذا دنا وقرب[٢].

ليس لها من دون الله كاشفة: ليس للآزفة الّتي أَزِفَتْ وهي السّاعة الّتي قد دنت من دون الله كاشف. يقول: ليس تنكشف فتقوم إلّا بإقامة الله إيّاها وكشفها دون من سواه من خلقه، لأنّه لم يُطْلِع عليها ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلا[٣] وليس للقيامة نَفْسٌ كاشفة[٤].

محمّدٌ ﷺ نذيرٌ من جنس النّذر الأولى كإبراهيم وموسى عليهما الصّلاة والسّلام. دَنَتِ القيامة وأوشكت السّاعة أن تقوم، فإنّ محمّداً ﷺ خاتم النَبيّين، وإنّ القرآن الكريم آخر الكتب السّماوية. ليس للسّاعة من دون الله تعالى نَفْسٌ كاشفة ومقيمةٌ لها، بل إنّ الله تعالى لم يطلع على السّاعة ملكاً مقرّباً ولانبيّاً مرسلاً، فلا يظهرها لوقتها إلّا هو جلّ وعلا وحده دون سواه، فآمنوا بها أيّها النّاس واعملوا من أجلها.

---

[١] انظر تفسير الطّبري ٤٧/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٤٣/٧ والجلالين .

[٢] تفسير الطّبري ٤٨/٢٧.

[٣] تفسير الطّبري ٤٨/٢٧.

[٤] الجلالين.

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ۝٦٢﴾

أفمن هذا الحديث تعجبون: أفمن هذا القرآن أيّها النّاس تعجبون أن نزل على محمّد ﷺ [١] .

وتضحكون ولاتبكون: وتضحكون منه استهزاءً به ولا تبكون ممّا فيه من الوعيد لأهل معاصي الله وأنتم من أهل معاصيه[٢] .

وأنتم سامدون: وأنتم لاهون عمّا فيه من العبر والذّكر معرضون عن آياته[٣] والسّامد اللّاهي الرّافع رأسه، من قولهم: سَمَدَ البعير في سيره[٤].

فاسجدوا لله واعبدوا: روى البخاريّ في صحيحه[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: سجد النّبيّ ﷺ بالنّجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس. وروى كذلك[٦] عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: أوّل سورةٍ أنزلت فيها سجدةٌ والنّجم. قال: فسجد رسول الله ﷺ وسَجَدَ مَنْ خلفه، إلّا رجلاً رأيته أخذ كفّاً من ترابٍ فسجد عليه. فرأيته بعد ذلك قُتِل كافرا، وهو أميّة بن خَلَف.

أفمن هذا الحديث تعجبون أيّها المشركون ومن نزول القرآن الكريم على محمّد ﷺ تصيبكم حالةٌ من العجب بسبب جهلكم الحكمة من اصطفاء الله تعالى محمّداً ﷺ لنزول القرآن الكريم عليه. وتضحكون أيّها المشركون استهزاءً بالقرآن الكريم ولاتبكون ممّا فيه

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٤٨.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٤٨.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٤٨.

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"سمد" ١/٣١٨.

[٥] فتح الباري ٨/٦١٤ حديث رقم ٤٨٦٢.

[٦] فتح الباري ٨/٦١٤ حديث رقم ٤٨٦٣.

من وعيد الله تعالى أصحاب المعاصي وأنتم منهم. وأنتم لاهون غافلون رافعون رءوسكم تيهاً وكبراً ظنّاً منكم أنّكم تحسنون صنعاً وأنتم الأخسرون أعمالاً على الحقيقة.

إنّ واجبكم أن تسلموا، وتسجدوا لله تعالى وحده دون سواه في الصّلاة وغير الصّلاة، وأن تفردوه عزّ وجلّ بالعبادة.

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة النّجم من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ قبل الهجرة[١] .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة اثنتان وستّون آية. وعدد كلماتها ثلاثمائة وستّون كلمة. وعدد حروفها ألفٌ وأربعمائة وخمسة حروف[٢].

٣- عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أوّل سورةٍ أنزلت فيها سجدة:"والنَّجم". قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَنْ خلفه، إلّا رجلاً رأيته أخذ كفّاً من ترابٍ فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً، وهو أميّةً بن خَلَف [٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: سجد النّبيّ ﷺ بالنّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس[٤].

---

[١] الإتقان ١٤٢/١ وتفسير ابن كثير ٤١٧/٧ والجلالين. وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٦/٢٧ والمحرّر الوجيز ٢٥٣/١٥ والكشّاف ١٧٦/٣ وتفسير القرطبي ٦٢٥١ والبحر المحيط ١٥٣/٨.

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٦/٢٧.

[٣] فتح الباري ٦١٤/٨ حيث رقم ٤٨٦٣ والإتقان ١٠٠/١ .

[٤] فتح الباري ٦١٤/٨ حديث رقم ٤٨٦٢.

٤- سورة النّجم أوّل سورةٍ قرأها النّبيّ ﷺ على النّاس[١] وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون[٢].

٥- إذا كانت سورة الإسراء المكّيّة الكريمة قد تحدّثت في الآية الكريمة الأولى عن معجزة الإسراء بالمصطفى ﷺ من المسجد الحرام في مكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشّريف، فإنّ سورة النّجم المكّيّة الكريمة قد تحدّثت في صدرها عن معجزة العروج بالمصطفى ﷺ تلك اللّيلة المباركة من المسجد الأقصى إلى السّماوات العُلَى. وكما اختصّت سورة الإسراء من بين سائر سور القرآن الكريم بالحديث عن الإسراء، اختصت سورة النّجم بالحديث عن المعراج.

٦- المحور الّذي تدور حوله سورة النّجم الكريمة قضيّة البعث بعد الموت ووجوب الإيمان بيوم القيامة والعمل لما بعد الموت. وإنّ كلّ القضايا الّتي تعرض لها السّورة الكريمة تعمّق من معنى هذا الموضوع الرّئيس في السّورة الكريمة. إنّ واجب كفّار مكّة أن يبادروا إلى توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة واتّباع محمّد ﷺ والاهتداء بنور القرآن الكريم. وإنّه بالاستعراض السّريع للسّورة الكريمة يتّضح موضوعها الرّئيس وهو البعث بعد الموت، وتَعْمِيقُ القضايا الّتي تعرض لها السّورة الكريمة لذلك الموضوع الرّئيس أو المحور.

تتحدّث آيات القسم الأوّل الثّماني عشرة عن معجزة العروج بالمصطفى ﷺ إلى السّماوات العُلَى. وتمّت هذه المعجزة بمصاحبة جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على وحيه. إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يصدّقوا محمّداً ﷺ في كلّ مايجري على لسانه من قرآنٍ كريمٍ وسنّة نبويّةٍ مطهّرة، لأنّ كلّاً منهما وحيٌ أوحاه الله تعالى إليه. وجبريل عليه السّلام هو مَلَك الوحي، فينبغي الإيمان بالملائكة كما ينبغي الإيمان بالرّسل وبما يوحيه الله تعالى إلى المصطفَيْن من خلقه، وفي مقدّمتهم محمّد بن عبدالله ﷺ. والله سبحانه وتعالى هو

---

[١] فتح الباري ٨/٦١٥.

[٢] المحرّر الوجيز ١٥/٢٥٣.

الّذي أوحى إلى جبريل عليه السّلام ما أوحى به جبريل عليه السّلام إلى محمّد ﷺ. وقد رَأى محمّدٌ ﷺ جبريل عليه السّلام على صورته وله سِتُّمائة جَناح مرّتين اثنتين. مرّةً بعد البعثة في الأرض. ومرّةً أخرى في السّماوات العُلَى ليلة الإسراء والمعراج. لقد رأى محمّدٌ ﷺ تلك اللّيلة من آيات ربّه الكبرى، ومنها جبريل عليه السّلام، وسدرة المنتهى، وجنّة المأوى. إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يصدّقوا بكلّ ما أشارت الآيات الكريمات إليه وأن يؤمنوا بالله تعالى ويفردوه بالعبادة وحده دون سواه، وبملائكته جلّ وعلا وفيهم أمين الله تعالى على وحيه، جبريل عليه السّلام، وبكتبه جلّ وعلا، وفي مقدّمتها القرآن الكريم الّذي تبيّن معناه السّنّة النّبويّة المطهّرة. وكلٌّ منهما موحًى به من عند الله تعالى، وبرسله جلّ وعلا، وفي مقدّمتهم محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، وباليوم الآخر والعمل لذلك اليوم رغبةً في الجنّة ورهبةً من النّار. وكأنّنا في هذا القسم الأوّل من السّورة الكريمة بصدد حثٍّ على الإيمان بأركان الإيمان، وهي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشرّه[1] والحقّ جلّ وعلا يقول[2]:﴿ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنة﴾

إنّ كلّ إنسان مبتلىً بالخير فعليه الشّكر، وبالشّرّ فعليه الصّبر. والإيمان شطران، شطرٌ صبرٌ وشطرٌ شكر.

وكأنّ المصطفى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج قد ترك في الأرض صفته البشريّة واكتسب بالإسراء والمعراج صفة الملائكيّة. وهكذا رافق المصطفى ﷺ جبريل عليه السّلام. وهكذا يتجلّى في آيات القسم الأوّل من السّورة الكريمة جوّ الملائكيّة.

وجوّ الملائكيّة هذا رشّح لتحوّل السّورة الكريمة إلى النَّعْي على مشركي مكّة بخاصّة، مشركي العرب بعامّة، عبادتهم اللّات والعزّى ومناة الثّالثة الأخرى. وتلك أسماءٌ

---

[1] صحيح مسلم ٣٧/١ حديث رقم ١.

[2] سورة الأنبياء ٣٥.

لأشهر أصنام العرب، وقد عملوها على صورة الملائكة حسب تصوّرهم السّقيم. وقد ذهب أولئك المشركون إلى أنّ الملائكة بنات الله تعالى في الوقت الّذي يكرهون فيه البنات ويحبّون الذّكور. لقد كان في القسم الثّاني من السّورة الكريمة نعيٌ على المشركين عبادتهم الأصنام، وادّعائهم أنّ لله تعالى ولداً، وأنّ الملائكة بنات الله تعالى، وذلك في الوقت الّذي يكرهون فيه البنات ويحبّون الذّكور، واتّباعهم الظّنّ وهوى النّفس الأمّارة بالسّوء والأماني وانصرافهم عن الهدى الّذي جاءهم من الله تعالى.

وقد زعم المشركون أنّهم إنّما يعبدون الأصنام لتقرّبهم إلى الله تعالى زُلْفى. وهم قد صوّروا الأصنام على هيئة الملائكة الكرام حسب زعمهم. ويبيّن الحقّ جلّ وعلا أنّ كثيراً من الملائكة الكرام في السّماوات لاتغني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله تعالى لمن يشاء له ويرضى عنه. فكيف تصحّ عقلاً شفاعة الأصنام الّتي ما أنزل الله تعالى بعبادتها من سلطان لمجرّد شبهها بالملائكة حسب التّصوّر السّقيم للّذين نحتوا الأصنام على صور الملائكة حسب زعمهم.

إنّ على القوم أن يتّبعوا الحقّ. وفي حال إعراضهم عليك يامحمّد أن تعرض عنهم إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً في أولئك القوم الّذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا الّتي جعلوها مبلغ علمهم ومنتهى همّهم. إنّ على القوم أن يؤمنوا بالله تعالى الواحد الّذي له ملك السّماوات والأرض، وأن يعبدوه وحده دون سواه، وأن يعملوا بعمل أهل الجنّة كي يدخلوها. ويكون ذكر الجنّة سبباً لذكر أهمّ أسباب دخولها بإذن الله تعالى وبفضله وهو اجتناب كبائر الإثم والفواحش إلّا اللّمم بمعنى صغار الذّنوب، فليس البشر ملائكةً ولامعصومين. وتتمّ الإشارة إلى رحمة الله تعالى الواسعة، فعلى الجميع اهتبالها، وإلى إنشاء الله تعالى آدم عليه السّلام من الأرض. وإلى خلقنا أجنّةً في بطون أمّهاتنا. إنّ على كلّ إنسانٍ ألّا يزكّي نفسه وألّا يشهد لها بأنّها بريئةٌ من الذّنوب. إنّ الله تعالى هو أعلم بمن اتّقى.

وهكذا ترشد السّورة الكريمة النّاس جميعاً إلى الصّراط المستقيم في سفرهم إلى الله تعالى، وليحرصوا على العمل بعمل أهل الجنّة واجتناب عمل أهل النّار.

وتظلّ رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم تلاحق المنحرفين عن سواء السّبيل، ويكون ذلك عن طريق الإنكار على ذلك الّذي أعرض عن دين الإسلام. وأعطى قليلاً من ماله ذلك الّذي تكفّل له بأن يحمل عنه وزره يوم القيامة، إن هو استمرّ في دفع مبلغٍ من المال تمّ الاتّفاق عليه. إنّه لم يستمرّ في دفع المال وامتنع عن مواصلة الدّفع. أعند ذلك المُعْطِي الممتنع عن مواصلة العطاء شيءٌ من علم الغيب فهو يرى أنّ غيره يمكن أن يحمل عنه وزره! أم أنّه لم ينبّأ بما صحف موسى عليه السّلام وهي التّوراة، وصحف إبراهيم أبي الأنبياء الّذي وفّى ماكلّفه الله تعالى به من طاعات، أنّه لاتحمل نفسٌ وزارة وزر نفسٍ أخرى، وأنّه ليس للإنسان إلّا ماسعى في الدّنيا، وأنّ سعيه سوف يُرَى في الآخرة، ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى من كلّ جزاء، خيراً كان أو شرّا. وأنّ إلى ربّك عزّ وجل المرجع يوم القيامة.

وكما كان ذكر الجنّة في الآية الكريمة الحادية والثّلاثين سبباً لذكر أهمّ نعوت أصحاب الجنّة:﴿ الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا الّلمم ﴾ كان النّعي على من ظنّ أنّ ثمّة من يحمل عنه وزره يوم القيامة سبباً في الحديث المستفيض عن بعض مظاهر قدرة الله تعالى ومنها إعادة الحياة يوم القيامة إلى الموتى سكّان القبور. وهذه هي مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة كما جاءت في السّورة الكريمة. إنّ الله سبحانه هو الّذي أوجد في عباده الضّحك والبكاء وسببهما. وأنّه هو أمات الحيّ وأحيا الميّت. وأنّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى من نطفةٍ تُصَبّ في رحم المرأة. وأن عليه جلّ وعلا إعادة الحياة إلى الأموات مرّةً أخرى يوم القيامة. وأنّه هو أغنى عباده بالمال وأقناهم بأصول الأموال الثّابتة. وأنّه هو ربّ نجم الشِّعرى الّذي كان يعبده بعض عرب الجاهليّة وأنّه أهلك عاداً الأولى الموغلة في القدم، وثمود فما أبقى منهم أحداً. وقوم نوحٍ أهلكهم الله تعالى من قبل. إنّهم كانوا هم أظلم الأمم وأطغاهم. وقرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتي رفعها جبريل عليه

السّلام بِجَناحه وأسقطها مقلوبةً بأمره عزّ وجلّ. فغطّى تلك القرى ما غطّاها من حجارةٍ متتابعةٍ موسومٍ على كلّ حجر سمة صاحبه.

فبأيّ نعمةٍ من نعم ربّك أيّها الإنسان أنت تُنْكِر وتَجْحَد. ويكون الحديث في نهاية السّورة الكريمة عن محمّد ﷺ النّذير كالرّسل السّابقين، وعن القيامة القريبة القيام والّتي لايُظْهِرُها لوقتها إلّا الله تعالى، وعن الكافرين الّذين يعجبون من نزول القرآن الكريم على محمّدٍ ﷺ، ويضحكون استهزاءً، ولايبكون اعتباراً، وهم غافلون يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً. إنّ عليهم أن يسجدوا لله تعالى في الصّلاة وفي غير الصّلاة، وأن يفردوا الله تعالى بالعبادة. إنّ كلّ هذه المعاني الخيّرة تتحقّق حينما يعتنق القوم دين الإسلام، ويتّبعونه ﷺ خير الأنام، ويعملون بهدي القرآن الكريم أحسن الكلام، الّذي تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ، خير من عبد ربّه جلّ وعلا وقام، وصلّى وصام.

وهكذا تتبيّن وحدة السّورة الكريمة عضويّا، وخدمة قضاياها لموضوعها الرّئيس، وهو العمل ليوم القيامة، وذلك بعبادة الله تعالى وحده لاشريك بمفهوم العبادة الواسع في الإسلام، بأن يراد وجه الله تعالى وحده دون سواه بكلّ الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام.

وربّما كان مفيداً أن نقرّر أنّ الشّرطين اللّذين ينبغي توافرهما في العمل الّذي يتفضّل الله تعالى بقبوله هما تطبيقٌ لمعنى الشّهادتين، الرّكن الأوّل من أركان الإسلام. إنّ شهادة ألّا إله إلّا الله مستمدٌ منها شرط الإخلاص لله تعالى، ويكون ذلك أساساً باتّباع هدي القرآن الكريم. وإن شهادة أنّ محمّداً رسول الله مستمدٌّ منها شرط الصّواب، ويكون ذلك باتّباع سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

رابعاً: سورة القمر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ
مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم
مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ
يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ
كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨
۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي
مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا
فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي
بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧ كَذَّبَتۡ عَادٞ
فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ
۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٢٢ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا
مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ۝٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ

لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ
فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ
ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾
وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ
أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ
جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ
﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ
ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ
بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي
ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ
صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾

بين يدي التّفسير

((أصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن آيات الله تعالى الكونيّة والبيانيّة، ويوم القيامة يكون حسابهم وعقابهم))

الآيات (١-٨)

اقتربت السّاعة ودنت القيامة وانشقّ القمر وانفلق فلقتين معجزةً لمحمّد بن عبدالله ﷺ ودليلاً على أنّه رسول ربّ العالمين. لقد أعرض كفّار مكّة عن هذه الآية، وإن يروا كلّ آيةٍ يعرضوا عنها ويقولوا هذا سحرٌ مستمرٌّ وموصول يشمل الكون كما يشمل البشر. وأصرّ القوم على التّكذيب، واتّبعوا أهواءهم وأنفسهم الأمّارة بالسّوء، وكلّ أمرٍ مستقرٌّ بصاحبه في الجنّة في حال الصّلاح، أو في النّار إن كان الأمر غير ذلك. ولقد جاء كفّارَ مكّة من أنباء المكذّبين السّابقين مافيه زجرٌ لهم عن طريق الضّلال. ومن هذه الأنباء ما جاء بعد ذلك في السّورة الكريمة. هذا القرآن الكريم حكمةٌ بالغةٌ فما تغني النّذر فيه أولئك المشركين. فتولّ عنهم يامحمّد وأعرض حتّى يأتيك فيهم حكم الله تعالى، وأنذرهم يوم يدعو الدّاعي، وهو إسرافيل عليه السّلام، إلى شيءٍ منكرٍ فظيع. خاشعةً أبصارهم من الذّلّ، يخرجون من القبور كأنّهم جرادٌ منتشر. مسرعين إلى الدّاعي وهو إسرافيل عليه السّلام، يقول الكافرون المنكرون للبعث. هذا يومٌ عسيرٌ وموقفٌ صعب.

وتحقيقاً لوصول الأنباء المشركين كي يكفّوا عن غيّهم، وينتهوا عن صدّهم عن سبيل الله تعالى، يجيء الحديث عن إهلاك الله تعالى مجموعةً من المكذّبين مرتَّبِين تأريخيّاً.

(٢)

((أصرّ قوم نوحٍ عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم فأهلكهم الله تعالى بالطّوفان))
الآيات (٩-١٧)

أولى الجماعات الّتي أشارت السّورة الكريمة إلى إهلاك الله تعالى لها قوم نوحٍ عليه السّلام،وهم أولى الجماعات الّتي أهلكها الله تعالى على الإطلاق. كذّبت قبل كفّار مكّة قومُ نوحٍ عليه السّلام أوّل رسولٍ أرسله الله تعالى إلى النّاس. لقد كذّبوا عبدالله تعالى نوحاً عليه السّلام، وقالوا هو مجنون وزجروه وانتهروه. فدعا نوحٌ عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ وقال ياربّي إنّي قد غلبني قومي وقهروني فانتصر منهم لدينك الّذي أرسلتني به. ففتحنا أبواب السّماء بماءٍ ينصبّ انصبابا، وفجّرنا الأرض عيون ماء، فالتقى ماء السّماء وماء الأرض على أمرٍ قَدَّرَهُ الله تعالى وقضاه وهو إغراق القوم الكافرين وإهلاكهم بالطّوفان. وحملنا نوحاً والمؤمنين على سفينةٍ ذات ألواحٍ من خشب ومساميرَ من حديد. والسّفينة تجري في موجٍ كالجبال برعايتنا وحفظنا، وأغرقنا من كان خارج السّفينة انتصاراً منّا لنوحٍ عليه السّلام الّذي كفره قومه وكذّبوه. ولقد تركنا معجزة حمل النّاس فوق الماء آيةً دالّةً على عظيم قدرتنا. فهل من متذكّر ومتّعظ. فكيف كان عذابي للقوم الكافرين وإنذاري لهم. لقد كان العذاب شديداً والإنذار متحقّقا. ولقد سهّلنا القرآن الكريم لفظاً ومعنى كي يتذكّر من أراد التّذكّر، ويتّعظ من أراد الاتّعاظ، فهل من متذكّرٍ ومتّعظ!

(٣)

((أصرّت عادٌ على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله تعالى بالرّيح الصّرصر))

الآيات(١٨-٢٢)

كذّبت عادٌ في جنوب الجزيرة العربيّة هوداً عليه السّلام. فكيف كان عذاب الله تعالى وإنذاره. لقد كان العذاب شديداً والإنذار متحقّقا. إنّا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرودة والصّوت في يوم شؤمٍ عليهم مستمرٍّ شؤمه ودماره. وقد استمرّت سبع ليالٍ وثمانية أيّام حتّى أبيدوا عن آخرهم. لقد كانت الرّيح تقلع النّاس وتحلّق بهم عالياً ثمّ تهوى بهم على أمّ رءوسهم الّتي تتهشّم وتفارق أجسادهم، فكأنّ النّاس الّتي تلك هي حالهم أصول نخل اقتلع من جذوره. فكيف كان عذابي وإنذاري. لقد كان العذاب شديداً والإنذار متحقّقا. ولقد سهّلنا القرآن الكريم لفظاً ومعنى لمن أراد أن يتذكّر ويتّعظ. فهل من متذكّر ومتّعظ. ويلاحظ في هذا القسم تكرار القول:﴿ فكيف كان عذابي ونذر﴾ وذلك في الآيتين الكريمتين الثّامنة عشرة والحادية والعشرين. علماً بأنّ هذا القول جاء أربع مرّاتٍ في السّورة الكريمة. وهو قولٌ تتألّف منه الآيات الكريمات السّادسة عشرة، والحادية والعشرون، والثّلاثون. وهو جزءٌ من الآية الكريمة الثّامنة عشرة. وقد تكرّر في حقّ قوم لوطٍ عليه السّلام القول:﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّلاثين، وهذا القول جزءٌ من الآية الكريمة، والتّاسعة والثّلاثين، وهذا القول تتألّف منه الآية الكريمة. وهكذا تأتي لفظة:"نذر" منكّرة فاصلةً ستّ مرّات في السّورة الكريمة. كما أنّها أتت معرّفةً فاصلةً خمس مرّات. وهكذا تأتي لفظة النّذر فاصلةً منكّرة ومعرَّفة إحدى عشرة مرّة. وذلك دليلٌ على صفة الإنذار الّتي تصبغ السّورة الكريمة بلونها.

(٤)

((أصرّت ثمود على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله تعالى بالصَّيْحَةِ الواحدة))

الآيات (٢٣-٣٢)

كذّبت ثمود في شمال الجزيرة العربيّة صالحاً عليه السّلام. وفي تكذيبهم صالحاً عليه السّلام. تكذيبٌ لكلّ الرّسل، لأنّ رسالتهم واحدة، بشارةً ونِذارة. فقالت ثمود: أبشراً واحداً منّا نتّبعه ونحن أولو الرّأي السّديد، والبطش الشّديد، والعُدَد والعديد! إنّا لو فعلنا ذلك لفي ضلالٍ بعيد، وجنونٍ أكيد! أَأُلْقِيَ الوحي عليه من بيننا ! بل هو شخصٌ شديد الكذب كثير البطر! ستعلم ثمود مستقبلاً مَنِ الشّديد الكذب الكثير البطر. إنّ هذه هي صفاتهم على الحقيقة. إنّا مرسلو النّاقة ومخرجوها من الصّخرة الصّمّاء الّتي عيّنوها معجزةً لك أيّها الرّسول الكريم فتبصّر ماهم صانعون بالنّاقة، وتمهّل ولا تعجل عليهم. ونبّئهم ياصالح أنّ الماء مقسومٌ بينهم وبين النّاقة. كلّ نصيبٍ من الماء له صاحبه الّذي يَحْضُرُ في يومه الخاصّ به. يومٌ للقوم ويومٌ للنّاقة. فنادوا صاحبهم الثّموديّ وأشقاهم فتناول النّاقة بيده وعقرها بسلاحه. فكيف كان عذابي وإنذاري. لقد كان عذابي شديداً وإنذاري متحقّقا. إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً لم تتكرّر وصاعقةً واحدةً فكانوا كيابس الورق والشّوك المتساقط من الحظيرة الّتي يحيط الرّاعي بها ماشيته، والسّياج من أغصان الشّجر والشّوك الّذي يحمي الرّاعي به ماشيته من الذّئاب والسّباع. ولقد سهّلنا القرآن الكريم لفظاً ومعنىً لمن أراد أن يتذكّر ويتّعظ، فهل من متذكّرٍ ومتّعظ.

وكما جاء معرفةً ونكرةً لفظ:"النذر" و"نذر" والقول: ﴿كذابٌ أشر﴾ و:﴿الكذّاب الأشر﴾ جاء للمرّة الثّالثة في السّورة الكريمة القول:﴿ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر﴾

(٥)

((أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم وإتيان الذّكور فقلب الله تعالى قراهم رأساً على عقب))

الآيات (٣٣-٤٠)

كذّبت قوم لوطٍ عليه السّلام بإنذاره عليه الصّلاة والسّلام لهم من الكفر والتكذيب ومن إتيان الذّكور. وفي تكذيبهم لوطاً عليه السّلام تكذيب لكلّ المرسلين. إنّ الله تعالى أرسل عليهم حجارةً متتابعةً من طينٍ مطبوخٍ مُدَوَّنٍ على كلّ حجرٍ سمة صاحبه. وقد نجّى الله تعالى لوطاً عليه السّلام وآله وقت السَّحَر وقبيل الفجر. نجّاهم الله تعالى نعمةً منه عليهم وفضلا.

وكما نجّى الله تعالى لوطاً وقومه كذلك ينجّي ويثيب من شكر له عزّ وجلّ نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة. ولقد أَنْذَرَ لوطٌ عليه السّلام قومه بطشة الله تعالى بالمكذّبين السّابقين فجادلوا بالباطل، وشكّوا في إنذاره لهم، وأصرّوا على تكذيبه عليه السّلام، وعلى ارتكاب فاحشة اللّواط. ولقد بذلوا غاية جهدهم في محاولة صرفه عن منعه لهم من فعل الفاحشة بضيفه الشّبّان الحسان. لقد كان الشّبّان على الحقيقة ملائكةً مبعوثين بعذاب القوم من الرّحمن. وحينما أعلن لوطٌ عليه السّلام عن عجزه أمام قومه الّذين استزلّهم الشّيطان الرّجيم كشف الملائكة الكرام له عليه السّلام عن حقيقتهم. واستأذن أحد هؤلاء الملائكة الكرام، وهو جبريل عليه السّلام، ربّه عزّوجلّ، أن يأذن له بأن يطمس أعين القوم ويمحوها بالكلّيّة فأذن له فطمس أعينهم وقيل لهم ذوقوا عذاب الله تعالى الشّديد وإنذاره الأكيد. ولقد حلّ بالقوم في الصّباح الباكر العذاب المستمرّ في هيئة رفع جبريل عليه السّلام قرى القوم إلى عَنان السّماء وإلقائها مقلوبةً رأساً على عقب. وقيل لهم ذوقوا عذاب الله تعالى الشّديد، وإنذاره الأكيد. ولقد يسّر الله تعالى القرآن الكريم لفظاً ومعنىً للتّذكرّ والاتّعاظ، فهل من متذكّر ومتّعظ. وقد ختم الحديث عن قوم لوطٍ عليه السّلام

بالآية الكريمة الّتي ختم بها الحديث عن قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ عليهم الصّلاة والسّلام. قال عزّ من قائل:﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر﴾

(٦)

((أصرّ فرعون وآلُهُ على تكذيب موسى عليه السّلام فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر))

الآيتان (٤١و٤٢)

ولقد وصل فعلاً إنذارُ الله تعالى فرعون وآله عن طريق موسى وأخيه هارون عليهما الصّلاة والسّلام. لقد كذّبوا بكلّ الآيات التّسع الّتي أيّد الله تعالى بها موسى عليه السّلام، فأخذهم الله تعالى العزيز المنتقم، المقتدر الّذي لايعجزه شيء، بالعذاب الأليم. لقد أغرقهم الله تعالى أجمعين في البحر الأحمر الّذي كان يُدْعَى قديماً بحر القُلْزُم.

(٧)

((للمجرمين عذابُ الأولى والآخرة، وللمتّقين ثوابُ الأولى والآخرة))

الآيات (٤٣-٥٥)

أكفّاركم يا أهل مكّة خيرٌ من أولئكم الكافرين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى؟ لا. أم لكم براءةٌ من العذاب في الكتب السّماويّة المُوحَى بها من ربّ العالمين؟ لا. أم يقولون نحن جمعٌ منتصرٌ على من يدعونا إلى نبذ عبادة الأصنام وإلى توحيد الله تعالى! سيُهْزم الجمع ويولّون الأدبار في ميدان القتال. وقد تمّ ذلك في غزوة بدر. بل السّاعة موعدهم للعذاب. والسّاعة أدهى وأشدّ مرارةً من يوم بدرٍ ومن عذاب الدّنيا.

إنّ المشركين في انحرافٍ عن سواء السّبيل، ونيران الشّكوك والاضطرابات. يوم يُسْحبون في نار جهنّم على وجوههم يقال لهم على سبيل التّبكيت: ذوقوا نار جهنّم الّتي تلوّح البشرة وتنزع جلدة الرّأس.

إنّا كلّ شيءٍ خلقناه بمقدار. وما أمرنا إلّا مَرّةً واحِدَةً فإذا الّذي قلنا له كن يكون في لمح البصر وإبصار العين.

ولقد أهلكنا أشباهكم في الكفر يا أهل مكّة فهل من مدّكر ومتّعظ. وبذلك يجيء القول:﴿فهل من مدّكر﴾ المرّة السّادسة والأخيرة في السّورة الكريمة، وذلك في الآية الكريمة الحادية والخمسين. قال تعالى:﴿ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر﴾

وكلّ شيءٍ فعله النّاس مكتوبٌ في كتب الأعمال. وكلّ صغيرٍ من القول والفعل مدوّنٌ في الكتب الّتي تحملها الملائكة الكرام.

إنّ المتّقين في جنّات النّعيم، وفي أنواع الأنهار المتدفّقة. في مجلس صدقٍ لالغو فيه ولا إثم، عند مالك الملك، المقتدر الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

التّفسير

(١)

((أصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن آيات الله تعالى الكونيّة والبيانيّة، ويوم القيامة يكون حسابهم وعقابهم))

الآيات(١-٨)

﴿ اقتربت السَّاعةُ وانشَقَّ القَمَرُ﴾

اقتربت السّاعة: دنت السّاعة الّتي تقوم فيها القيامة[١]

وانشقّ القمر: وانفلق القمر. وكان ذلك، فيما ذُكِر، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكّة قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أنّ كفّار أهل مكّة سألوه آيةً فأراهم ﷺ انشقاق القمر آيةً، حجّةً على صدق قوله وحقيقة نبوّته[٢].

عن أنسٍ ﷺ قال: سَأَلَ أهل مكّة أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر[٣] وعن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قال: انْشَقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فِرْقتين، فرقةٌ فوق الجبل، وفرقةٌ دونه. فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا[٤] اشهدوا [٥]وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: انشقّ القمر في زمان النّبيّ ﷺ[٦] وتقول بعض الرّوايات إنّ النّبيّ ﷺكان بِمِنى [٧] وإنّ النّبيّ ﷺ أراهم القمر شقّين حتّى رَأَوْا حِراءَ بينهما [٨].

اقتربت السَّاعة الّتي تقوم فيها القيامة ودنت، وانشقّ القمر فلقتين، معجزةً للمصطفى ﷺ، ودليلاً على صدقه ﷺ في القول: إنّه رسول ربّ العالمين.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٥٠.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٥٠.

[٣] فتح الباري ٨/٦١٧ حديث رقم ٤٨٦٧ وانظر حديث رقم ٤٨٦٨.

[٤] فتح الباري ٨/٦١٧ حديث رقم ٤٨٦٤.

[٥] فتح الباري ٨/٦١٧ حديث رقم ٤٨٦٥.

[٦] فتح الباري ٨/٦١٧ حديث رقم ٤٨٦٦.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٥٠ وفتح الباري ٧/١٨٢ حديث رقم ٣٨٦٩.

[٨] تفسير الطّبري ٢٧/٥٠ وفتح الباري ٧/١٨٢ حديث رقم ٣٨٦٨.

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحرٌ مُّسْتَمِرٌ ﴾

سحرٌ مستمرّ: دائم مطّرد [1]

وإن ير كفّار مكّة آيةً دالّةً على صدق المصطفى ﷺ كانشقاق القمر يعرضوا عنه ﷺ ويصرّوا على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى ويقولوا هو سحرٌ دائمٌ ومطّرد، فكما سحر محمّدٌ البشر سحر القمر ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾ [2].

﴿ وَكَذّبُوا وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾

وكلّ أمرٍ مستقرّ: وكلّ أمرٍ من خيرٍ أو شرّ مستقرٌّ قراره ومتناهٍ نهايته. فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنّة، والشّرّ مستقرٌّ بأهله في النّار [3].

وأصرّ كفّار مكّة على تكذيبهم محمّداً ﷺ، واتّبعوا أهواءهم، وانقادوا لشهواتهم، وأعرضوا عن الحقّ، واعتنقوا الباطل. وكلّ أمرٍ من خيرٍ أو شرٍ مستقرٌّ بأهله. فالخير مستقرٌّ بأهله في جنّات النّعيم. والشّرّ مستقرٌّ بأهله في نار الجحيم. إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يأخذوا حذرهم ويهتبلوا الفرصة قبل فوات الأوان، وذلك باعتناق دين الإسلام، واتّباعه ﷺ خير الأنام.

---

[1] الكشّاف ١٨٢/٣ والبحر المحيط ١٧٣/٨.

[2] سورة الكهف ٥.

[3] تفسير الطّبري ٥٢/٢٧.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

مافيه مزدجر: مافيه لهم مزدجر. يعني مايردعهم ويزجرهم عمّا هم عليه مقيمون من التّكذيب بآيات الله[١] ومزدجر مصدر الخماسي ازدجر، وفيه إبدال تاء الافتعال دالاً بدءاً من الفعل[٢].

حكمةٌ بالغة: حكمةٌ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو يعود على ما[٣] ويعني بالحكمة البالغة هذا القرآن[٤].

فما تغني النّذر: ما نافية[٥] أي فما تنفعهم[٦] والنّذر جمع نذير[٧].

ولقد جاء المشركين في هذا القرآن الكريم من الأخبار المهمّة للسّابقين المفيدة مافيه زجرٌ للمشركين عن اقتفاء آثار المكذّبين السّابقين، واعتبارٌ بما حلّ بهم من هلاك بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى إليهم. هذا القرآن الكريم حكمةٌ بالغةٌ وحجّةٌ دامغة، فما تنفع النّذر فيه أولئك المشركين، ولا تنفع المواعظ فيه أولئك الصّادّين عن سبيل الله تعالى.

---

[١] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٢] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٠/١٢.

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٠/١٢ وانظر تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠١/١٢.

[٦] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٧] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

فتولّ عنه: فأعرض يامحمّد عن هؤلاء المشركين من قومك الّذين إن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمّر[١]

يوم: ظرف منصوب متعلّق بـ:﴿يخرجون﴾[٢]

نكر: صفة مشبّهة بمعنى المنكر أو الأمر الشّديد[٣] **أي إلى شيءٍ منكرٍ فظيع، وهو موقف الحساب**[٤].

خشّعاً: جمع خاشع، اسم فاعل من الثّلاثي خشع[٥] **حال منصوبة من فاعل يخرجون**[٦] **أي ذليلةً أبصارهم**[٧]

من الأجداث: جمع جدث بفتحتين بمعنى القبر[٨]

مهطعين: مسرعين[٩] **مادّين أعناقهم**[١٠]

---

[١] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٢] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠١/١٢.

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٢/١٢.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٥١/٧.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠١/١٢.

[٦] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠١/١٢.

[٧] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٨] تفسير الطّبري ٥٣/٢٧.

[٩] تفسير ابن كثير ٤٥١/٧.

[١٠] الجلالين.

هذا يومٌ عسر: عسر صفة مشبّهة من الثّلاثي عسر باب فَرِح وباب كَرُم[1] أي صعب[2] وإنّما وصفوه بالعسر لشدّة أهواله[3]

فأعرض يامحمّد عمّن أعرض عن ذكرنا، وأنذرهم يوم يدعو الدّاعي إسرافيل عليه السّلام، إلى أمرٍ منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وينفخ في الصّور النفخة الثّانية الّتي تحيي الخلائق بإرادة الله تعالى. يومها يخرجون من القبور ذليلةً أبصارهم، كأنّهم لِهَوْل الموقف جرادٌ منتشر، مسرعين إلى الدّاعي إسرافيل عليه السّلام لفصل الحساب. يقول الكافرون هذا يومٌ عسير، وموقفٌ صعب.

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٢/١٢.

[2] الجلالين.

[3] تفسير الطّبري ٥٤/٢٧.

(٢)

((أصرّ قوم نوحٍ عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم فأهلكهم الله تعالى بالطّوفان))

الآيات (٩-١٧)

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾

وقالوا مجنون: وقالوا هو مجنون[١]

وازدجر: زجروه وانتهروه بالسَّبِّ والشّتم[٢] وفيه إبدال التّاء الّتي هي تاء الافتعال إلى دال لمجيئها بعد الزّاي، أصلها ازتجر. ووزن ازدجر افتعل[٣]

فانتصر: منهم بعقابٍ من عندك على كفرهم بك[٤]

منهمر: منصبّ انصباباً شديدا[٥]

عيونا: تمييز محوّل عن مفعولٍ به[٦]

فالتقى الماء: فالتقى ماء السّماء وماء الأرض[٧]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٥٤.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٥٤ وتفسير ابن كثير ٧/٤٥١ والجلالين.

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٠٥.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٥٤.

[٥] الجلالين.

[٦] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٠٣.

[٧] تفسير الّطبري ٢٧/٥٥.

على أمرٍ قد قدر: على أمرٍ قد قدّره الله وقضاه[١]

ودسر: ومسامير تشدّ بها السّفينة[٢] والمفرد دسار ككتاب[٣]

تجري بأعيننا: تجري السّفينة الّتي حملنا نوحاً فيها بمرأىً منّا ومنظر[٤] وتحت حفظنا وكلاءتنا[٥]

جزاءً: مفعول لأجله والعامل محذوف[٦] تقديره أُغْرِقوا[٧]

لمن كان كفر: وهو نوحٌ عليه السّلام [٨]

فهل من مدّكر فهل من ذي تذكّر يتذكّر ما قد فعلنا بهذه الأمّة الّتي كفرت بربّها وعصت رسوله نوحاً وكذّبته فيما أتاهم به عن ربّهم من النّصيحة فيعتبر بهم[٩] ومدّكر اسم فاعل من الخماسي ادّكر[١٠] وقد حصل فيه إبدالان. الأوّل إبدال التّاء دالاً، أصله مذتكر، قلبت تاء الافتعال دالاً بعد الذّال، ثمّ قلبت الذّال دالاً لاقتراب المخرجين. ثمّ أدغمت الدّالان

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٥٥.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٥٥.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٥٦.

[٥] تفسير ابن كثير ٧/٤٥٢.

[٦] الجدول في إعراب القرآن وصرفه١٢/٢٠٤.

[٧] الجلالين.

[٨] الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٠٤ ومعاني القرآن للفرّاء٣/١٠٧.

[٩] تفسير الطّبري ٢٧/٥٦.

[١٠] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٠٥.

فأصبح مدّكر[1] عن عبدالله بن مسعود قال: قرأت على النّبيّ ﷺ: ﴿فهل من مذّكر﴾ فقال النّبيّ ﷺ:﴿فهل من مدّكر﴾ [2] .

فكيف كان عذابي ونذر: وإنذاري [3]

ولقد يسّرنا القرآن للذّكر: أي سهّلنا لفظه، ويسّرنا معناه لمن أراده، ليتذكّر النّاس[4] ويعتبروا ويتّعظوا[5]

كذّبت قبل كفّار مكّة المكذّبين قَوْمُ نوحٍ عليه السّلام، أوّل رسولٍ أرسله الله تعالى إلى البشر، فكذّبوا عبدالله تعالى نوحاً عليه السّلام، وقالوا هو مجنون، وزجروه وانتهروه وشتموه. فدعا نوحٌ عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ بأنّه عليه السّلام قد غلبه قومه وقهروه، ودعا ربّه عزّ وجلّ أن ينتصر منهم لدين الإسلام الّذي أرسله الله تعالى به وعقيدة التّوحيد الّتي رفضوها واستهزأوا بها.

استجاب الله تعالى دعاء نوحٍ عليه السّلام ففتح أبواب السّماء بماءٍ ينصبّ انصباباً شديدا، وفجّر الأرض عيوناً، بما في ذلك المواضع الّتي لايتوقّع انفجار الماء منها، فالتقى ماء السّماء وماء الأرض على أمرٍ قد قدّره الله تعالى وقضاه بأن يغرق كلّ القوم الّذين كانوا خارج سفينة نوحٍ عليه السّلام. وحَمَلَ الله تعالى نوحاً عليه السّلام والّذين آمنوا معه على سفينةٍ ذات ألواحٍ خشبيّة ومسامير. وهي تجري في موجٍ كالجبال برعاية الله تعالى وعنايته، بحفظ الله تعالى وكلاءته، وأغرق الله تعالى الكافرين، عقاباً لهم، وانتصاراً لنوحٍ عليه السّلام الّذي كفروه، وجحدوا رسالته، وسخروا منه، واستهزءوا به.

ولقد ترك الله تعالى نعمة حمل نوحٍ عليه السّلام والمؤمنين به على تلك السّفينة آيةً دالّةً على قدرة الله تعالى الّتي لايعجزها شيء لكلّ من ركب الماء وامتطى ظهر سفينة.

---

[1] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٨٢/٦ في تفسير الآية الكريمة ٤٥ من سورة يوسف عليه السّلام.

[2] فتح الباري ٦١٨/٨ حديث رقم ٤٨٧٤ وانظر تفسير الطّبري ٥٦/٢٧.

[3] تفسير الطّبري ٥٧/٢٧ والجلالين.

[4] تفسير ابن كثير ٤٥٣/٧.

[5] تفسير الطّبري ٥٧/٢٧.

فهل من متذكّرٍ ومتدبّر ومتّعظ، أم أنّ على قلوب القوم أقفالها. فكيف كان عذاب الله تعالى الّذي تحقّق في الدّنيا قبل الآخرة، وكيف كان إنذاره جلّ وعلا الشّديد الأكيد.

لقد غرق كلّ الكافرين ومضوا كأمس الدّابر ومابكت عليهم السّماء والأرض وماكانوا منظرين لتوبةٍ ولا مَعِْذرة.

ولقد يسّر الله تعالى ألفاظ القرآن الكريم وقرّب معانيه لمن أرادها كي يتذكّر النّاس ويعتبروا ويتّعظوا، فهل من متذكّر ومعتبر ومتّعظ، أمّ أنّ على قلوب القوم أقفالها؟ إنّ على قلوب القوم أقفالها ومن ثمّ استمرّت السّورة في ذكر الأنباء الزّاجرة للأمم الغابرة.

ولايخفى مايهدف إليه هذا القصص من تسلية للنّبيّ ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام.

(٣)

((أصرّت عادٌ على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله تعالى بالرّيح الصّرصر))

الآيات(١٨-٢٢)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

ريحاً صرصرا: شديدة البَرْد[١] شديدة الصّوت[٢]

في يوم نحس: في يوم شؤمٍ[٣] عليهم[٤]

مستمرّ: عليهم نحسه ودماره، لأنّه يومٌ اتّصل فيه عذابهم الدّنيويّ بالأخروي[٥]

تنزع النّاس كأنّهم أعجاز نخلٍ منقعر: تقتلع النّاس ثمّ ترمى بهم على رءوسهم فتندقّ رقابهم وتبين من أجسامهم[٦] والأعجاز: الأصول[٧] جمع عَجُز اسمٌ لمؤخّر كلّ شيء[٨] وقعر الشّيء نهاية أسفله[٩] ويقال: انقعرت الشّجرة إذا انقلعت من قعرها، وإذا ذهبت في قعر الأرض. وإنّما أراد تعالى أنّ هؤلاء اجتثّوا كما اجتثّ النّخل الذّاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسمٌ ولا أثر[١٠].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٥٨/٢٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧.

(٦) تفسير الطّبري ٥٨/٢٧.

(٧) الجلالين.

(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٧/١٢.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قعر" ٥٢٩/٢.

(١٠) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قعر" ٥٢٩/٢.

كذّبت عادٌ في جنوب الجزيرة العربيّة هوداً عليه السّلام فكيف كان عذابي لهم وإنذاري إيّاهم. لقد كان العذاب شديداً والإنذار متحقّقا. إنّا أرسلنا عليهم ريحاً ملتئمةً موصولةً غايةً في شدّة البَرْد والصّوت، في يوم شؤمٍ عليهم مستمرٍّ عذابه. لقد استمرّت تلك الرّيح سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ قضت في أثنائها على عادٍ عن بكرة أبيها واستأصلت شأفتها. لقد كانت الرّيح تقتلع النّاس الّذين كانوا حريصين على التّشبّث بالأرض، فتطوّح بهم في الهواء عالياً، وتقذف بهم إلى الأرض على رءوسهم الّتي تتهشّم، فكأنّهم أصول نخلٍ اقتلع من أعماق الأرض من جذوره. لقد أشبهت رءوسُ البشر المنفوشة الشّعر المتعفّرة، المتمرّغة في التّراب جذورَ الشّجر الّتي تمّ اقتلاعها من أعماق الأرض. وأشبهت أجسادُ الهلكى من عادٍ جذوع النّخل[1].

فكيف كان عذاب الله تعالى وإنذاره. ويلاحظ تكرار القول:﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ والمقصود تكرار تهديد كفّار مكّة من ناحية وتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ من ناحيةٍ أخرى. ولقد يسّر الله تعالى القرآن للتّذكّر والاعتبار فهل من معتبر. ويلاحظ انتهاء القسم بما انتهى به القسم السّابق.

وفي تكذيب عادٍ هوداً عليه السّلام تكذيبٌ لكلّ المرسلين المبشّرين والمنذرين، لأنّ رسالة جميعهم واحدة. جاء في سورة الشّعراء [2] قول الحقّ جلّ وعلا:﴿كذّبت عادٌ المرسلين﴾ وجاء في سورة الأحقاف[3] قول الحقّ جلّ وعلا:﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النّذر من بين يديه ومن خلفه ألاّ تعبدوا إلّا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم﴾

---

[1] الجذوع مفرده الجذع بكسر الجيم وهو ساق النّخلة.

[2] الآية ١٢٣.

[3] الآية ٢١.

(٤)

((أصرّت ثمود على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله تعالى بالصَّيْحَةٍ الواحدة))

الآيات (٢٣-٣٢)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

كذّبت ثمود بالنّذر: كذّبت ثمود قوم صالحٍ بنذر الله الّتي أتتهم من عنده[١]

لفي ضلال: لفي ذهابٍ عن الصّواب وأخذٍ على غير استقامة[٢]

وسعر: جنون بضمّ العين وسكونها[٣] وقيل: عناء وعذاب ممّا يلزمنا[٤]

أشر: متكبّر بطر[٥] شديد البطر بباعث الهوى[٦]

فارتقبهم: فانتظرهم وتبصّر ماهم صانعوه بها[٧]

---

[١] تفسير الطّبري ٥٩/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري٥٩/٢٧.

[٣] لسان العرب:"سعر" والجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٠٨/١٢.

[٤] تفسير الطّبري ٥٩/٢٧ ولسان العرب:"سعر"

[٥] الجلالين.

[٦] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"أشر" ٢٢/١.

[٧] تفسير الطّبري ٦٠/٢٧.

واصطبر: واصطبر على ارتقابهم ولاتعجل[١] وأصل الطّاء تاء، فجعلت طاء، وإنّما هو افتعل من الصّبر[٢]

قسمةٌ بينهم: مقسومٌ بينهم وبين النّاقة فيومٌ لهم ويومٌ لها[٣]

كلّ شِرْب: كلّ نصيبٍ من الماء[٤]

محتضر: يحضره أصحابه[٥] يحضره القوم يومهم والنّاقة يومها[٦]

فتعاطى: فتناول النّاقة بيده[٧]

فكانوا كهشيم المحتظر: الهشيم يابس الشّجر والشّوك [٨]

والمحتظر: الرّاعي للغنم[٩] الّذي يعمل الحظيرة[١٠] يحفظهنّ فيها من الذّئاب والسّباع. وماسقط من ذلك فداسته هو الهشيم[١١]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٦٠.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٦٠.

[٣] الجلالين.

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"شرب" ١/٣٣٩ والجلالين.

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حضر" ١/١٦١.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٦٠.

[٨] تفسير الطّبري ٢٧/٦٠و٦١ والجلالين.

[٩] تفسير الطّبري ٢٧/٦١.

[١٠] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حظر" ١/١٦٢.

[١١] الجلالين وتفسير الطّبري ٢٧/٦١.

كذّبت ثمود في شمال الجزيرة العربيّة صالحاً عليه السّلام. وفي تكذيب ثمود صالحاً، رسول الله تعالى إليها، تكذيبٌ لكلّ المرسلين الّذين أرسلهم الله تعالى كي ينذروا الكافرين، لأنّ رسالة جميع المرسلين واحدة، وفي تكذيب أحدهم تكذيبٌ للآخرين. لقد كذّبت ثمود كلّ نذر الله تعالى، وحينما أرسل الله تعالى إليهم صالحاً عليه الصّلاة والسّلام قالوا في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أشخصاً واحداً منّا نتّبعه نحن أصحاب الرّأي السّديد والبطش الأكيد! إنّا لو فعلنا ذلك لفي ذهابٍ عن الصّواب بعيد، وجنون أكيد. أَأُنْزِلَ الوحي على صالحٍ بالذّات من بيننا نحن عظماء القوم! بل هو على الحقيقة الشّديد الكذب والبطر. وعلى سبيل التّهديد لثمود الّذين اتّهموا رسول الله تعالى إليهم بشدّة الكذب على الله تعالى والتّعالي على عباد الله تعالى يقول الحقّ جلّ وعلا بأنّهم سيعلمون مستقبلاً الّذي يتّصف بهذه الصّفات السّيّئة من كذبٍ على الله تعالى، وتعالٍ على عباد الله تعالى. إنّهم هم الكذّابون الأَشِرون على الحقيقة.

إنّ الحقّ جلّ وعلا سوف يرسل النّاقة الّتي طلبت ثمود من صالحٍ عليه السّلام أن يخرجها لهم من صخرةٍ صمّاء عيّنوها دليلاً على أنّه رسول ربّ العالمين. لقد أخرج الحقّ جلّ وعلا النّاقة المطلوبة استجابةً لدعاء صالحٍ عليه السّلام واختباراً لثمود. وأمر الحقّ جلّ وعلا صالحاً عليه السّلام أن يرقب عمل ثمود بالنّاقة وأن يصبر ويتمهّل ولايعجل عليهم. وأمر الحقّ جلّ وعلا صالحاً عليه السّلام أن ينبّئ قومه أنّ الماء مقسومٌ بينهم وبين النّاقة، يومٌ لهم ويومٌ للنّاقة، وأنّ كلّ نصيب من الماء يحضره صاحبه في اليوم المخصّص له. لقد نادى القوم صاحبهم الثّموديّ وأشقاهم فتناول النّاقة بيده وعقرها برضاً من القوم وعلى مرأًى منهم ومسمع. فكيف كان عذاب الله تعالى وإنذاره لثمود! إنّ الحقّ جلّ وعلا أرسل عليهم صيحةً واحدةً لم تتكرّر فكانوا كيابس ورق الشّجر والشّوك المتساقط من تلك الحظيرة الّتي عملها راعي الغنم كي يحفظ فيها ماشيته من الذّئاب والسّباع. لقد

ديس ذلك الهشيم المتساقط بالأقدام، وطوّحت به الرّياح في كلّ مكان، وغدا كأمس الدّابر.

ولقد يسّر الله تعالى القرآن الكريم لفظاً ومعنًى كي يتذكّر النّاس ويتّعظوا، فهل من متذكّر ومتّعظ من كفّار مكّة ومن شاكلهم. ويلاحظ أنّ الحديث عن ثمود يختم بالآية الكريمة الّتي ختم الحديث بها عن عاد. قال تعالى:﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر﴾ وكذلك جاء في حقّ ثمود الآية الكريمة الّتي جاءت في حقّ عاد:﴿ فكيف كان عذابي ونذر﴾

وبشأن الصّيحة الواحدة الّتي أهلك الله تعالى بها ثمود جاء قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الذّاريات [1] :﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين. فعتوا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيامٍ وماكانوا منتصرين ﴾

[1] الآيات ٤٣-٤٥.

(٥)

((أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم وإتيان الذّكور فقلب الله تعالى قراهم رأساً على عَقِب))

الآيات (٣٣-٤٠)

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٤٠﴾

كذّبت قوم لوطٍ بالنّذر: كذّبت قوم لوطٍ بآيات الله الّتي أنذرهم وذكّرهم بها[1]

إنّا أرسلنا عليهم حاصبا: أمطر الله عليهم حجارةً من سجّيل منضود. والعرب تسمّى الرّيح العاصف الّتي فيها الحصى الصّغار أو الثّلج أو البرد والجليد حاصبا[2]

بسحر: السَّحَر اختلاط ظلام آخر اللّيل بضياء النّهار. وجُعِل اسماً لذلك الوقت[3]

كذلك نجزي من شكر: كما أثَبْنا لوطاً وآله وأنعمنا عليه فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيّانا، كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا ونهينا من جميع خلقنا[4].

---

(١) تفسير الطّبري ٢٧/٦١.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٩٦.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني:"سحر" ١/٢٩٩.

(٤) تفسير الطّبري ٢٧/٦٢.

ولقد أنذرهم بطشتنا: البطش تناول الشّيء بِصَوْلة[١] ولقد أنذر لوطٌ قومه بَطْشَتَنا قبل ذلك[٢] وأَخْذَنا إيّاهم بالعذاب[٣]

فتماروا بالنّذر: فكذّبوا بإنذاره ماأنذرهم من ذلك شكّاً منهم فيه[٤]

ولقد راوده عن ضيفه: المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير مايريد أو ترود غير مايرود، وراودت فلاناً عن كذا: صرفته عن رأيه. والرَّود: التّردّد في طلب الشّيء برفق[٥] والعرب تسمّي الواحد والجمع ضيفاً بلفظٍ واحد، كما قالوا: رجلٌ عَدْل وقومٌ عدل[٦]

فطمسنا أعينهم: فطمسنا على أعينهم حتّى صيّرناها كسائر الوجه لايرى لها شقٌّ فلم يبصروا ضيفه[٧]

ولقد صبّحهم بكرةً عذابٌ مستقرّ: ذكر أنّ ذلك كان عند طلوع الفجر[٨] والبُكرة هي أوّل النّهار[٩] مستقرّ: دائمٌ متّصل بعذاب الآخرة[١٠]

كذّبت قوم لوطٍ عليه السّلام بإنذاره عليه الصّلاة والسّلام لها وأصرّت على كفرها وإتيانها فاحشة اللّواط. وفي تكذيب القوم لوطاً عليه السّلام تكذيبٌ لكلّ

---

[١] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"بطش" ٦٤/١.

[٢] تفسير الطّبري ٦٢/٢٧.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ٦٢/٢٧.

[٥] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"رود" ٣٧٢/١.

[٦] تفسير الطّبري ٥٢/١٢.

[٧] تفسير الطّبري ٦٢/٢٧.

[٨] تفسير الطّبري ٦٣/٢٧.

[٩] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"بكر" ٧٣/١.

[١٠] الجلالين.

المرسلين المبشّرين والمنذرين. إنّ الله تعالى أرسل عليها ريحاً عاصفاً[1] تحمل الحصباء، إلّا لوطاً عليه السّلام وآله، فقد نجّاهم الله تعالى بإخراجهم وقت السّحر وقبيل الفجر من القرية. أمّا امرأة لوطٍ عليه السّلام فقد كانت من المهلكين مع قومها. لقد نجّى الله تعالى آل لوطٍ عليه السّلام نعمةً منه جلّ وعلا وفضلاً على ذلك البيت الطّيّب المبارك. وكما جزى الله تعالى لوطاً وآله إحساناً بإحسان يجزي الله تعالى كلّ من شكر لله تعالى نعمه العظيمة عليه. ولقد أنذر لوطٌ عليه السّلام قومه بطشة الله تعالى بالمكذّبين السّابقين والّتي يصحّ أن تكون من نصيبهم إن لم يعودوا إلى سبيل الرّشاد، فشكّوا في إنذاره لهم، امتداداً لتكذيبهم إيّاه. ولقد راودوه عن ضيفه من الملائكة الكرام الّذين جاءوا في هيئة شبّانٍ حسان، واجتهدوا في حواره عليه الصّلاة والسّلام وإقناعه بألّا يقف في طريق حرصهم على أن يعلوا أولئك الضّيفان والشّباب الحسان.

لقد استنفد عليه الصّلاة والسّلام كلّ قواه في سبيل حمل قومه على تقوى الله تعالى والعدول عن حرصهم على أن يخزوه في ضيفه عليه السّلام. استأذن جبريل عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ أن يطمس أعينهم فأذن له فضرب أعينهم بجناحه فأعماهم أجمعين، وقيل لهم ذوقوا عذاب الله تعالى وإنذاره إيّاكم الّذي شككتم فيه.

ولقد صبّح القومَ عند طلوع الفجر عذابٌ أهلكهم واستقرّ بهم أخيراً في نار جهنّم. وقيل لهم ذوقوا عذاب الله تعالى وإنذاره إيّاكم الّذي شككتم فيه .

وبإذن الله تعالى تأخّر نزول العذاب إلى الفجر حتّى يتمكّن لوطٌ عليه السّلام وآله من مغادرة القرية. وبإذن الله تعالى حمل جبريل عليه السّلام قرى قوم لوطٍ عليه السّلام إلى عَنان [2]السّماء، وألقاها مقلوبةً رأساً على عقب.

ولقد يسّر الله تعالى القرآن الكريم وسهّله لفظاً ومعنًى، ليتذكّر النّاس ويتّعظوا، فهل من متذكّر وهل من متّعظ !

---

[1] عاصف صفة تطلق على المذكّر والمؤنّث. والرّيح مؤنثة.

[2] العنان: مثل السّحاب وزناً ومعنًى الواحدة عنانة بفتح العين.

(٦)

((أصرّ فرعون وآله على تكذيب موسى عليه السّلام فَأَخَذَهُمُ اللهُ تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر))

الآيتان (٤١و٤٢)

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

ولقد جاء فرعونَ وآلَه إنذارُنا على لسان كلٍّ من موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام. لقد كذّبوا بكلّ الآيات التّسع الّتي أيّدنا بها موسى عليه السّلام، والّتي تدلّ على أنّه لا إله إلّا الله، فأخذناهم بالعذاب الشّديد أخذ عزيزٍ منتقم، مقتدرٍ لايعجزه شيء. والآيات التّسع الّتي أيّد الله تعالى بها موسى عليه الصّلاة والسّلام جاء ذكرها على جهة التّفصيل في سورة الأعراف. وهذه الآيات التّسع هي العصا واليد والسّنون ونقصٌ من الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم. قال عزّ من قائل[1]:﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين﴾ وقال عزّ من قائل[2]:﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون﴾ وقال عزّ من قائل[3]:﴿ فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾

---

[1] سورة الأعراف ١٠٧ و١٠٨.

[2] سورة الأعراف ١٣٠.

[3] سورة الأعراف ١٣٣.

(٧)

((للمجرمين عذابُ الأولى والآخرة، وللمتّقين ثوابُ الأولى والآخرة))

الآيات (٤٣-٥٥)

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

أم لكم براءة: من عقاب الله معشر قريش أن يصيبكم بكفركم بما جاءكم به الوحي من الله[١]

في الزّبر: هي الكتب[٢]

جميع: جمع [٣]

بل السّاعة موعدهم: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنّهم لايُبْعَثُون بعد مماتهم، بل السّاعة موعدهم للبعث والعقاب[٤]

والسّاعة أدهى وأمرّ: عليهم من الهزيمة الّتي يهزمونها عند التقائهم مع المؤمنين ببدر [٥]

روى البخاريّ [٦] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال وهو في قبّةٍ يوم بدر: اللّهمّ إنّي أَنْشُدُك عهدك ووعدك، اللّهمّ إن تشأ لاتُعْبْد بعد اليوم. فأخذ

---

[١] تفسير الطّبري ٦٤/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري ٦٤/٢٧.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ٦٤/٢٧.

[٥] تفسير الطّبري ٦٤/٢٧.

[٦] صحيح البخاري ٦١٩/٨ حديث رقم ٤٨٧٥ و ٤٨٧٧.

أبوبكر بيده فقال: حَسْبُك يارسول الله، أَلْحَحْتَ على ربك، وهو [1] يثب في الدّرع، فخرج وهو يقول:﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدّبر. بل السّاعة موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ ﴾

وروى البخاريّ [2] أنّ عائشة، أمّ المؤمنين، ﵂ قالت: لقد أُنزل على محمّد ﷺ بمكّة، وإنّي لجاريةٌ ألعب:﴿بل السّاعة موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ﴾

أكفّاركم يا أهل مكّة خيرٌ عند الله تعالى وأفضل من أولئكم الّذين أهلكهم الله تعالى، قوم نوحٍ عليه السّلام وعاد وثمود وقوم لوطٍ عليه السّلام وفرعون وآله!

أم لكم براءةٌ من العذاب والعقاب في الكتب السّماويّة الموحَى بها من ربّ العالمين! ليس لكم هذا ولا ذاك.

أم يقول مشركو مكّة المكرّمة نحن جمعٌ منتصرٌ على خصمه الّذي يدعوه إلى دين الإسلام وعقيدة التّوحيد! سيُهْزم هذا الجمع في ميدان القتال ويولّون الدّبر فارّين يوم بدر.

أم يقول المشركون إنّهم لن يبعثوا. ليس الأمر كما يقولون بل السّاعة موعدهم، والسّاعة أدهى وأشدّ مرارةً من هزيمة يوم بدر. إنّ مأواهم النّار وبئس القرار. والعياذ بالله.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وسعر: واحتراق من شدّة العناء والنَّصَب في الباطل[3]

سقر: اسم عَلَم لجهنّم، من قولهم: سَقَرَتْه الشّمس أي لوّحته وأذابته[4]

---

[1] المراد رسول الله ﷺ.

[2] فتح الباري ٦١٩/٨ حديث رقم ٤٨٧٦.

[3] تفسير الطّبري ٦٤/٢٧.

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"سقر" ٣٠٩/١.

إنّ المشركين المجرمين في ذَهابٍ عن الحقّ وانحرافٍ عن سبيل الرّشاد، وفي عناء الشّكوك، ونَصَب الباطل. إنّ حياتهم ضَنْكٌ على الحقيقة وشاقّة وغير طيّبة، وإن كانت في الظّاهر شيئاً آخر. يوم يُسْحَبُون في النّار على وجوههم يقال لهم: ذوقوا عذاب سَقَر ونار جهنّم.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر: إنّا خلقنا كلّ شيءٍ بمقدار، قدّرناه وقضيناه[١]

وما أمرنا إلّا واحدة: وما أمرنا للشّيء إذا أمرناه وأردنا أن نكوّنه إلّا قولةٌ واحدة: كن فيكون[٢] وإلّا مرّةٌ واحدة[٣] وإلّا أَمْرَةٌ واحدة[٤]

إنّا كلّ شيءٍ خلقناه بقضاءٍ منّا وبمقدار. وبذلك تستوي الأزمنة كلّها عند الحقّ جلّ وعلا، فلا عَلاقة للزّمن مطلقاً بعلمه عزّ وجلّ. وما أمرنا للشّيء إذا أردناه إلّا أن نقول له مرّةً واحدةً لاتتكرّر: كن، فيكون الّذي أردناه كسرعة اللّمح بالبصر، والرّؤية بالعين. وهذا إخبارٌ عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قَدَره فيهم [٥].

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٦٥.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٦٦.

[٣] تفسير ابن كثير ٧/٤٦١ والجلالين.

[٤] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢١٥.

[٥] تفسير ابن كثير ٧/٤٦١.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ۝٥٣﴾

أشياعكم: أشباهكم في الكفر من الأمم الماضية [١] وأمثالكم وسلفكم من الأمم السّالفة المكذّبين بالرّسل[٢]

في الزّبر: في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم[٣] والّتي بأيدي الملائكة عليهم السّلام[٤]

مستطر: اسم مفعول من السّداسيّ استطر، زنة افتعل بمعنى مكتوب، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين[٥] وبمعنى محفوظ [٦] ومسطّر في صحائفهم[٧]

ولقد أهلكنا أشباهكم في الكفر يا أهل مكّة، فهل من متذكّر ومتّعظ! وكلّ شيءٍ فعلوه مدوَّنٌ في الكتب الّتي بأيدي الملائكة عليهم السّلام. وكلّ صغيرٍ وكبيرٍ من القول والفعل مكتوبٌ ومحفوظٌ ومسطّر في صحائفهم. فعلى كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يرعَوُوا إلى سبيل الرّشاد.

---

[١] الجلالين.

[٢] تفسير ابن كثير ٤٦١/٧.

[٣] تفسير الطّبري ٦٦/٢٧.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٦١/٧.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢١٧/١٢.

[٦] تفسير الطّبري ٦٦/٢٧.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٦١/٧.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾

ونَهَر: وأنهار. ووحّد النَّهَر في اللّفظ ومعناه الجمع، كما وحّد الدّبر ومعناه الأدبار في قوله[١] :﴿يولّون الدّبر﴾[٢]

في مقعد صدق: في مجلس حقّ، لا لغوٌ فيه ولاتأثيم[٣]

عند مليك: عند ذي ملك[٤]ومليك صيغة مبالغة اسم الفاعل من الثّلاثيّ مَلَك وزنه فعيل [٥]

إنّ المتّقين يوم القيامة في جنّات النَّعيم وأنواع الأنهار المتدفّقة، من ماءٍ غير متغيّر الرّائحة، ومن لبنٍ لم يتغيّر طعمه، ومن خمرٍ لذيذةٍ للشّاربين، ومن عسل مصَفًّى. إنّهم في مجلس حقّ، لا لغو فيه ولا إثم. إنّهم عند الله تعالى مليك كلّ شيء، والقدير على كلّ شيء، سبحانه جلّ شأنه، وعَظُم سلطانه، لا إله إلّا هو، ولا معبود بحقٍّ سواه.

---

[١] سورة القمر ٤٥.

[٢] تفسير الطّبري ٦٦/٢٧.

[٣] تفسير الطّبري ٦٧/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ٦٧/٢٧.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢١٧/١٢.

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١– سورة القمر من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ قبل الهجرة:[١] .

٢– عدد آيات السّورة الكريمة خمسٌ وخمسون آية. وعدد كلماتها ثلاثمائة وثنتان وأربعون كلمة. وعدد حروفها ألفٌ وأربعمائة وثلاثةٌ وعشرون حرفاً[٢] .

٣– تُسَمّى سورة القمر سورة:﴿اقتربت السّاعة﴾ أيضاً .[٣]

٤– عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أنّها قالت: لقد أُنْزِل على محمّدٍ ﷺ بمكّة وإنّي لجاريةٌ ألعب :﴿بل السّاعة موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ ﴾ [٤]

٥– عن أبي واقدٍ اللّيثيّ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ تعالى عنه سأله: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأَضْحَى والفِطْر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بق والقرآن المجيد، واقتربت السّاعة وانشقّ القمر [٥] وكان ﷺ يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته والتّوحيد وإثبات النّبوّات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة[٦] .

٦– روى البخاريّ عن عبد الله بن مسعود[٧] أنّ قريشاً لمّا استعصَوْا على النّبيّ ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتّى أكلوا العِظَام، فجعل الرّجل ينظر

---

[١] الإتقان ٤٢/١ وتفسير ابن كثير ٤٤٥/٧ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦٠/٢٧ والمحرّر الوجيز ٢٩١/١٥ والكشّاف ١٨١/٣ والبحر المحيط ٧٧١/٨ وتفسير القرطبي ٦٢٩٥.

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦٠/٢٧.

[٣] فتح الباري ٦١٥/٨.

[٤] فتح الباري ٦١٩/٨ حديث رقم ٤٨٧٦.

[٥] صحيح مسلم ٦٠٧/٢ حديث رقم ٨٩١.

[٦] تفسير ابن كثير ٤٤٥/٧ وانظر ٣٧١.

[٧] فتح الباري ٥٧١/٨ حديث رقم ٤٨٢١.

إلى السّماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد. فأنزل الله عزّ وجلّ[1]: ﴿ فارتقب يوم تأتي السّماء بدخانٍ مبين. يغشى النّاس هذا عذابٌ أليم﴾ الحديث. كما روى البخاريّ [2] عن عبدالله بن مسعود أيضاً أنّه قال: مضى خمس: الدّخان، والرّوم، والقمر، والبطشة، واللّزام.

والدّخان ما أشارت إليه سورة الدّخان، والرّوم ما أشارت إليه سورة الرّوم، والقمر ما أشارت إليه سورة القمر من انشقاق القمر، والبطشة ما أشارت إليه الآية السّادسة عشرة من سورة الدّخان. والمراد بالبطشة الكبرى يوم بدر. واللّزام، بمعنى الهلاك[3] وقيل القتل الّذي أصابهم ببدر [4]

٧- المحور الّذي تدور حوله سورة القمر المكّيّة الكريمة البعث بعد الموت الّذي ينكره كفّار مكّة، ومن ثَمَّ كان الإنذار هو الطّابع الغالب على السّورة الكريمة. لقد كان الحديث في القسم الأوّل من السّورة عن موقف كفّار مكّة المكذّب لكلّ معجزات المصطفى ﷺ المادّيّة، ومنها انشقاق القمر دليلاً على اقتراب السّاعة، ولآيٍ القرآن الكريم، الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة. كما كان في هذا القسم الأوّل الحديث عن بعض المواقف العصيبة الّتي سوف يصادفها الكافرون يوم القيامة، كإجابة الدّاعي إلى الحساب، والذّلّ الّذي يغمرهم، وشكواهم من عسر ذلك اليوم عليهم.

وفي القسم الأخير من السّورة يكون الحديث عن عذاب الكافرين في الأولى والآخرة. لقد أهلك الله تعالى المكذّبين السّابقين، وكان عذاب كفّار مكّة يوم بدرٍ أليما.

---

[1] سورة الدّخان ١٠ و١١.

[2] فتح الباري ٥٧١/٨ حديث رقم ٤٨٢٠ وانظر ٥٧٤ حديث رقم ٤٨٢٥ وانظر صحيح مسلم ٢٢٢٥/٤ حديث رقم ٢٩٠١ في علامات السّاعة.

[3] انظر فتح الباري ٤٩٦/٨.

[4] انظر تفسير ابن كثير ٣٠٥/٧ هامش رقم ٣.

وإذا كان القسم الأوّل قد تحدّث عن حساب الكافرين، فإن القسم الأخير قد تحدّث عن عذابهم فعلاً في نار الجحيم.

وإذا كان الوعيد غالباً في السّورة الكريمة فقد كان الوعد في الآيتين الكريمتين الأخيرتين من السّورة الكريمة. قال عزّ من قائل:﴿ إنّ المتّقين في جنّاتٍ ونهر. في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾

وقد جاء النّصّ على الإنذار في الآيات الكريمات، ٥، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٩ ، ٤١.

٨- تبدو ظاهرة التّكرار جليّةً في السّورة الكريمة. وهي من نصيب كلٍّ من الإنذار والتّبشير. ويغلب التّكرار في الإنذار. لقد جاء القول:﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ في الآيات الكريمات ١٦، ١٨، ٢١ ، ٣٠ وجاء القول :﴿ فذوقوا عذابي ونذر﴾ في الآيتين الكريمتين ٣٧و ٣٩ وجاء في الآيتين الكريمتين الخامسة والعشرين والسّادسة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا :﴿ أألقي الذّكر عليه من بيننا بل هو كذّابٌ أشر. سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر ﴾ وقد تكرّر القول:﴿فهل من مدّكر﴾ في الآيات الكريمات ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١. وقد جاءت الإشارة إلى تكذيب الكافرين رسل الله تعالى إليهم في الآيات الكريمات ٣و ٩ في موضعين و ١٨و ٢٣ و٢٥و٢٦و٣٣و٤٢ وقد ابتدأت الآيات الكريمات ٩و١٨و٢٣و٣٣ بجملة:﴿كذّبت﴾ في حقّ قوم نوحٍ عليه السّلام وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ عليه السّلام.

وفي مجال التّبشير جاء بشأن قوم نوحٍ عليه السّلام، وعاد وثمود وقوم لوطٍ عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر﴾ وذلك في الآيات الكريمات على التّوالي ١٧و٢٢و٣٢و.٤٠

٩- كلّ فواصل سورة القمر المكّيّة الكريمة في حرف الرّاء.

١٠- يجيء في سورة القمر من الوجهة الصّرفيّة ظاهرة الإبدال بصورةٍ لافتةٍ للنّظر، بحيث يصحّ أن يقال إنّ ظاهرة الإبدال من الصّفات البارزة للسّورة الكريمة رغم أنّها سورةٌ كريمةٌ تميل إلى القِصَر فهي تتألّف من خمسٍ وخمسين آية. لقد جاء القول:﴿فهل من مدكّر ﴾ في الآيات الكريمات ١٥و١٧و٢٢و٣٢و٤٠و٥١ وجاء لفظ:﴿مزدجر﴾ في الآية الكريمة الرّابعة. وجاء القول: ﴿وازْدُجِر﴾ في الآية الكريمة التّاسعة . وجاء القول: ﴿واصطبر﴾ في الآية الكريمة السّابعة والعشرين.

١١- الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى جاءوا مرتّبين تأريخيّاً في السّورة الكريمة، وهم قوم نوحٍ عليه السّلام، وعادٌ، وثمود، وقوم لوطٍ عليه السّلام، وفرعون وآله.

١٢- لسورة القمر المكّيّة جرسها الخاصّ بها المنسجم مع مايغلب عليها من طابع الوعيد.

١٣- سبق أن بيّنا في شيءٍ من التّفصيل وحدة السّورة الكريمة عضويّاً، وتلاحمها معنويّاً تحت عنوان: " بين يدي التّفسير " ونودّ أن نومئ هنا في إيجاز إلى تلك الوحدة العضويّة. يصحّ أن يقال إنّ السّورة الكريمة تتألّف من مقدّمة ، وموضوع، وخاتمة. وبين هذه العناصر الثّلاثة تلاحمٌ شديد.

تشير السّورة الكريمة في المقدّمة إلى اقتراب السّاعة الّتي لايؤمن بها كفّار مكّة، وإلى انشقاق القمر معجزةً حسّيّة للمصطفى ﷺ، وإلى إعراض كفّار مكّة عن آي الذّكر الحكيم وعن الآيات المادّيّة. إنّهم يعرضون عن القرآن الكريم رغم ماجاءهم فيه من الأنباء الزّاجرة عن الكفر وكلّ قبيح، ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يُعْرِض عن أولئك الكافرين حتّى يأتي أمر الله تعالى فيهم. ويتحوّل الحديث إلى ملابسات قيام السّاعة، وذلّ الكافرين وقتها، وإسراعهم نحو الدّاعي لفصل الحساب، وعسر ذلك اليوم على الكافرين.

وفي موضوع السّورة الكريمة يكون الحديث عن الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى، وهذا النّوع من الحديث هو من جنس الأنباء الزّاجرة الّتي جاءت المشركين في القرآن

الكريم. وأولئك الأقوام يرتّبون تأريخيّاً، وهم قوم نوحٍ عليه السّلام، وعاد، وثمود، وقوم لوطٍ عليه السّلام، وفرعون وآله.

وفي الخاتمة يعود الحديث إلى الكافرين. إنّهم ليسوا خيراً من الكافرين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى، وليس لهم براءةٌ من العذاب في الكتب السّماويّة، وليسوا جمعاً منتصراً على المسلمين، بل هم جمعٌ منهزمٌ وقد تحقّق ذلك في غزوة بدر. والحقيقة أنّ السّاعة الّتي ينكرونها موعدهم، وهي أدهى وأمرّ من عذاب الدّنيا. ثمّ يكون الحديث عن عذاب الكافرين في نار جهنّم فعلاً. وهكذا تتحدّث مقدّمة السّورة الكريمة عن مقدّمات يوم القيامة، وتتحدّث نهاية السّورة الكريمة عن نهاية الكافرين في أعماق الجحيم. إنّ كلّ شيءٍ يتمّ بقضاءٍ من الله تعالى وقدر. وقد أهلك الله تعالى المشابهين لكفّار مكّة في الشّرك والتّكذيب فعليهم أن يعتبروا. وإنّ كتاب الأعمال لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها. وإنّ الكافرين يستطيعون أن يكونوا من المتّقين، وأن يدخلوا جنّات النّعيم، وأن يكونوا في مجلس صدقٍ لا كذب فيه ولا إثم عند الله تعالى مليك كلّ شيء، المقتدر الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . وهكذا تختم السّورة الكريمة بالتّرغيب، بعد أن غلب عليها التّرهيب.

من الاستعراض السّريع السّابق تتّضح الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة. وهكذا يقنع القرآن الكريم كلّ عقلٍ بفصوص حكمه، ويشبع كلّ نفس بجليل معناه، ويشنّف كلّ أذنٍ[1] بجميل مبناه.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله ربّ العالمين.

---

[1] يشنّف الأذن: يمتعها.

خامساً: سورة الرّحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟
ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١
وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ
فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ
أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ
﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى
يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ
دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ
﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ
يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسۡمُ
رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((الرّحمن علّم الإنسان القرآن والبيان، وخلق الشّمس والقمر والنّبات، ورفع السّماء ووضع الأرض والعدل، فينبغي الشّكر لله تعالى))

الآيات (١-١٣)

الله تعالى، رحمن الدّنيا والآخرة، علّم قراءة القرآن الكريم على جهة الخصوص، القراءة على جهة العموم، ويرتبط بقراءة القرآن الكريم فهمه والعمل بمقتضى ذلك الفهم. والله تعالى الّذي علّم القرآن خلق الإنسان ، أبانا آدم عليه السّلام وعلّمه الكلام والفصاحة . ويرتبط بالقراءة الكتابة. ويرتبط بالكلام والفصاحة القدرة على التّعبير عن دقيق المعاني، ولطيف المشاعر. والله تعالى خلق الشمس والقمر، وجعلهما يجريان بحسابٍ دقيق، كما خلق الجنّات المعروشات والنّبات الّذي ليس له ساق وهو النّجم، والجنّات غير المعروشات والنّبات الّذي له ساق وهو الشّجر. إنّ كلًّا من النّجم والشّجر يسجدان لله تعالى ويسبّحان بحمد الله تعالى بأسلوبهما الّذي لانعرفه ولانفقهه نحن البشر. والله تعالى رفع السّماء بغير عَمَد، ووضع العدل، لئلّا نطغى في الميزان ونَبْغِي ونظلم الآخرين ونبخس النّاس أشياءهم.

وأقيموا أيّها النّاس لسان الميزان بالعدل، ولاتنقصوا الوزن، ولاتخسروا الميزان، ولا تأكلوا أموال النّاس بالباطل.

والله تعالى الّذي وضع في الأرض العدل وضع الأرض نفسها للخلق. فيها فاكهةٌ كثيرة. وفيها النّخل ذو الأوعية الّتي تغطّي الثمر، وفيها الحبّ، كالحنطة والشّعير، ذو التّبن وورق الزّرع إذا جفّ وخفّ، وفيها الرَّيْحان والنّبات ذو الرّائحة الطّيّبة المشموم. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. إنّ نعم الله تعالى عليكما لاتُعَدّ ولاتُحْصَى، فبادروا إلى الشّكر لله تعالى كفاء تلك النّعم. وفي مقدّمة مظاهر التّعبير عن الشّكر إفراد الله تعالى بالعبادة، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

(٢)

((الله تعالى خالق الإنس والجنّ، وربّ مشرق الشّمس ومغربها شتاءً وصيفاً، وخالق البحرين العذب والمِلْح الّلذين يخرج منهما الّلؤلؤ والمرجان وتجري فيهما السّفن))

الآيات (١٤-٢٥)

الله تعالى خلق آدم عليه السّلام من طينٍ يابسٍ له صوتٌ إذا حُرّك أو نُقِر، وكأنّه ليبسه طينٌ محروقٌ بالنّار. وخلق الله تعالى إبليس أب الجنّ من لهيب النّار الخالص من الدّخان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. الله تعالى رب مشرق الشّمس ومغربها شتاءً وصيفاً. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. الله تعالى أرسل البحرين العذب الفرات والمِلح الأجاج يلتقيان في المكان الّذي أراد الله تعالى أن يلتقيا فيه. بين البحرين المذكورين حاجزٌ طبيعيّ من الأرض فهما لايبغي أحدهما على الآخر. إنّ الماء العذب المتحرّك الّذي يصبّ في الماء الملح يصلحه بإرادة الله تعالى فيجعل ملوحته معتدلةً ويفيده. وإنّ الماء المِلْح المتحرّك في مكانه المتحيّر لايبغي على الماء العذب فلايتحرّك من موضعه لأنّه لو تحرّك لأفسد اليابسة وأهلك الحرث والنّسل. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. يخرج من البحرين اللؤلؤ الأشدّ بياضاً، والمرجان الأشدّ صَفاء. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. ولربّ المشرقين والمغربين السّفن النّاشرات الأشرعة تجري في ذينك البحرين، وهي كالجبال ضخامةً وفخامة. فبأي نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

(٣)

((كلّ من على الأرض فان، ولايبقى إلّا وجه الله تعالى الّذي يحقّق المطالب ، ويحاسب الخلائق، ويدخل المجرمين النّار))

الآيات (٢٦-٤٥)

كلّ من على الأرض من إنسٍ وجانّ فانٍ وهالك، ويبقى وجه ربك يامحمّد ويأيّها الإنسان ذو الجلال والعظمة، وذو الإكرام الّذي ينبغي له من جميع خلقه. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. يسأل الله تعالى كلّ من في السّماوات والأرض، فهو عزّ وجلّ محقّق المطالب وكاشف كلّ غمّ. كلّ وقتٍ هو جلّ وعلا في شأن، فهو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء من عباده، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء إعزازه، ويذلّ من يريد إذلاله، بيده وحده دون سواه الخير، وهو على كلّ شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران . سنحاسبكم يوم القيامة يامعشر الجنّ والإنس. إنّ مَنْ أُوتي كتاب أعماله بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا. وإنّ من أوتي كتاب أعماله بشماله فسوف يحاسب حساباً عسيرا. ولايُظْلَمُ أحدٌ بحذف حسنة أو إضافة سيّئة. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تخرجوا من نواحي السّماوات والأرض كي تفرّوا من الموت ومن قضاء الله تعالى وقدره وملكوته فافعلوا. إنّكم لاتنفذون وتخرجون إلّا بسلطانٍ وقوّة، وليس عندكم شيءٌ من ذلك. إنّكم لو حاولتم ذلك فإنّ الحقّ جلّ وعلا سوف يرسل عليكم ويسلّط لهباً من النّار بغير دخان دليلاً على قوّة اشتعال النّار، وسوف يصبّ عليكم صُفْراً مذاباً قد أُوقِدَ عليه في النّار، فلا تنتصران ولاتفرّان من قضاء الله تعالى وقدره. فبأيّ نعم ربّكما عليكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

فإذا انشقّت السّماء إيذاناً بقيام السّاعة وتصدّعت وكانت أبواباً لنزول الملائكة، فكانت السّماء في حمرة الورد كالدّهن صفاءً وإشراقاً. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. في ذلك الوقت الّذي تقوم فيه السّاعة لايُسْأل عن ذنبه إنسٌ

ولا جانّ. إنّما يكون السّؤال بعد ذلك. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. يُعْرَف المشركون بعلاماتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون فتأخذهم ملائكة العذاب بنواصيهم والشّعر في مقدّمة الرّأس، وبالأقدام ومِنْ ثَمَّ يُلْقى بهم في نار جهنّم. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. ويقال لأولئك المجرمين المشركين: هذه جهنّم الّتي كنتم تكذّبون بها فاصلوها. يطوف المجرمون ويسعون بين نار جهنّم وبين ماءٍ حارّ اشتدّ غليانه. فبأي نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

(٤)

((نعوت جنّتي السّابقين))

الآيات (٤٦-٦١)

ولمن خاف القيام بين يدي الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء فآمن وعمل عملاً صالحاً جنّتان اثنتان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. هما جنّتان ذواتا أغصانٍ وارفةٍ نَضِرة، دليلاً على عظمة كلٍّ من الشّجرة والثّمرة. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. في الجنّتين من كلّ فاكهةٍ عَرَفَها البشر ولم يعرفوها صنفان اثنان، وربّما مَثَّلَ أحد الصّنفين الذّكورة ومثّل آخرهما الأنوثة. والله تعالى أعلم. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. مضطجعين على فرشٍ بطائنها من غليظ الدّيباج وأفخمه فكيف بظواهرها. وثمر الجنّتين قريب التّناول سَهْلُه، يناله القائم والقاعد والمضطجع ، فبأي نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. في هاتين الجنّتين ومالحق بهما من قصورٍ وما إلى ذلك، أو في تلك الفرش الّتي تلك نعوتها زوجاتٌ قاصرات الطّرف والعين على أزواجهنّ لم يتزوجهنّ من قبل إنسٌ ولا جانّ. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. كأنهنّ الياقوت صفاء أبدان، واللّؤلؤ

بياض ألوان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. هل جزاء إحسان العباد بإخلاص العبادة لله تعالى وَحْدَه دون سواه إلّا الإحسان بالخلود في تلك الجنان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

(٥)

((نعوت جنّتي أصحاب اليمين))

الآيات (٦٢-٧٨)

ومن دون جنّتي السّابقين المقرّبين وتحتهما في الفضل جنّتان اثنتان لأصحاب اليمين. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. هما جنّتان خضراوان إلى درجة السّواد لفرط الرّيّ. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. فيهما عينان فوّارتان فيّاضتان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. فيهما فاكهةٌ كثيرةٌ لامقطوعةٌ ولاممنوعة، وفيهما على جهة الخصوص نخلٌ ورمّان،وهما من أشرف أنواع الفاكهة عند العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم.وهكذا نكون بصدد عطف الخاصّ وهو النّخل والرّمّان،على العامّ،وهو جنس الفاكهة.فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.فيهنّ زوجات حسنات الخُلُق والخَلْق. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. هن جميلات الأعين،سُودُ سوادها،بِيضُ بياضها، مصوناتٌ في الخيام من اللّؤلؤ مستوراتٌ في تلك الخيام الملحقة بالقصور الحسان الضّخام. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.لم يتزوّج أولئك النّساء من قبل إنسٌ ولا جانّ،فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران. تبارك وتعظّم وتمجّد اسم ربّك يامحمّد ويأيّها الإنسان، ذي الجلال والعظمة والكبرياء، وذي الإكرام الّذي ينبغي له عزّ وجلّ من جميع خلقه.

التّفسير

(١)

((الرّحمن علّم الإنسان القرآن والبيان، وخلق الشّمس والقمر والنّبات، ورفع السّماء ووضع الأرض والعدل، فينبغي الشّكر لله تعالى))

الآيات (١-١٣)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

علّم القرآن: أنزل على عباده القرآن، ويسّر حفظه وفهمه على من رحمه[1]
والقرآن في الأصل مصدر نحو كفران ورجحان[2] يقال: قَرَأَهُ قَرْءاً وقِراءَةً وقُرْآنا[3]
خلق الإنسان: آدم عليه السّلام[4]
علّمه البيان: الكلام[5] والنّطق[6]

الله تعالى رحمن الدّنيا والآخرة، والّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ، علّم القراءة عموماً، ويرتبط بها الكتابة، القرآن الكريم خصوصاً. إنّ إنزال الحقّ جلّ وعلا القرآن الكريم، وتيسير نطقه وفهمه للنّاس، من أكبر نعم الله تعالى عليهم، وأجلّ مظاهر الرّحمة بهم، والشّفقة عليهم. إنّ هذا القرآن الكريم، والكتاب العزيز، يهدي إلى الطّريقة الّتي هي أقوم، والّتي توصل بإذن الله تعالى إلى جنّات النّعيم. وتعليم الله تعالى النّاس القرآن الكريم يكون بقراءة القرآن نظراً، ويقترن بهذه القراءة نعمة تعليم الله تعالى النّاس القراءة الّتي ترتبط بها نعمة الكتابة. كما تكون قراءة القرآن الكريم غيباً وعن ظهر قلب. ويرتبط بالقراءة في العادة فهم القرآن الكريم وتدبّر معناه والعمل بمقتضى تلك المعاني. إنّ كلّ هذه النّعم إنّما هي من رحمن الدّنيا والآخرة، الّذي علّم النّاس قراءة القرآن الكريم وكيفيّة تلاوته.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٤/٧.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني:"قرأ" ٥٢٠/٢.
(٣) لسان العرب:"قرأ"
(٤) تفسير الطّبري ٦٧/٢٧.
(٥) تفسير الطّبري ٦٧/٢٧.
(٦) تفسير ابن كثير ٤٦٤/٧ والجلالين.

والله تعالى الّذي علّم القرآن الكريم، خلق جنس الإنسان ؛ ابتداءً بأبينا آدم عليه السّلام، وعلّم هذا الإنسان الجنس النّطق والكلام والإبانة عمّا في النّفس من مشاعر، وفي العقل من معان.

ما أعظم رحمة الله تعالى، وما أجلّ نعمه الّتي لاتُحْصَى على جنس الإنسان الّذي خلقه في أحسن تقويم. ومِنْ هذه النّعم الجليلة نعمة إنزال القرآن الكريم، ونعمة تعليم الإنسان قراءة القرآن الكريم كي يفهمه ويعمل بمقتضاه، ونعمة النّطق والإبانة عن المشاعر والمعاني.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾

بحسبان: بحساب. يقال: حَسَبت أحسِب حِساباً وحُسْبانا[1] عن ابن عبّاس قال: بحسابٍ ومنازل يرسلان[2] وبعددٍ وحسابٍ يجريان[3].

والنّجم: مالاساق له من النّبات [4] وانبسط على وجه الأرض[5]

والشّجر: ما قام على ساق[6]

الشّمس والقمر سخّرهما الرّحمن الرّحيم فهما يجريان بحسابٍ دقيق بحيث إنّ أدقّ الآلات البشريّة تُضْبَط دائماً وأبداً عليهما وعلى ماشاكلهما من النّجوم والكواكب. وما

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"حسب" ١٥٢/١ ومعاني القرآن للأخفش ٤٩٠/٢.

[2] تفسير الطّبري ٦٨/٢٧.

[3] انظر تفسير الطّبري ٦٨/٢٧.

[4] الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني:"نجم" ٦٢٥/٢.

[5] تفسير الطّبري ٦٨/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٦٤/٧.

[6] تفسير ابن كثير ٤٦٤/٧ وتفسير الطّبري ٦٩/٢٧ والجلالين.

أجلّ نعمة الله تعالى على الخلق بتسخيره الشّمس والقمر وسائر النّجوم والكواكب الّتي تجري بحسابٍ غايةٍ في الدّقّة والانضباط.

وكان ذكر الشّمس والقمر مرشّحاً لذكر النّجم بعد ذلك. وإنّ ذكر الشّجر مع النّجم صرف المعنى القريب للنّجم، بمعنى الثّريّا أو نجم السّماء عموماً، إلى النّبات الّذي لاساق له، لأنّ الشّجر هو النّبات الّذي له ساق. إنّ الشّمس والقمر يسجدان لله تعالى الرّحمن الرّحيم ويسبّحان بحمده عزّ وجلّ، وإن كنّا لانفقه تسبيحهما. وهكذا يطيع كلٌّ من الشّمس والقمر الرّحمن الرّحيم فيجريان بحسابٍ دقيق، تحقيقاً لمشيئته عزّ وجلّ، ويسجد كلٌّ من النّبات الّذي لاساق له، والشّجر الّذي له ساق، لله تعالى الّذي له وحده دون سواه الخلق والأمر. والمعروف أنّ السّجود أجلّ مظاهر الإذعان والخضوع، لله تعالى الواحد الأحد المعبود.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾

ووضع الميزان: وأثبت العدل[1]

ألّا تطغوا في الميزان: لئلّا تطغوا[2] ولأجل ألّا تجوروا[3] وتظلموا وتبخسوا في الوزن[4]

وأقيموا الوزن: وأقيموا لسان الميزان[5]

---

[1] الجلالين تفسير ابن كثير ٤٦٥/٧ وتفسير الطّبري ٦٩/٢٧.

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٢١/١٢.

[3] الجلالين.

[4] تفسير الطّبري ٦٩/٢٧.

[5] تفسير الطّبري ٧٠/٢٧.

بالقسط: بالعدل[١]

ولاتخسروا الميزان: ولاتنقصوا الوزن إذا وزنتم للنّاس وتظلموهم[٢] ولاتنقصوا الموزون[٣] ولاتبخسوا الوزن، بل زنوا بالحقّ والقسط[٤]

والله تعالى رفع السّماوات بغير عَمَدٍ نراها، ووضع الميزان، وأثبت العدل، لئلا نطغى في الميزان ونعبث في الوزن ونبخس النّاس أشياءهم . ولأجل ألّا نطفّف في الكيل ونكون من الّذين إذا اكتالوا على النّاس أو وزنوهم يستوفون حقوقهم، وإذا كالوا الآخرين أو وزنوهم ينقصونهم الكيل والوزن. والله تعالى يأمرنا بأن نقيم الوزن بالقسط، وأن نقيم لسان الميزان بالعدل، وينهانا عن العَبث بالميزان، وعن نقص الآخرين حقوقهم، وبخسهم أشياءهم.

ومن أهمّ مايلفت الانتباه في الآيات الكريمات أنّ العدل يبدو قسيم السّماوات وشطرها. وكأنّ السّماوات توضع في إحدى كفّتي الميزان، والعدل يوضع في الكفّة الأخرى، دليلاً على أهمّيّة العدل وعدم الظّلم.

ويصحّ أن يقال: إنّ الميزان الأوّل بمعنى العدل، والثّاني بمعنى مقياس الوزن، والثّالث بمعنى الموزون[٥]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٧٠.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٧٠.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير ابن كثير ٧/٤٦٥.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٢٢.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

والأرض وضعها للأنام: والأرض وطّأها للخلق[١]

ذات الأكمام: جمع كم بكسر الكاف، وهو مايغطّي الثّمرة[٢]

والحبّ: البرّ والشّعير ونحوهما [٣]

ذو العصف: ذو التِّبْن[٤] وورق الزّرع[٥]

والرّيحان: الّذي يُشَمّ[٦] وماله رائحة[٧]

فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان: الآلاء النّعم واحدها أَلًى بالفتح، وإلْيٌ وإلِىً[٨] فبأيّ نعم ربّكما معشر الجنّ والإنس من هذه النّعم تكذّبان[٩] ذكرت إحدى وثلاثين مرّة. والاستفهام فيها للتّقرير، لما روى الحاكم عن جابر قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرّحمن حتّى ختمها ثمّ قال: مالي أراكم سكوتاً، لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردّا. ما قرأت

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٧٠.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"كم" ٢/٥٦٩.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٧١.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٧١.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٧١ والمعجم الوسيط:"عصف" وتفسير ابن كثير ٧/٤٦٦.

[٦] تفسير الطّبري ٢٧/٧١.

[٧] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"روح" ١/٢٧١.

[٨] لسان العرب:"ألا"

[٩] تفسير الطّبري ٢٧/٧٢.

عليهم هذه الآية من مرّة:﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ إلّا قالوا: ولا بشيءٍ من نعمك ربّنا نكذّب فلك الحمد [1] .

والله تعالى وضع الأرض ووطّأها للخلق وذلّلها لهم. فيها فاكهةٌ كثيرةٌ من مختلِف الأنواع، وفيها النّخل ذو الأوعية الّتي تنشقّ عنها الثّمرة. والمعروف أنّ ثمر النّخل يجمع بين كونه فاكهةً وغذاءً. وفيها الحبّ كالقمح والشّعير ونحوهما، ذو التّبن وورق الزّرع الّذي يَجِفّ ويبس ويتكسّر. والمعروف أنّ الحبّ غذاءٌ رئيس. وفيها الرّيحان المشموم . وهو نبتٌ ذو رائحةٍ طيّبة. ويصحّ أن يراد بالرّيحان جنس النّبات ذي الرّائحة الطّيّبة الّتي تشمّ فتشرح الصّدر وتُسْعِد النّفس.

والحديث عن هذه الأنواع المختلفة من الثّمرات والنّباتات يعني الإيماء إلى الجنّات الخضراوات المعروشات وغير المعروشات . إنّ هذه الجنّات تُسْقَى بماءٍ واحد، وإنّ الثّمرات قد فضّل الله تعالى بعضها على بعضٍ في الأُكُل. وكما يكون التّفاضل بين الثّمرات ذاتها، يكون التّفاضل بينها في حقّ آكليها، فهذا يفضّل هذا على ذاك، وذاك يفضّل ذاك على هذا. ولله تعالى الحكمة البالغة.

وإزاء هذه النّعم الّتي لاتُحْصَى يجيء الاستفهام في الآية الكريمة الّتي جاءت في السّورة الكريمة إحدى وثلاثين مرّة:﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، فبأيّ نعم الله تعالى عليكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتجحدان. إنّ عليكم أجمعين أن تشكروا لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة عليكم، ولاتكفروها ، ويكون ذلك ابتداءً بإفراد الله تعالى بالعبادة. ونحن نقول كما قالت الجنّ المؤمنون: اللّهمّ، ولابشيءٍ من آلائك ربَّنا نكذّب، فلك الحمد[2]

---

[1] الجلالين وانظر تفسير الطّبري ٧٢/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٦٦/٧.

[2] تفسير ابن كثير ٤٦٦/٧.

(٢)

((الله تعالى خالق الإنس والجن، وربّ مشرق الشّمس ومغربها شتاءً وصيفاً، وخالق البحرين العذب والمِلْح الّلذين يخرج منهما الّلؤلؤ والمرجان وتجري فيهما السّفن))

الآيات (١٤-٢٥)

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾

خلق الإنسان: آدم عليه السّلام[١]

من صلصال كالفّخار: الصّلصال الطّين اليابس الّذي لم يُطْبَخ فإنّه من يبسه له صلصلة، أي صوت، إذا حُرّك ونُقِر[٢] والفخّار هو الّذي قد طبخ من الطّين بالنّار[٣] يعني أنّه من يبسه وإن لم يكن مطبوخاً كالّذي قد طبخ بالنّار، فهو يصلصل كما يصلصل الفخّار[٤]

وخلق الجانّ: أبا الجنّ وهو إبليس[٥]

من مارجٍ من نار: من لهيبها الخالص من الدّخان[٦] ولسانها[٧] الّذي اختلط بعض ألوانه ببعض، من بين أحمر وأصفر وأخضر، من قولهم: مرج أمر القوم إذا اختلط[٨]

خلق الله تعالى آدم عليه السّلام أبا البشر من طينٍ يابس له صوتٌ إذا نُقِر وحُرّك كأنّه من يُبْسه طينٌ مطبوخٌ بالنّار. وخلق إبليس أبا الجانّ من لهب النّار الخالص ولسانها المتحرّك المختلط بعض ألوانه ببعض.

---

[١] تفسير الطّبري٢٧/٧٣.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٧٣ والجلالين.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٧٣.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٧٣.

[٥] الجلالين.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٧٤.

[٨] تفسير الطّبري ٢٧/٧٤.

فبأيّ نعم الله تعالى عليكم يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتجحدان وتنكران.

إنّ المطلوب الشّكران لله تعالى لا الكفران.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

الله تعالى هو ربّ مشرقي الشّمس شتاءً وصيفاً. ومغربي الشمس شتاءً وصيفا. والمعروف أنّ للشّمس مشرقاً ومغرباً بعدد أيّام السّنة الشّمسيّة[1] فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتجحدان وتنكران.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

مرج البحرين: أرسل البحرين العذب الفرات والمِلْح الأجاج[2]

بينهما برزخٌ لايبغيان: بينهما حاجزٌ من الأرض لئلّا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كلّ واحدٍ منهما الآخر، ويزيله عن صفته الّتي هي مقصودةٌ منه[3]

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٧٤/٢٧.

[2] تفسير الطّبري ٧٥/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٦٧/٧ و ٤٦٨ والجلالين.

[3] تفسير ابن كثير ٤٦٨/٧.

يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان: اللّؤلؤ: ماعظم من الدّرّ[١] قال ابن عبّاس: إنّ السّماء إذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها فمنها اللّؤلؤ[٢] والمرجان جنس حيوانات بحريّة ثوابت، لها هيكلٌ وكِلسٌ[٣] أحمر يعدّ من الأحجار الكريمة. ويكثر المرجان في البحر الأحمر[٤]

وله الجوار: وله السّفن الّتي تجري في البحر والمفرد جارية[٥]

المنشآت: المرفوعات القلاع اللّاتي تقبل بهنّ وتدبر[٦] قال مجاهد: مارفع قلعه من السّفن فهي مُنْشأة، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة[٧]

كالأعلام: كالجبال.شبّه السّفن بالجبال. والعرب تسمّى كلّ جبلٍ طويلٍ عَلَما[٨]

الله سبحانه وتعالى أرسل البحرين العذب الفرات متمّثلاً في الأنهار ابتداءً، والملح الأجاج الشّديد الملوحة إلى درجة المرارة أحياناً، ويلتقي البحران بإرادة الله تعالى في المكان المعيّن. إنّ الماء العذب الفرات في هيئة الأنهار المتّجهة إلى البحر والماء الملح لايستطيع إلّا أن يجري. وإنّ الماء الملح الأجاج في هيئة البحار والمحيطات لايستطيع إلّا أن يتحيّر ويتحرّك في موضعه، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى. إنّ البحرين يلتقيان بإرادة الله تعالى حينما يصبّ الماء العذب في الماء المِلْح.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٧٦.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٧٧.

[٣] الكلس بكسر الكاف الجير.

[٤] المعجم الوسيط:"المرجان"

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"جرى" ١/١٢٠.

[٦] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨.

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨ وتفسير ابن كثير ٧/٤٦٩.

[٨] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨.

وإنّ بين البحرين حاجزاً طبيعيّاً بإرادة الله تعالى، فلايستطيع أيٌّ من البحرين أن يطغى على الآخر أو يلغي وجوده ويفسد عنصره. إنّ الحاجز الطّبيعيّ في هيئة الانحدار للأرض المقدّر المضبوط يجعل الماء العذب الفرات يجري ويتّجه إلى الماء الملح. وفي هذا الجري والتّوجّه صلاح البلاد والعباد. وإنّ الحاجز الطّبيعيّ هذا يجعل الماء الملح يتحرّك ويتحيّر في موضعه . وفي هذه الحركة والحيرة صلاح العباد والبلاد. وإنّ في وصول الماء الحلو إلى الماء الملح صلاحاً للماء الملح نفسه فبهذا تعتدل ملوحته. ولايستطيع الماء العذب أن يقف لأنّ في وقوفه فساده وتغيّر رائحته وطعمه ولونه. ولايستطيع الماء الملح أن يجري لأنّ في جريه هلاك الحرث والنّسل.

وهكذا يجري الماء العذب ويصبّ في الماء الملح المتحرّك في مكانه. وفي جري هذا وتحيّر ذاك حتّى التقائهما صلاح البلاد والعباد. وإنّ كلّ ذلك إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى الّذي يعلم من خلق وماخلق.

فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

ومن هذين البحرين يخرج اللّؤلؤ وماعظم من الدّرّ وماصغر، ويخرج المرجان، وهو حجرٌ أحمر كريم. ويتّخذ النّساء على جهة الخصوص من اللّؤلؤ والمرجان حليةً يلبسنها. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

ولربّ المشرقين والمغربين السّفن النّاشرات الأشرعة تجري في الماء الكثير الغزير، الملح والحلو، كالجبال ضخامةً وفخامة. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

(٣)

((كلّ من على الأرض فان، ولايبقى إلّا وجه الله تعالى الّذي يحقّق المطالب، ويحاسب الخلائق، ويدخل المجرمين النّار))

الآيات (٢٦-٤٥)

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

كلّ من عليها فان: كلّ من على ظهر الأرض من جنٍّ وإنسٍ فإنّه هالك[١]

ذو الجلال والإكرام: ذو العظمة ومن له الإكرام من جميع خلقه[٢]

كلّ من على ظهر الأرض من جنٍّ وإنسٍ هالكٌ وفان. ويبقى وجه ربّك ذو العظمة والكبرياء، وذو الإكرام له عزّ وجلّ من جميع خلقه. فبأيّ نعم الله تعالى عليكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يسأله من في السّماوات والأرض: يفزع إليه بمسألة الحاجات كلّ من في السّماوات والأرض من ملكٍ وإنسٍ وجنٍّ وغيرهم، لاغنى بأحدٍ منهم عنه[٣]

كلّ يوم: كلّ وقت[٤]

هو في شأن: لايستغني عنه أهل السّماء ولا أهل الأرض. يحيي حيّاً، ويميت ميتاً، ويربّي صغيراً، ويذلّ كبيرا. وهو مسأل حاجات الصّالحين، ومنتهى شكواهم،وصريخ الأخيار [٥]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/٩٥.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٧٨.

يسأل الله تعالى كلّ من في السّماوات والأرض من مَلَكٍ وجنٍّ وإنس. كلّ وقتٍ هو في شأن ، يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه، ويزيل الضّرّ، ويكشف الكرب، ويحقّق المطالب، ويلبّي الرّغائب ،ويؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، ويحيى من يريد، ويميت من يريد، بيده عزّ وجلّ الخير، وهو على كلّ شيءٍ قدير. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾

سنفرغ لكم أيّها الثّقلان: سنحاسبكم ونأخذ في أمركم أيّها الإنس والجنّ فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطّاعة[1]

سنحاسبكم يوم القيامة يامعشر الجنّ والإنس. فمن أوتي كتاب أعماله بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا، ومن أوتي كتاب أعماله بشماله فسوف يحاسب حساباً عسيراً. ولايظلم ربّك أحداً بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

أن تنفذوا: أن تخرجوا[2]

---

[1] تفسير الطّبري ٢٧/٧٩.

[2] الجلالين.

من أقطار السّماوات والأرض: من أطرافها[١] ونواحيها[٢]

بسلطان: بقوّة ولاقوّة لكم على ذلك[٣]

شواظٌ من نار: لهبها بغير دخان[٤]

ونحاس: عن ابن عبّاس: النّحاس الصُّفر يعذَّبون به[٥] وعن مجاهد: يذاب الصُّفر من فوق رءوسهم[٦]

يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تخرجوا في هذه الحياة الدّنيا من جوانب السّماوات والأرض ظنّاً منكم أن تفوتوا الحقّ جلّ وعلا فافعلوا واعملوا على الخروج وهيهات. إنّكم لاتخرجون إلّا بقوّة، وأنّى لكم تلك القوّة. إنّ كلّ مافي السّماوات والأرض خاضعٌ لقدرة الله تعالى ومشيئته. فبأيّ نعم ربّكما عليكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

إنّكم لو حاولتم الخروج يُرْسل عليكم لهيبٌ خالصٌ من النّار، ويصبّ عليكم من فوق رءوسكم صُفْرٌ مذاب، فلاتنتصران ولاتحقّقان شيئاً من تلك الأوهام. فبأيّ نعم ربّكما عليكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٨٠.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٨١.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٨٢.

[٦] تفسير الطّبري ٢٧/٨٢.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

فإذا انشقّت السّماء: فإذا تصدّعت السّماء وتقطّعت فكانت أبوابا[١] وانفرجت أبواباً لنزول الملائكة[٢]

فكانت وردة: أي مثلها محمرّة[٣]

كالدّهان: كالدّهن صافية الحمرة مشرقة[٤]

يعرف المجرمون بسيماهم: أي سواد الوجوه وزرقة العيون[٥]

فيؤخذ بالنّواصي والأقدام: فتأخذهم الزّبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى جهنّم وتقذفهم فيها[٦] والنّواصي جمع النّاصية وهي شعر مقدّم الرّأس إذا طال[٧]

---

[١] تفسير الطّبري ٣٠/٧٢.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين وتفسير الطّبري ٢٧/٨٢.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٨٢.

[٥] الجلالين وتفسير الطّبري ٢٧/٨٣.

[٦] تفسير الطّبري ٢٧/٨٣.

[٧] المعجم الوسيط:"النّاصية"

هذه جهنم: يقال لهؤلاء المجرمين هذه جهنّم [١]

يطوفون: يسعون[٢]

حميم: حار[٣]

آن: شديد الحرارة والغَلَيان[٤]

فإذا انشقّت السّماء إيذاناً بقيام السّاعة وتصدّعت وانفرجت أبواباً لنزول الملائكة، فكانت السّماء كالوردة في احمرار اللّون، وكالدّهن في الصّفاء والإشراق. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

في ذلك اليوم الّذي تقوم فيه السّاعة لايُسْأَلُ عن ذنبه إنسٌ ولاجانّ، لهول المفاجأة، وبعد ذلك يكون السّؤال. جاء في سورة الحِجْر[٥] قوله تعالى:﴿فوربّك لنسألنّهم أجمعين. عمّا كانوا يعملون﴾ فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

يُعْرَف المجرمون بعلامتهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون فتأخذهم ملائكة العذاب من شعور مقدّم رءوسهم وأقدامهم وتقذف بهم في أعماق النّار. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

يسعى المجرمون تباعاً بين نار جهنّم وبين ماءٍ شديد الحرارة شديد الغليان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

---

[١] تفسير الطّبري ٨٣/٢٧ والجلالين.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين.

[٤] الجلالين وتفسير الطّبري ٨٣/٢٧.

[٥] الآية ٩٢و٩٣.

(٤)

((نعوت جنّتي السّابقين))

الآيات (٤٦-٦١)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

ولمن خاف مقام ربّه جنّتان: ولمن خاف قيامه بين يديه للحساب فترك معصيته[1] عن أبي الدّرداء أنّه سمع رسول الله ﷺ يقصّ على المنبر وهو يقول: ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان ﴾قلت: وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ:﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنّتان﴾ فقلت الثّانية: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال:﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان﴾ فقلت الثّالثة وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال: وإن رغم أنف

[1] الجلالين وتفسير الطّبري ٨٤/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٦٧/٧.

أبي الدّرداء[1] روى البخاريّ[2] عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: جنّتان من فضّة آنيتهما ومافيهما. وجنّتان من ذهب آنيتهما ومافيهما. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداءُ الكبرياء على وجهه في جنّة عدن. قال ابن زيد: جنّتا السّابقين فقرأ: ﴿ذواتا أفنان﴾ فقرأ حتّى بلغ :﴿كأنّهنّ الياقوت والمرجان﴾ ثمّ رجع إلى أصحاب اليمين فقال: ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ فذكر فضلهما ومافيهما[3].

ذواتا: مثنّى ذوات– وهو مفرد في الأصل من غير حذف الواو– ولام ذوات ياء، وعينها واو، وفاؤها ذال، لأنّ الأصل ذوي– بياء في آخره– فيه إعلال لأنّ الياء تحرّكت وانفتح ماقبلها فقلبت ألفاً، ثمّ زيدت في آخره التّاء[4].

أفنان: أغصان، جمع فَنَن كطلل[5]

زوجان: نوعان[6] وضربان[7]

متّكئين: المراد بالاتّكاء هنا الاضطجاع[8]

بطائنها من إستبرق: بطائن هذه الفرش من غليظ الدّيباج. والإستبرق عند العرب ماغلظ من الدّيباج وخَشُن[1]

---

(1) تفسير ابن كثير ٤٨١/٧ و٤٧٧ وتفسير الطّبري ٨٥/٢٧.

(2) فتح الباري ٦٢٣/٨ حديث رقم ٤٨٧٨ و٤٢٣/١٣ حديث رقم ٧٤٤٤ وانظر ٦٢٤/٨ حديث رقم ٤٨٨٠.

(3) تفسير الطّبري ٨٥/٢٧.

(4) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣٢/١٢ والجلالين.

(5) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣٢/١٢ وتفسير الطّبري ٨٦/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٧٧/٧.

(6) الجلالين.

(7) تفسير الطّبري ٨٦/٢٧.

(8) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٧.

وجنى الجنّتين دان: وثمر الجنّتين الّذي يُجْتَنَى قريبٌ منهم لأنّهم لايتعبون بصعود نخلها وشجرها لاجتناء ثمرها[٢]

فيهنّ قاصرات الطّرف: في هذه الفرش النّساء الّلاتي قد قصر طرفهنّ على أزواجهنّ فلاينظرن إلى غيرهم من الرّجال[٣] والطّرف: العين[٤]

لم يطمثهنّ: لم يمسّهنّ[٥] ولم يجامعهنّ [٦] ولم يفتضّهنّ[٧]

كأنّهنّ الياقوت والمرجان: كأنّهنّ في صفائهنّ الياقوت الّذي يرى السّلك الّذي فيه من ورائه[٨] والمرجان: أي الّلؤلؤ بياضا[٩]

ولمن خاف القيام بين يدي ربّه عزّ وجلّ يوم القيامة، فعمل الطّاعات وترك المعصيات جنّتان اثنتان وليس جنّةً واحدةً فقط وما أجزل الثّواب لو كان جنّةً واحدة فكيف بالجنّتين. وهاتان الجنّتان للسّابقين. ونستطيع أن نفهم أنّ هاتين الجنّتين من ذهب، آنيتهما ومافيهما، على نحو ماجاء في الحديث الصّحيح . فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

وهاتان الجنّتان ذواتا أغصانٍ ممتدّةٍ ومثقّلةٍ بأنواع الثّمرات وأطيبها . فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

---

[١] تفسير الطّبري ٨٦/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري ٨٧/٢٧.

[٣] تفسير الطّبري ٨٧/٢٧.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير الطّبري ٨٧/٢٧.

[٦] تفسير الطّبري ٨٧/٢٧.

[٧] الجلالين.

[٨] تفسير الطّبري ٨٨/٢٧.

[٩] الجلالين وتفسير الطّبري ٨٨/٢٧و٨٩ وتفسير ابن كثير ٤٧٩/٧.

في هاتين الجنّتين عينا ماءٍ تجريان وتتدفّقان . فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

فيهما من كلّ أنواع الفواكه الّتي يعرفها المقرّبون والّتي لايعرفون صنفان ونوعان. وقد يكون المراد بالزّوجين الذّكر والأنثى. والله تعالى أعلم. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

مضطجعين على فرشٍ بطائنها من غليظ الدّيباج، وإذا كان باطن الفُرُش بهذا المستوى الرّفيع من الفخامة فكيف بظاهر تلك الفرش الّتي تبدو للعِيان وتقع عليها العينان. إنّها ينبغي أن تكون أرفع مستوًى جمالاً وجلالا. وثمار الجنّتين قريبةُ التّناول ينالها القائم والقاعد والمضطجع. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

في تلك الفرش زوجاتٌ قاصرات النّظر على أزواجهنّ ولاتتحوّل أبصارهنّ عن أزواجهنّ. ولم يتزوّج أولئك الأبكار العُرُب الأتراب إنسٌ قبل أولئك الأزواج ولا جانّ. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

كأنّ هؤلاء الزّوجات الياقوت صفاء أجساد، واللّؤلؤ بياض ألوان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

هل جزاء الإحسان بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة إلّا الإحسان بالخلود في نعيم الجنان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

(٥)

((نعوت جنّتي أصحاب اليمين))

الآيات (٦٢-٧٨)

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

ومن دونهما: في الفضل[١] فالأوليان للمقرّبين، والأخريان لأصحاب اليمين[٢]

جنّتان: من فضّة لأصحاب اليمين[٣]

مدهامّتان: خضراوان من الرّيّ، وإذا اشتدّت الخضرة ضربت إلى السّواد[٤]

نضّاختان: فوّارتان[٥]

فيهنّ: في الجنّتين ومافيهما[٦]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/٨٩.

[٢] تفسير ابن كثير ٧/٤٨١.

[٣] تفسير ابن كثير ٧/٤٨١.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/٩٠.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/٩٠.

[٦] الجلالين.

خيرات:جمع خيرة، وهي المرأة الصّالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه. قاله الجمهور، وروي مرفوعاً عن أمّ سلمة[١] قيل أصله خيّرات فخفّف، فالخيرات من النّساء الخيّرات. يقال رجلٌ خَيْرٌ وامرأةٌ خَيْرة، وهذا خير الرّجال وهذه خيرة النّساء[٢]

حسان: جمع حسناء[٣] أي هنّ حسان الوجوه[٤]

حور: شديدات سواد العيون وبياضها[٥] والمفرد حوراء[٦]

مقصورات: قد قصرن على أزواجهنّ فلايبغين بهم بدلاً ولايرفعن أطرافهنّ إلى غيرهم من الرّجال[٧] وقيل: مستورات[٨].

في الخيام: من درٍّ مجوّف مضافة إلى القصور شبيهة بالخدور[٩] عن أبي بكر بن عبدالله بن قيسٍ عن أبيه[١٠] أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ في الجنّة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوّفة عرضها ستّون ميلاً[١١] في كلّ زاويةٍ منها أهلٌ مايرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون[١٢]

على رفرف: جمع رفرفة أي بسط أو وسائد[١] جمع وِسادة[٢]

---

[١] تفسير ابن كثير ٤٨٢/٧.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"خير" ٢١٤/١.

[٣] المعجم الوسيط:"حسن"

[٤] انظر تفسير الطّبري٩١/٢٧.

[٥] الجلالين.

[٦] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حور" ١٧٨/١ والمعجم الوسيط:"حور"

[٧] تفسير الطّبري ٩٢/٢٧ وفتح الباري ٦٢٤/٨.

[٨] الجلالين.

[٩] الجلالين.

[١٠] هو أبو موسى الأشعري فتح الباري ٦٢٤/٨.

[١١] الميل: ثلث الفرسخ. فتح الباري ٦٢٥/٨.

[١٢] فتح الباري ٦٢٤/٨ حديث رقم ٤٨٧٩ وانظر صحيح مسلم ٢١٨٢/٤ حديث رقم ٢٨٣٨.

وعبقريّ: الطّنافس الثّخان والمفرد عبقريّة[٣] والطّنافس البسط والمفرد الطَّنْفِسَة[٤]

ومن دون الجنّتين السّابقتين في ا لفضل ورفيع الدّرجة جنّتان أخريان لأصحاب اليمين. وإذا كانت آنية الجنّتين السّابقتين، وهما للمقرّبين ، وكان ما فيهما من ذهبٍ كما جاء في الحديث الشّريف، فإنّ آنية هاتين الجنّتين وما فيهما من فضّة. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

هما جنّتان خضراوان تميلان إلى السّواد لفرط الرّيّ. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

في هاتين الجنّتين عينا ماءٍ فوّارتان. فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

في الجنّتين فاكهةٌ كثيرةٌ لامقطوعةٌ ولاممنوعة، وفيهما على جهة الخصوص نخلٌ ورمّان. والمعروف أنّ النّخل من كريم الشّجر عند العرب. والمعروف كذلك أنّ الرّمّان في بعض مناطق الجزيرة العربيّة، وبخاصّةٍ الطّائف وما جاورها من الأماكن، والطّائف يلقّب بحديقة مكّة المكرّمة، من أجود أنواع الرّمّان في الدّنيا، إن لم يكن الأجود فعلاً في الدّنيا كلّها. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

في الجنّتين ومالحق بهما من أماكن نساءٌ طيّباتٌ خُلقاً، حسانٌ خَلْقا. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

---

(١) الجلالين.

(٢) المعجم الوسيط:"وسد" والوسادة المخدّة.

(٣) تفسير الطّبري ٢٧/٩٥.

(٤) المعجم الوسيط:"طنفس" بفتح الطّاء ، وبفتح الفاء وكسرها .

هنّ حور، شديدات بياض العيون، شديدات سواد سواد العيون، مستوراتٌ في خيام اللّؤلؤ، قد قُصِرْن على أزواجهنّ، فلاينظرن إلى غيرهم، ولا يطمحن إلى سواهم. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

لم يتزوّج أولئك الحور المقصورات في الخيام قبل أزواجهنّ في الجنّة إنسٌ ولاجانّ. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

مضطجعين أجمعين على وسائد خضر، وبسطٍ ثخانٍ حسان. فبأيّ نعم ربّكما يامعشر الجنّ والإنس تكذّبان وتنكران.

تعالى وتمجّد اسم ربّك يامحمّد ويا أيّها الإنسان، الّذي ربّاك بنعمه، ذي الجلال والعظمة والكبرياء، وذي الإكرام والتّبجيل والإعظام الّذي ينبغي له من جميع خلقه، سبحانه، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

عن عائشة قالت: كان النّبيّ ﷺ إذا سلّم لم يقعد إلّا مقدار مايقول: اللّهمّ أنت السّلام ومنك السّلام تباركت ياذا الجلال والإكرام [1] والمعنى أنّ النّبيّ ﷺ إذا سلّم يبادر إلى الذّكر بعد الصّلاة ويقول: اللّهم...

مقارنة بين جنّتي السّابقين وجنّتي أصحاب اليمين:

للعلماء مقارناتٌ بين جنّتي السّابقين المقرّبين وبين جنّتي أصحاب اليمين. ومن الّذين فعلوا وأجادوا الإمام ابن كثير في تفسيره[2] رحمه الله تعالى رحمةً واسعة. ونحن نودّ بدورنا أن نوجز القول في هذا المضمار وذلك في هيئة نقاط:

---

[1] صحيح مسلم ٤١٤/١ حديث رقم ٥٩٢ وبشرح النّووي ٩٠/٥.

[2] تفسير ابن كثير ٤٨٥/٧.

١– كان حديث السّورة الكريمة عن جنّتي السّابقين سابقاً فدلّ السّبق على الفضل. وقد نصّت الآية الكريمة الثّانية والسّتّون على تأخّر جنّتي أصحاب اليمين رتبة. قال تعالى: ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ أي ومن دون الجنّتين السّابقتين في الفضل.

٢– خُتِم الحديث عن جنّتي السّابقين في الآية الكريمة السّتّين بالقول:﴿هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان﴾ والمعنى، هل جزاء الإحسان في الدّنيا بإخلاص العبادة لله تعالى في الحياة الدّنيا إلّا لإحسان في الآخرة بدخول جنّات النّعيم.

٣– جاء بشأن جنّتي السّابقين القول في الآية الكريمة الثّامنة والأربعين :﴿ذواتا أفنان﴾ أي ذواتا أغصان. وجاء بشأن جنّتي أصحاب اليمين في الآية الكريمة الرّابعة والسّتّين القول:﴿مدهامّتان﴾ أي شديدتا الخضرة من الرّيّ إلى حدّ السّواد. والحديث عن الأغصان يتجاوز هذا المستوى.

٤– جاء بشأن جنّتي السّابقين القول في الآية الكريمة الخمسين:﴿فيهما عينان تجريان﴾ وجاء بشأن جنّتي أصحاب اليمين القول في الآية الكريمة السّادسة والسّتين :﴿فيهما عينان نضّاختان﴾ أي فيهما عينان فوّارتان. وجري ماء العين يتجاوز هذه المرحلة من الفوران والفيض.

٥– جاء بشأن جنّتي السّابقين القول في الآية الكريمة الثّانية والخمسين:﴿فيهما من كلّ فاكهةٍ زوجان﴾ وجاء بشأن جنّتي أصحاب اليمين القول في الآية الكريمة الثّامنة والسّتّين:﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمّان﴾ إنّ هذه الفاكهة الكثيرة، وإن النّخل والرّمّان بعض فواكه جنّتي السّابقين.

٦– بطائن الفرش في جنّتي السّابقين من إستبرق أي من غليظ الدّيباج فكيف بما ظهر من الفرش. جاء في الآية الكريمة الرّابعة والخمسين القول:﴿متّكئين على فرشٍ بطائنها من إستبرق وجنّى الجنّتين دان﴾ وقد جاء في الآية الكريمة السّادسة والسّبعين وصف ظاهر

فرش جنّتي أصحاب اليمين. قال تعالى:﴿متّكئين على رفرفٍ خضرٍ وعبقريّ حسان﴾ أي على وسائد خضر الألوان، وبسطٍ حسان.

٧- الزّوجات في جنّتي السّابقين هنّ قاصرات الطّرف والبصر على أزواجهنّ. جاء في الآية الكريمة السّادسة والخمسين القول:﴿ فيهنّ قاصرات الطّرف لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ﴾ والزّوجات في جنّتي أصحاب اليمين قد قُصِرْن في الخيام. جاء في الآية الكريمة الثّانية والسّبعين القول:﴿ حورٌ مقصوراتٌ في الخيام﴾ .

٨- جاء في الآية الكريمة الثّامنة والخمسين بشأن زوجات السّابقين القول: ﴿ كأنهنّ الياقوت والمرجان﴾ أي كأنهنّ الياقوت صفاءً واللّؤلؤ بياضا. وليس لهذين النّعتين مقابلٌ بشأن زوجات أصحاب اليمين. وقد جاء في الآية الكريمة السّبعين وصف زوجات أصحاب اليمين بحسن الخُلُق والخَلْق. قال تعالى:﴿ فيهنّ خيراتٌ حسان﴾.

تعقيب:

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١–سورة الرّحمن من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ قبل الهجرة [١] وهذا رأي جمهور العلماء، والرّأي الرّاجح [٢] وهي في رأي بعضهم مدنيّة[٣]

٢– عدد آيات السّورة الكريمة ثمانٍ وسبعون آية. وعدد كلماتها ثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة. وعدد حروفها ألفٌ وثلاثمائة وستّة وثلاثون حرفاً [٤]

٣– روي عن عليّ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: لكلّ شيءٍ عروس. وعروس القرآن سورة الرّحمن [٥].

٤– جاءت الآية الكريمة:﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ إحدى وثلاثين مرّةً في السّورة الكريمة. ثمانٍ منها جاءت عقب آياتٍ فيها تعداد عجائب خلق الله تعالى وبدائع صنعه، وهي الآيات الكريمات ١٣و١٦و١٨و٢١و٢٣و٢٥و٢٨و٣٠ وسبعٌ عقب آياتٍ فيها ذكر الحساب والنّار وشدائدها، وهي الآيات الكريمات ٣٢و٣٤و٣٦و٣٨و٤٠و٤٢ و٤٥ وثمانٍ في وصف جنّتي المقرّبين وهي الآيات الكريمات ٤٧و٤٩و٥١و٥٣و٥٥و٥٧و٥٩و٦١ وثمانٍ في وصف جنّتي أصحاب اليمين، وهي الآيات الكريمات ٦٣و٦٥و٦٧و٦٩و٧١و٧٣و٧٥و.٧٧

---

[١] انظر تفسير ابن كثير ٤٦٣/٧ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٧٩/٢٧ والمحرّر الوجيز ٣١٩/١٥ والكشّاف ١٨٦/٣ والبحر المحيط ١٨٤/٨ وتفسير القرطبي ٦٣٢١ والجلالين.

[٢] انظر الأدلّة الّتي ذكرها القرطبيّ في تفسيره ٦٣٢١.

[٣] انظر الإتقان ٤٣/١ والمحرّر الوجيز ٣١٩/١٥ والكشّاف ١٨٦/٣ وتفسير القرطبي ٦٣٢١.

[٤] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٧٩/٢٧.

[٥] تفسير القرطبي ٦٣٢١.

٥- جاء القول:﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ للمرّة الأولى في الآية الكريمة الثّالثة عشرة، وذلك بعد ذكر العديد من نعم الله تعالى الّتي ينتفع بها الإنسان في المقام الأوّل. وفي مقدّمة هذه النّعم تعليم القرآن الكريم، وتعليم القراءة والكتابة ضمناً، وتعليم البيان والفصاحة. وقد اقترن بالأشياء صفاتها والمعاني متعلّقاتها. لقد اقترن الحساب بالشّمس والقمر، والسّجود بالنّبت والزّرع والشّجر. والسّماء مرفوعة. والأرض والعدل موضوعان. وفي الأرض فاكهةٌ، ونخلٌ ويجمع ثمره بين كونه فاكهةً وغذاء، وحبٌّ وهو الغذاء الرّئيس، وريحانٌ يُشمّ ويعطّر الأجواء. وإنّ الحديث عن النّبات والزّرع والشّجر والأنواع المختلفة من الثّمار مهيّءٌ للحديث عن أنواع جنّات الآخرة. ومن أهمّ مايلاحظ على الآيات الكريمات ثنائيّة المعاني.

٦- في القسم الثّاني الّذي ينتهي بالآية الكريمة الخامسة والعشرين تعميقٌ لبعض المعاني السّابقة وتفصيلٌ لبعض الجوانب، هذا إلى الثّنائيّة الواضحة بشأن المعاني. إنّ الإنسان خُلِق من صلصالٍ كالفخّار. وإنّ الجانّ خُلِق من لهب النّار وخالصها. وإنّ مشارق الشمس ومغاربها شتاءً وصيفاً يعبّر عنها بالمشرقين والمغربين. وثمّة البحران العذب الفرات والملح الأجاج. وهذان البحران يلتقيان حينما يشاء الله تعالى ذلك، وبينهما حاجزٌ طبيعيٌّ فهما لايبغي أحدهما على الآخر. ويخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان. والسّفن الّتي تجري في البحر كالجبال. وهكذا يكون تبيينٌ للمعاني وتفصيلٌ للنّعم.

٧- وفي القسم الثّالث الّذي ينتهي بالآية الكريمة الخامسة والأربعين يكون الحديث عن فناء الخلق وعن حساب الخلق وكونهم في قبضة الحقّ جلّ وعلا الحيّ القيّوم، وعن عذاب الّذين يظنّون أنّهم يستطيعون أن يخرجوا من أقطار السّماوات والأرض ويفرّوا من الموت وهيهات،وعن دخول المجرمين النّار وخلودهم فيها. وسبق أن أشارت الآية الكريمة السّادسة من السّورة الكريمة إلى سجود النّبات والشّجر لله تعالى وهما نباتٌ ولاعقل له. والعقل مناط التّكليف. والعجيب أنّ المكلّف ذا العقل لايفرد الله تعالى بالعبادة. وثنائيّة

المعاني واضحة. إنّ الخلق ميّتون وإن وجه الله تعالى باق. والحساب يوم القيامة يكون للثّقلين الإنس والجنّ. والجنّ والإنس إن استطاعوا أن يخرجوا من نواحي السّماوات والأرض فليفعلوا. إنّهم لايفعلون ذلك إلّا بقوّة وليس لديهم تلك القوّة . ويرسل عليهما خالص النّار وذائب الصُّفْر فلاينتصران. إنّ ثمّة ناراً ونحاساً. وإنّ ثمّة عمليّةَ إرسال للنّار والنّحاس وهزيمةً للإنس والجنّ. والسّماء تنشقّ، وتكون في حمرة الورد وصفاء الدّهن. إنّ ثمّة ورداً ودهنا. وإنّ ثمّة سماءً وانشقاقا. ووقت قيام السّاعة لايُسْأل عن ذنبه الإنس والجنّ. والمجرمون يعرفون بعلاماتهم. ويؤخذ بنواصيهم وأقدامهم إلى النّار. وإنّ جهنّم الّتي يكذّب بها المجرمون سوف يسعون بينها وبين ماءٍ بلغ الغاية في درجة الحرارة والغَلَيان.

وهكذا يتجلّى الإنذار واضحاً للمجرمين الّذين يعطّلون نعمة العقل فلايسجدون لله تعالى الّذي يسجد له كلّ من في السّماوات والأرض. ومن هؤلاء السّاجدين لله تعالى النّبات الّذي لاساق له، والنّبات الّذي له ساق كالنّخل والشّجر.

٨- وفي القسم الرّابع الّذي ينتهي بالآية الكريمة الحادية والسّتّين يكون الحديث عن نعوت جنّتي السّابقين المقرّبين. وهكذا يكون في السّورة بشارةٌ بالجنّة بعد إنذارٍ بالنّار. وتتجلّى ثنائيّة المعاني في نعت الجنّتين. إنّ من خاف القيام بين يدي الله تعالى يوم القيامة له جنّتان اثنتان. وهما ذواتا أغصانٍ وارفة. وفي الجنّتين عينان تجريان، ومن كلّ فاكهةٍ نوعان اثنان. وهم متّكئون على فرش، وبطائن تلك الفرش من غليظ الدّيباج. وللجنّتين ثمر. وثمرها قريب التّناول. وفي الجنّتين زوجات. وهنّ قاصرات الطّرف على أزواجهنّ. وأولئك الزّوجات لم يتزوجهنّ أحدٌ من قبل، لامن الإنس ولامن الجنّ. وهنّ يشبهن الياقوت صفاء واللّؤلؤ بياضا. وإنّ إحسان العباد في الدّنيا جزاؤه إحسان ربّ العباد إليهم في الآخرة.

ونحن في غنًى عن القول إنّ أهمّ مقوّمات النّعيم في الجنّتين قد جاء ذكرها في الآيات الكريمات. ويتوّج ذلك النّعيم بمزيد الإحسان من الرّبّ الكريم جلّ وعلا وذلك

برؤية وجه الرّبّ الكريم المفهوم ضمناً. وممّا يؤيّد هذه الزّيادة على الحُسْنى ويؤكّدها مجيء الإشارة إلى وجه الرّبّ الكريم مرّتين اثنتين في السّورة الكريمة.

٩- وفي القسم الخامس الّذي ينتهي بنهاية السّورة الكريمة والآية الكريمة الثّامنة والسّبعين يكون الحديث عن نعوت جنّتي أصحاب اليمين. وهكذا تتأكّد البشارة في السّورة الكريمة بحيث إنّا يصحّ أن نقول إنّ طابع البشارة يغلب على السّورة الكريمة. إنّ الحديث عن الجنان الأربع يجيء في ثلاثٍ وثلاثين آيةً كريمة. وتتجلّى ثنائيّة المعاني في نعت الجنّتين. إنّهما جنّتان اثنتان دون الجنتين السّابقتين منزلة. وهما جنّتان خضراوان. وفيهما عينا ماءٍ فوّارتان. وفيهما فاكهةٌ عموماً، نخلٌ ورمّانٌ خصوصاً. والزّوجات طيّبات خُلُقاً، طيّباتٌ خَلْقا. هنّ جميلات الأعين، مصوناتٌ في خيام اللّؤلؤ. هنّ أبكار. ولم يتزوجهنّ من قبل إنسٌ ولا جنّ. وهم مضطجعون على وسائد خضر وبسطٍ حسان. تعظّم اسم الله تعالى، ذي العظمة وذي الإكرام من جميع خلقه.

١٠- جاء في السّورة الكريمة ثلاث فواصل هي النّون في تسعٍ وستّين آيةً كريمة، والميم في سبع آياتٍ كريمات هي ١٠و١١و٢٤و٢٧و٤١و٧٢و٧٨ والرّاء في آيتين كريمتين هما الرّابعة عشرة والخامسة عشرة.

١١- ظاهرة تلاؤم الأصوات في السّورة الكريمة فريدةٌ من نوعها وتتمشّى مع الآية الكريمة الأولى:﴿الرّحمن﴾

١٢- نعم الله تعالى الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة في الأولى والآخرة لاتُعَدُّ ولاتُحْصَى ، وهي مبثوثةٌ في السّورة الكريمة من أوّلها إلى آخرها.

١٣- سبق أن بيّنا تحت عنوان:" بين يدي السّورة " وحدتها العضويّة في شيءٍ من التّفصيل، وأكّدنا هذا المعنى في حديثنا في التّعقيب عن ترابط المعاني في السّورة الكريمة وعن ثنائيّة هذه المعاني. ويصحّ أن نوجز الحديث هنا عن الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة.

إنّها تتحدّث في صدرها عن نعم الله تعالى على المخلوقات، وعن خلق الله تعالى هذا الكون الفسيح، وعن تسخيره عزّ وجلّ مافي السّماوات والأرض لعباده. ومصير كلّ ماعلى الأرض فانٍ ويبقى وجه الله تعالى ذو الجلال والإكرام.

وتتحوّل الآيات الكريمات إلى تدبير الله تعالى ملكوت السّماوات والأرض، وإلى مقابلة جنس الإنس والجنّ إحسان الله تعالى إليهما بالكفران غالباً، ومن مظاهر ذلك ظنّ بعضهم أنّ بمقدورهم أن يحاولوا الخروج من أقطار السّماوات والأرض والفرار من الموت. إنّ مصير الكافرين النّار. ويكون ثمّة حديثٌ عن ملابسات قيام السّاعة ودخول الكافرين النّار.

وفي مقابل الحديث عن النّار وأهلها ثمّة الحديث بعد ذلك عن السّابقين المقرّبين، وعن نعوت جنّتيهم، والحديث عن أصحاب اليمين، وعن نعوت جنّتيهم.

وهكذا تأخذ حلقات المعاني بحُجَز بعض، وتتبيّن الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

سادساً: سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا
ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا
أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾
مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا
سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ
مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ
وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا
﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ
الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ
مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا

يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ
﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ
نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ
أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ
لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾

وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ
تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ
مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾
فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ
مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ
حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((القيامة حينما تقوم تخفض الكافرين وترفع المؤمنين، وترتجّ الأرض وتكون الجبال هباءً منثورا))

الآيات (١-٧)

إذا قامت القيامة ليس لقيامها نفسٌ واحدةٌ مكذِّبةٌ تنفيها كما نفت في الدّنيا. هي خافضةٌ للكافرين وإن كانوا أعزّاء في الدّنيا، رافعةٌ للمؤمنين وإن كانوا بسطاء في الدّنيا. إذا قامت القيامة رُجَّت الأرض رجّا، وزلزلت زلزالاً عنيفا، وفتّت الجبال فتّاً فكانت كثيباً مهيلا، وهباءً منثورا، وكان النّاس أصنافاً ثلاثة، سابقين مقرّبين، وأصحاب يمين، ومكذّبين ضالّين.

(٢)

((السّابقون المقرّبون في جنّات النّعيم))

الآيات (٨- ٢٦)

إذا قامت القيامة كنتم أيّها النّاس أنواعاً ثلاثة. فأصحابُ الميمنة الّذين يؤتون كتبهم بأيمانهم والّذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة ما أجلّ شأنهم وماأعظم ثوابهم. وأصحابُ المشأمة الّذين يؤتون كتبهم بشمائلهم إلى النّار ماأهون شأنهم وماأعظم عذابهم. والسّابقون السّابقون من المرسلين والنّبيّين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه، ومن الصّديقين والشّهداء والصّالحين، أولئك الّذين يقرّبهم الله تعالى يوم القيامة إلى جواره. إنّهم في جنّات النّعيم. جماعةٌ كثيرةٌ من هؤلاء من صدر هذه الأمّة والقرون المفضّلة، وقليلٌ من هؤلاء من آخرى هذه الأمّة. إنّهم على سررٍ منسوجةٍ بالذّهب مشبّكةٍ باللّؤلؤ والياقوت وسائر الجواهر، مضطجعين عليها متقابلين يرى بعضهم وجوه بعض. يطوف عليهم للخدمة ولدانٌ مخلّدون بمختلف آنية الشّراب، من أكوابٍ مستديرة الرّءوس لاعُرَى لها، إلى أباريق لها آذانٌ وخراطيم، إلى كئوسٍ ممتلئةٍ من أنهارٍ متدفّقةٍ بخمرٍ لذّةٍ للشاربين. وخمر

الآخرة لاينتج عن شربها صداع رأس ولا ذهاب عقل. كما يطوف عليهم الولدان المخلّدون بفاكهةٍ ممّا يتخيّرون، ولحم طيرٍ ممّا يشتهون، دليلاً على النّعيم والتَّرف.

ولأولئك السّابقين المقرّبين زوجاتٌ شديداتُ بياض الأعين شديدات سوادها، واسعات الأعين في حُسْن. إنّهن يشبهن اللّؤلؤ المستور في صدفه، نقاء لون ، وبياض بشرة. أثاب الله تعالى السّابقين المقرّبين جزاءً بما كانوا يعملون في الحياة الدّنيا من صالح الأعمال. إنّهم لايسمعون في الجنّة باطل القول، وليس فيها مايجعلهم يأثمون. إنّهم لايسمعون إلّا سلاماً قولاً من ربٍّ رحيم على ألسنة الملائكة الأطهار، وإلّا سلام بعضهم على بعض بمعنى الطّمأنينة والأمن.

(٣)

((أصحاب اليمين وثوابهم الجزيل))

الآيات (٢٧-٤٠)

وأصحاب اليمين الّذين يؤتون كتب أعمالهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة، وهم الأبرار ، ما أصحاب اليمين، وماأجلّ شأنهم وأجزل ثوابهم . ومنزلة أصحاب اليمين دون منزلة السّابقين المقرّبين. إنّهم في ثمر سدرٍ لاشوك فيه وهو النَّبق، وموزٍ قد رتّب في شجره صفوفاً متناسقة من أسفله إلى أعلاه، وظلّ ممدودٍ دائمٍ مثل الظّلّ في الوقت بين طلوع الفجر وطلوع الشّمس، وماءٍ مصبوبٍ على الأرض يجري دون أخدود، وفاكهةٍ كثيرةِ الأنواع والكمّيّات، غير مقطوعةٍ بزمن، ولا ممنوعةٍ بثمن، وفرشٍ مرفوعةٍ على الأسرّة غايةٍ في الحسن، والنّعومة، والفخامة.

أمّا زوجات الأبرار في الجنّة فإنّا أنشأناهنّ خلقاً جديداً من الحور العين ومن نساء الدّنيا، فجعلناهنّ غير متزوّجاتٍ من قبل، متحبّباتٍ إلى أزواجهنّ ، متساوياتٍ في السِّنّ.

إنّ الله تعالى خلقهنّ للأبرار أصحاب اليمين. والأبرار من هذه الأمّة جماعةٌ كبيرةٌ من أوّلى هذه الأمّة ومن آخرها.

(٤)

((أصحاب الشّمال وعذابهم الأليم في نار الجحيم))

الآيات (٤١-٥٦)

وأصحاب الشّمال الّذين يؤتون كتب أعمالهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال إلى النّار وبئس القرار ماأهون شأنهم وأعظم عذابهم. إنّهم في ريحٍ من النّار تنفذ في مسامّهم، وفي ماءٍ شديد الغليان، وفي ظلٍّ من دخان شديد السّواد، لا بارد المنزل، ولا حسن المنظر. إنّهم كانوا قبل ذلك في الدّنيا مترفين مقبلين على المعاصي، وكانوا يصرّون على الذّنب العظيم الّذي لايغفره الله تعالى وهو الشّرك. وكانوا يقولون على سبيل الاستهزاء أئذامتنا وكنّا تراباً في قبورنا وعظاماً أئنّا لمبعوثون خلقاً جديد ! أو آباؤنا الأوّلون لمبعوثون كذلك ! إنّا لانصدّق بشيءٍ من ذلك.

قل يامحمّد لأولئك المنكرين للبعث: إنّ الأوّلين من بني آدم والآخرين لمجموعون إلى وقت يوم القيامة المعلوم للحساب والجزاء. ثمّ إنّكم أيّها الضّالّون المكذّبون من أهل مكّة وسواهم، لآكلون من شجرة الزّقّوم الكريهة الطّعم، فمالئون من تلك الشّجرة البطون. فشاربون على ذلك الطّعام الكريه الطّعم الماء الشّديد الحرارة والغليان، فشاربون شرب الإبل الّتي أصابها داء العطش فلا تزال تشرب ولاترتوي حتّى تهلك. إنّ هذا هو الطّعام المعدّ لهم في النّار وبئس القرار.

(٥)

((بعض الأدلّة على قدرة الله تعالى على البعث))

الآيات (٥٧-٧٤)

نحن خلقناكم أيّها المكذّبون الضّالون فهلّا تصدّقون بالبعث مستدلّين. بِخَلْقِنا لكم أوّل مرّة. أفرأيتم ماتُمْنون وتصبّون في أرحام نسائكم، أأنتم تخلقونه بشراً سويّاً أم نحن الخالقون. نحن قدّرنا بينكم الموت فمنكم السّابق ومنكم اللّاحق ومانحن بعاجزين ولامسبوقين على أن نبدّل أمثالكم، ونغيّر خلقكم يوم القيامة، وننشئكم فيما لاتعلمون من الصّفات والأحوال والصّور. ولقد علمتم النّشأة الأولى فهلّا تذكّركم النّشأة الأولى بالنّشأة الآخرة وتستدلّون بالأولى على الآخرة. أفرأيتم الأرض الّتي تحرثونها بإثارتها ووضع البذور فيها. أأنتم تنبتون الزّرع أم نحن الزّارعون . لو نشاء لجعلناه هشيماً لايُنْتَفَعُ به في مَطْعَمٍ وغذاء فظللتم تتعجّبون ممّا حلّ بكم وتقولون أئنّا لخاسرون نفقة زرعنا. بل الحقيقة أنّا ممنوعون من رزقنا ومحرومون منه. أفرأيتم الماء العذب الفرات الّذي تشربونه. أأنتم أنزلتموه من السّحاب أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه ملحاً مرّاً فهلّا تشكرون الله تعالى على نعمه العظيمة عليكم بإفراده بالعبادة. أفرأيتم النّار الّتي توقدونها. أأنتم أنشأتم شجرتها كالمرخ والعَفار اللّذين يتولّد الشّرر من حكّ غصنيهما الأخضرين ببعضهما أم نحن المنشئون. نحن جعلنا نار الدّنيا تذكرةً لكم تذكرون بها نار الآخرة ومنفعةً للمسافرين في القفار على جهة الخصوص حينما تشتدّ حاجتهم للنّار ، وللضّوء ، والطّعام، والتّدفئة وما إلى ذلك. فنزّه أيّها الإنسان ربّك العظيم عن كلّ ما ألحقه الظّالمون به ممّا لا يليق بجلاله وقل: سبحان ربّي العظيم، وأفرده عزّ وجلّ بالعبادة، واعمل في دنياك لآخرتك.

(٦)

((كفّار مكّة المكذّبون للقرآن الكريم هلّا إذ أنكروا البعث دفعوا عن أنفسهم الموت المفضي إلى البعث، وثواب المؤمنين ، وعقاب الكافرين))

الآيات (٧٥-٩٦)

يقسم الحقّ جلّ وعلا بمواقع النّجوم الّتي لايعلم عَدَدَها ومواقعها إلّا الله تعالى. وإنّ القَسَمَ بمواقع النّجوم قَسَمٌ عظيم لو يعلم المخاطبون عظمته لعظّموا المقسم به عليه وهو القرآن الكريم العظيم عند الله تعالى وعند المؤمنين. إنّ هذا المتلوّ عليكم أيّها النّاس لقرآنٌ كريمٌ عظيم، مكتوبٌ في كتابٍ مصونٍ هو المصحف الشّريف. لايمسّه إلّا المطهّرون من الجنابة والحَدَث. إنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين.

أفبهذا الحديث أنتم ياأهل مكّة مكذّبون. وتجعلون رزق الله تعالى لكم تكذيباً لكتابه الكريم، ولرسوله العظيم، وشركاً به عزّ وجلّ، بدلاً من التّصديق والتّوحيد. فهلّا إذا بلغت الرّوح ساعة الاحتضار الحُلقوم ومجرى الطعام والشّراب والنَّفَسَ، وأنتم ياحاضري الميّت تنظرون حينئذٍ إليه. ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا الّذين يتوفّونه ولكنّكم لاترونهم بأعينكم. فهلّا إن كنتم حسب زعمكم غير محاسبين بعد البعث، ترجعون الرّوح إلى الجسد إن كنتم صادقين في زعمكم أنّه لابعث بعد الموت. إنّ الموت سببٌ للبعث، وقد نفيتم البعث وهو المسبَّب فانفوا الموت وهو السَّبب. إنّ في ثبوت الموت وهو السّبب ، دليلاً على ثبوت المسبَّب وهو البعث.

فأمّا إن كان الميّت من الّذين قربّهم الله تعالى إلى جواره فله راحةٌ وريحانٌ من الجنّة يشمّه وجنّة نعيم. وأمّا إن كان من أصحاب اليمين الأبرار. فسلامٌ لك من الله تعالى يبلغك، ومن الملائكة الأطهار، ومن إخوانك المؤمنين. أنت من أصحاب اليمين الّذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى جنّات النّعيم. وأمّا إن كان من المكذّبين الضّالين عن سواء السّبيل فالّذي يُعَدُّ له الماء الشّديد الحرارة، ونار جهنّم الّتي تحرقه.

إنّ هذا الخبر المتعلّق بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين لهو الحقّ الّذي لاشكّ فيه. فسبّح يامحمّد ويا أيّها الإنسان باسم ربّك العظيم بقول سبحان الله العظيم، وبجميع أسمائه عزّ وجلّ الحُسْنَى وصفاته العلى.

التّفسير

(١)

((القيامة حينما تقوم تخفض الكافرين وترفع المؤمنين، وترتجّ الأرض وتكون الجبال هباءً منثورا))

الآيات (١-٧)

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

إذا وقعت الواقعة: إذا قامت القيامة[١] والواقعة والطّامّة والصّاخّة ونحو هذا، مِنْ أسماء القيامة[٢] وسمّيت الواقعة لتحقّق كونها ووجودها[٣] وقد جاءت على وزن اسم الفاعل، والتّاء للمبالغة[٤]

ليس لوقعتها: وقعة مصدر مرّة من الثّلاثيّ وقع[٥]

كاذبة: نفسٌ تكذّب بأن تنفيها كما نفتها في الدّنيا[٦]

خافضةٌ رافعة: أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدّنيا أعزّاء. وترفع آخرين إلى أعلى عليّين إلى النّعيم المقيم، وإن كانوا في الدّنيا وُضَعاء[٧]

إذا قامت القيامة الّتي لاشكّ في وقوعها، ليس ثمّة نفسٌ تكذّب بها وتنفي قيامها. هي خافضةٌ في قعر الجحيم أصحاب النّار، وإن كانوا في الدّنيا أعزّاء، وهي رافعةٌ في أعلى علّيّين أصحاب الجنّة، وإن كانوا في الدّنيا بُسَطاء.

---

[١] الجلالين.

[٢] تفسير الطّبري ٩٦/٢٧.

[٣] تفسير ابن كثير ٤٨٨/٧.

[٤] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣٨/١٢.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣٨/١٢.

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٨٨/٧.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧﴾

إذا رجّت الأرض رجّا: إذا زلزلت الأرض زلزالاً[١] وحرّكت حركةً شديدة[٢]

وبسّت الجبال بسّا: وفتّتت الجبال فتّا[٣] قال ابن زيد: صارت الجبال كما قال تعالى[٤]:﴿كثيباً مهيلا﴾[٥]

فكانت هباءً منبثّا: الهباء شعاع الشّمس الّذي يدخل من الكوّة كهيئة الغبار[٦] منبثّا: متفرّقاً[٧] منتشرا[٨]

وكنتم أزواجاً ثلاثة: وكنتم أنواعاً ثلاثة[٩] وأصنافاً ثلاثة[١٠]

إذا قامت القيامة زلزلت الأرض زِلْزالاً ورُجَّت رجّةً شديدة، وفتّت الجبال فتّا، فأصبحت كالكثيب من الرّمل الّذي حُرِّك أسفله فتساقط من أعلاه ، وغدت هباءً متفرّقاً وكشعاع الشّمس الّذي يدخل من الكوّة كهيئة الغبار المنتشر، وكنتم أصنافاً ثلاثة سابقين مقرّبين ، وأصحاب يمين، ومكذّبين ضالّين.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٧/٩٦ وتفسير ابن كثير ٧/٤٨٩.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٢٧/٩٧.

(٤) سورة المزّمّل ١٤.

(٥) تفسير الطّبري ٢٧/٩٧ وتفسير ابن كثير ٧/٤٨٩.

(٦) تفسير الطّبري ٢٧/٩٧.

(٧) تفسير الطّبري ٢٧/٩٧.

(٨) الجلالين.

(٩) تفسير الطّبري ٢٧/٩٧.

(١٠) تفسير ابن كثير ٧/٤٩٠.

(٢)

((السّابقون المقرّبون في جنّات النّعيم))

الآيات (٨-٢٦)

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

فأصحاب الميمنة: أصحاب اليمين الّذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين [١] إلى الجنّة[٢]

ماأصحاب الميمنة: ما اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ ثان[٣] تعظيمٌ لشأنهم بدخول الجنّة[٤]

وأصحاب المشأمة: أصحاب الشّمال الّذين يؤتون كتبهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال [٥] إلى النّار[٦] والعرب تسمّى اليد اليسرى الشُّؤْمَى[٧] والشّؤمى مؤنّث الأشأم بمعنى المشئوم[٨].

ماأصحاب المشأمة: تحقيرٌ لشأنهم بدخولهم النّار[٩]

---

[١] تفسير ابن كثير ٤٨٩/٧.

[٢] تفسير الطّبري ٩٨/٢٧.

[٣] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣٩/١٢.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير ابن كثير ٤٨٩/٧.

[٦] تفسير الطّبري ٩٨/٢٧.

[٧] تفسير الطّبري ٩٨/٢٧.

[٨] المعجم الوسيط:"شأم"

[٩] الجلالين.

والسّابقون السّابقون: السّابقون الثّاني توكيدٌ للأوّل مرفوع[1] وهم أخصّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين. وفيهم الرّسل والأنبياء والصّدّيقون والشّهداء. وهم أقلّ عدداً من أصحاب اليمين[2]

أولئك المقرّبون: أولئك الّذين يقرّبهم الله منه يوم القيامة إذا أدخلهم الجنّة[3]

وكنتم أيّها النّاس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة. فأصحاب الميمنة الّذين يؤتون كتب أعمالهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة ما أجلّ قدرهم وأعظم شأنهم. وأصحاب المشأمة الّذين يؤتون كتب أعمالهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال إلى النّار ما أهون قدرهم وأحطّ شأنهم. والسّابقون غيرهم إلى الخيرات السّابقون غيرهم في الجنّة إلى رفيع الدّرجات، أولئك الّذين يقرّبهم الله تعالى منه يوم القيامة إذا أدخلهم جنّات النّعيم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

ثلّة: جماعة[4]

من الأوّلين: من صدر هذه الأمّة[1]

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٤٠.

[2] تفسير ابن كثير ٧/٤٨٩.

[3] تفسير الطّبري ٢٧/٩٩.

[4] تفسير الطّبري ٢٧/٩٩.

وقليلٌ من الآخرين :أي من هذه الأمّة[٢]

على سررٍ موضونة: منسوجة[٣] بالذّهب واللّؤلؤ[٤] والجواهر[٥] والياقوت[٦]

بأكواب: جمع كوب بضمّ الكاف. والكوب قدحٌ من الزّجاج ونحوه مستدير الرّأس لاعروة له، وهو من آنية الشّراب[٧]

وأباريق: جمع إبريق، وهو وِعاءٌ له أُذُن وخُرْطوم يصبّ منه السّائل[٨]

وكأس: وكأس خمر[٩]

من معين: من عيونٍ سارحة[١٠] وشرابٍ ظاهرٍ للعيون جار[١١]

لايصدّعون عنها: لاتصدع رءوسهم عن شربها فتسكر[١٢]

ولايُنْزِفون: ولاتنزف عقولهم ولاتذهب بها[١٣] يقال : نزف الماء نزحه كلّه من البئر شيئاً بعد شيء[١٤]

---

[١] تفسير ابن كثير ٤٩٢/٧.

[٢] تفسير ابن كثير ٤٩٢/٧.

[٣] تفسير الطّبري ٩٩/٢٧.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٩٥/٧.

[٥] تفسير الطّبري ٩٩/٢٧ والجلالين.

[٦] تفسير الطّبري ٩٩/٢٧.

[٧] المعجم الوسيط:"كوب"

[٨] المعجم الوسيط :"الإبريق"

[٩] تفسير الطّبري ١٠٠/٢٧.

[١٠] تفسير ابن كثير ٤٩٥/٧.

[١١] تفسير الطّبري ١٠٠/٢٧.

[١٢] تفسير الطّبري ١٠١/٢٧.

[١٣] تفسير الطّبري ١٠١/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤٩٥/٧ والجلالين.

[١٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"نزف"٦٣١/٢.

وحور: معطوف على ولدان، أو مبتدأ مرفوع خبره محذوفٌ مقدّم تقديره لهم حورٌ عين أو عندهم حورٌ عين[1] والحور جمع حوراء وهي النّقيّة بياض العين الشّديدة سوادها[2].

عين: جمع عيناء وهي النّجلاء العين في حُسْن[3]

كأمثال اللّؤلؤ المكنون: هنّ في صفاء بياضهنّ وحسنهنّ كاللّؤلؤ المكنون الّذي قد صين في كِنّ [4] والكِنّ، بكسر الكاف ، مايُحْفَظ فيه الشّيء[5]

لغواً: باطلاً من القول[6]

ولا تأثيما: ليس فيها مايؤثمهم[7]

إلّا قيلاً سلاماً سلاما: إلّا قولاً[8] أي ولكنّهم يسمعون سلاماً سلاماً[9] سلاماً بدل من قيلا منصوب. سلاماً الثّاني توكيدٌ لفظيّ للأوّل منصوب مثله[10] يقول: لايسمعون فيها من القول إلّا قيلاً سلاما، أي اسلم ممّا تكره[11] أو إلّا التّسليم منهم بعضهم على

---

[1] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٤١/١١ وتفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[2] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[3] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[4] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[5] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"كن: ٥٦٩/٢.

[6] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[7] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

[8] الجلالين.

[9] تفسير الطّبري ١٠٣/٢٧.

[10] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٤١/١٢ وانظر الجلالين.

[11] تفسير الطّبري ١٠٢/٢٧.

بعض[١] والسّلام يكون من الخلق بالقول، ومن الله تعالى بالفعل، وهو إعطاؤهم مايكون في الجنّة من السّلامة[٢]

جماعةٌ من السّابقين المقرّبين في جنّات النّعيم، وهم جماعةٌ من الأوّلين ومن خير قرون هذه الأمّة، وقليلٌ من الآخِرين زمناً. وهذا المعنى يبيّنه الحديث الصّحيح ويؤكدّه. روى الإمام البخاري[٣] عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: خير أمّتي قرني، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم. قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا.

والمشهور أنّ القرن مائة عام[٤] وهكذا يكون السّابقون المقرّبون كثيرين في القرون المفضّلة، قليلين بعد ذلك.

والسّابقون المقرّبون يكونون في جنّات النّعيم على سررٍ منسوجة بالذّهب واللّؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، مضطجعين على تلك السّرر متقابلين يرى بعضهم وجوه بعض. يطوف عليهم للخدمة ولدانٌ مخلّدون، بمختلف آنية الشّراب، من أكوابٍ مستديرة الرّءوس لا آذان لها، إلى أباريق لها خراطيم وآذان، إلى كئوسٍ تُفْعَم من أنهارٍ متدفّقة بخمرٍ لذّةٍ للشّاربين. وخمر الجنّة الّتي يشربها السّابقون المقرّبون لا ينتج عن شربها صداع رأس، ولا ذهاب عقل. كما يطوف الولدان عليهم بأنواع الفاكهة الّتي يتخيّرون، وأصناف اللّحم الّذي يشتهون.

---

[١] تفسير ابن كثير ٤٩٩/٧.

[٢] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"سلم" ٣١٦/١.

[٣] فتح الباري ٧/ ٣ حديث رقم ٣٦٥٠ وانظر حديث رقم ٣٦٥١.

[٤] فتح الباري ٥/٧.

ولأولئك السّابقين المقرّبين زوجاتٌ شديدات بياض الأعين وسوادها، واسعات الأعين في حُسْن. إنّهنّ مصوناتٌ كأمثال اللّؤلؤ المستور في صَدَفه، صفاء لون، وبياض بشرة.

أثاب الله تعالى السّابقين المقرّبين جزاءً بما كانوا يعملون في الدّنيا من صالح الأعمال. إنّهم لايسمعون في الجنّة باطلاً من القول، وليس فيها مايجعلهم يأثمون. إنّهم لايسمعون إلّا قولاً سلاماً سلاما. إنّهم يسلّم بعضهم على بعض، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب. سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار﴾ [1] :﴿ لهم فيها فاكهةٌ ولهم مايدّعون. سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾[2].

---

[1] سورة الرّعد ٢٣و٢٤.

[2] سورة يس ٥٧و٥٨.

(٣)

((أصحاب اليمين وثوابهم الجزيل))

الآيات(٢٧-٤٠)

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤﴾

وأصحاب اليمين: هم الّذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين الّذين أعطوا كتبهم بأيمانهم [١] وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلة دون المقرّبين[٢]

ما أصحاب اليمين: أيّ شيءٍ هم ومالهم وماذا أعدّ لهم من الخير[٣]

في سدر: في ثمر سدر[٤] والسّدر شجر النَّبِق[٥]

مخضود: لاشوك فيه[٦]

وطلح: وموز [٧]

منضود: مصفوف [٨] قد نُضِد بعضه على بعض،

---

[١] تفسير الطّبري ١٠٣/٢٧.

[٢] تفسير ابن كثير ٣/٨.

[٣] تفسير الطّبري ١٠٣/٢٧.

[٤] تفسير الطّبري ١٠٣/٢٧.

[٥] الجلالين.

[٦] تفسير الطّبري ١٠٣/٢٧ وتفسير ابن كثير ٣/٨ والجلالين.

[٧] تفسير الطّبري ١٠٤/٢٧ وتفسير ابن كثير ٤/٨ والجلالين.

[٨] تفسير ابن كثير ٤/٨.

وجمع بعضه إلى بعض[١] وضمّ بعضه إلى بعض في تناسق[٢] ونُضِد شجر الموز بالحَمْل من أسفله إلى أعلاه[٣].

وظلٍّ ممدود: دائم لاتنسخه الشّمس فتذهبه[٤] روى البخاريّ[٥] عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ في الجنّة شجرةً يسير الرّاكب في ظلّها مائة عامٍ لايقطعها. واقرأوا إنّ شئتم :﴿ وظلٍّ ممدود﴾

وعلّق ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً على الحديث فقال[٦]:((فهذا حديثٌ ثابتٌ عن رسول الله ﷺ، بل متواترٌ مقطوعٌ بصحّته عند أئمّة الحديث النّقّاد، لتعدّد طرقه، وقوّة أسانيده، وثقة رجاله))

وماءٍ مسكوب: مصبوب سائل يجري في غير أُخْدُود[٧]

لامقطوعة: لاينقطع عنهم شيءٌ منها أرادوه في وقتٍ من الأوقات كما تنقطع فواكه الصّيف في الشّتاء في الدّنيا[٨]

ولاممنوعة: ولايمنعهم منها ولايحول بينهم وبينها شوكٌ على أشجارها ، أو بعدها منهم، كما تمتنع فواكه الدّنيا من كثيرٍ ممّن أرادها ببعدها على الشّجرة منهم، أو بما على

---

(١) تفسير الطّبري ١٠٤/٢٧.

(٢) المعجم الوسيط:"نضد"

(٣) المعجم الوسيط :"نضد" والجلالين.

(٤) تفسير الطّبري ١٠٤/٢٧.

(٥) فتح الباري ٦٢٧/٨ حديث رقم ٤٨٨١ وانظر صحيح مسلم ٢١٧٥/٤ حديث رقم ٢٨٢٦.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/٨.

(٧) تفسير الطّبري ١٠٦/٢٧.

(٨) تفسير الطّبري ١٠٦/٢٧.

شجرها من الشّوك. ولكنّها إذا اشتهاها أحدهم وقعت في فيه أو دنت منه حتّى يتناولها بيده[١] قال قتادة: لايمنعه شوكٌ ولابعد[٢]

وفرشٍ مرفوعة: على السّرر[٣] فهي عالية وطيئة ناعمة[٤]

وأصحاب اليمين وهم الأبرار، ما اصحاب اليمين وماشأنهم وما أعدّ الله تعالى لهم عنده في جنّات النّعيم من ثوابٍ جزيل ومقامٍ كريم. وهؤلاء الأبرار دون المقرّبين السّابقين. إنّهم في الجنّة في شجر نِبقٍ لاشوك فيه، وشجر موزٍ قد رُتّب موزه صفوفاً متناسقةً من أسفله إلى أعلاه، وظلٍّ دائم مثل مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس، وماءٍ مصبوب على الأرض يجري في غير أخدود، وهذا النّوع من الماء يجري مع أنهار الجنّة المتدفّقة من الماء غير المتغيّر الرّائحة، واللّبن غير المتغيّر الطّعم، والخمر الخالصة اللّذة للشّاربين ، والعسل المصفًّى من كلّ شائبة. وهؤلاء الأبرار كذلك في فاكهةٍ كثيرة الأنواع والكمّيّات، لامقطوعةٍ في زمنٍ ولاممنوعةٍ بثمن[٥] وفي فرش مرفوعةٍ على الأسرّة غايةٍ في الفخامة، والنّعومة، والحُسْن.

---

[١] تفسير الطّبري ١٠٦/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري ١٠٦/٢٧.

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير ابن كثير٨/٨.

[٥] الجلالين.

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠ ﴾

إنّا أنشأناهنّ إنشاء: إنّا خلقناهنّ خلقاً فأوجدناهنّ. قال أبوعبيدة: يعني بذلك الحور العين اللّاتي ذكرهنّ قبل[١] عن أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ أنّها قالت: قلت يارسول الله أخبرني عن قول الله :﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاءً. فجعلناهنّ أبكارا. عرباً أترابا. لأصحاب اليمين﴾ قال: هنّ اللّواتي قبضن في الدّنيا عجائز رُمْصا[٢] شُمْطاً[٣] خلقهنّ الله بعد الكبر فجعلهنّ عذارى[٤] وروي أنّ عجوزاً أتت النّبيّ ﷺ فقالت: يارسول الله، أُدْعُ الله أن يدخلي الجنّة. فقال: ياأمّ فلان، إنّ الجنّة لاتدخلها عجوز. قال: فولّت تبكي. قال: أخبروها أنّها لاتدخلها وهي عجوز. إنّ الله تعالى يقول:﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاءً . فجعلناهنّ أبكارا ﴾[٥]

عربا: جمع عَروب كما واحد الرّسل رَسول[٦] عن ابن عبّاس: العرب المتحبّبات المتودّدات إلى أزواجهنّ[٧]

---

(١) تفسير الطّبري ١٠٦/٢٧.

(٢) رُمْص جمع رمصاء. وهي الّتي اجتمع في موق عينها رَمَص، وهو وسخٌ أبيض جامد. والموق طرف العين ممّا يلي الأنف. وهو مجرى الدّمع.

(٣) شُمْط جمع شمطاء وهي الّتي اختلط سواد شعرها ببياضه.

(٤) تفسير الطّبري ١٠٧/٢٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٩/٨.

(٦) تفسير الطّبري ١٠٧/٢٧.

(٧) تفسير الطّبري ١٠٧/٢٧.

أترابا: جمع تِرْب، بكسر التّاء، أي مستوياتٍ في السّنّ[1]

إنّا أنشأنا زوجات الأبرار في الجنّة وخلقناهنّ خلقاً جديداً، من الحور العين، ومن نساء الدّنيا. فجعلناهنّ أبكاراً لم يتزوّجن من قبل. متحبّباتٍ إلى أزواجهنّ متودّداتٍ عشقاً منهن لهم. متساوياتٍ في السّنّ في ريعان الشّباب ومَيْعة الصِّبا وأوّله. إنّ الله تعالى خلقهنّ للأبرار أصحاب اليمين. والأبرار من هذه الأمّة المتّقون هم جماعةٌ كبيرةٌ من أوّلي هذه الأمّة وقرونها المفضّلة، ومن آخرى هذه الأمّة. إنّ الأبرار أصحاب اليمين يتأخّرون عن السّابقين المقرّبين. وهكذا يكون من أوّلى هذه الأمّة كثيرون من السّابقين المقرّبين، ومن الأبرار أصحاب اليمين. ويكون من آخرى هذه الأمّة قليلون من السّابقين المقرّبين، كثيرون من الأبرار أصحاب اليمين.

---

[1] تفسير الطّبري ١٠٩/٢٧ وتفسير ابن كثير ١٢/٨ والجلالين.

(٤)

((أصحاب الشّمال وعذابهم الأليم في نار الجحيم))

الآيات (٤١-٥٦)

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وأصحاب الشّمال: الّذين يؤخذ بهم ذات الشّمال من موقف الحساب إلى النّار[١]

ما أصحاب الشّمال: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم[٢]

في سموم: في سموم جهنّم[٣] وريحٍ حارّةٍ من النّار تنفذ في المسامّ[٤]

وظلٍّ من يحموم: وظلٍّ من دخانٍ شديد السّواد. والعرب تقول لكلّ شيءٍ وصفته بشدّة السّواد أسود يحموم[٥] قيل هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم وكلّ مااحترق من النّار، واحدته حُمَمَة[٦]

لابارد ولاكريم: لابارد المنزل ولاكريم المنظر[٧]

---

[١] تفسير الطّبري ٢٧/١١٠.

[٢] تفسير الطّبري ٢٧/١١٠.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/١١٠.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير الطّبري ٢٧/١١٠.

[٦] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حمّ" ١/١٧٢ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٢٤٦ والمعجم الوسيط:"حمّ"

[٧] تفسير الطّبري ٢٧/١١١.

على الحنث العظيم: على الذّنب العظيم[1] وهو الشّرك[2]

وأصحاب الشّمال الّذين يؤتون كتب أعمالهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال من موقف الحساب إلى النّار، ماأشدّ عذابهم يوم القيامة وأعظم هوانهم. إنّهم في ريحٍ حارّةٍ من النّار تنفذ في مسامّهم، وفي ماءٍ شديد الحرارة والغليان، وفي ظلّ من دُخانٍ شديد السّواد، لابارد المنزل ولاحسن المنظر. إنّهم كانوا في الدّنيا قبل قيام السّاعة مترفين منعّمين منغمسين في متع الدّنيا منصرفين عن الطّاعة مقبلين على المعصية. وكانوا يصرّون على ارتكاب الذّنب العظيم الّذي لايغفره الله تعالى وهو الشّرك. وكانوا يقولون في الدّنيا على سبيل الاستهزاء بالآخرة: أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون خلقاً جديدا ! أو آباؤنا الأوّلون لمبعوثون كذلك !

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

قل إنّ الأوّلين والآخرين: أي أخبرهم يامحمّد أنّ الأوّلين والآخرين من بني آدم[3]

لمجموعون إلى ميقات: وقت[4]

---

[1] تفسير الطّبري ١١١/٢٧.

[2] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧ وتفسير ابن كثير ١٥/٨ والجلالين.

[3] تفسير ابن كثير ١٦/٨.

[4] الجلالين.

يوم معلوم: وذلك يوم القيامة[١]

من زقّوم: عبارةٌ عن أطعمةٍ كريهةٍ في النّار. ومنه استعير زَقَم فلان وتزقّم إذا ابتلع شيئاً كريها[٢] جاء في سورة الصّافات[٣] قوله تعالى:﴿أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرة الزّقّوم. إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين. إنّها شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنّه رءوس الشّياطين﴾ وجاء في سورة الدّخان[٤] قوله تعالى :﴿إنّ شجرة الزّقّوم. طعام الأثيم. كالمُهل يغلي في البطون. كغلي الحميم﴾

فمالئون منها: من الشّجر. أنّث للمعنى[٥] لأنّ الشّجر تؤنّث وتذكّر. وأنّث لأنّه حمله على الشّجرة، لأنّ الشّجرة قد تدلّ على الجميع، فتقول العرب: نبتت قِبَلَنا شجرةٌ مُرَّةٌ وبَقْلةٌ رديئة، وهم يعنون الجميع[٦]

فشاربون عليه: على شجر الزّقّوم المأكول[٧]

من الحميم: من الماء الّذي انتهى غليه وحرّه[٨]

شرب الهيم: جمع أهيم والأنثى هيماء. والهيم الإبل الّتي يصيبها داءٌ فلاتَرْوَى من الماء حتّى تَهلِك[٩] وقيل الهيم جمع هيمان للذّكر وهَيْمَى للأنثى كعطشان وعطشى[١٠]

---

[١] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧.

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"زقم" ٢٨١/١.

[٣] الآيات ٦٢-٦٥.

[٤] الآيات ٤٣-٤٦.

[٥] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧.

[٦] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧ والمراد بالجميع الجمع.

[٧] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧ والجلالين.

[٨] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧.

[٩] تفسير الطّبري ١١٢/٢٧.

[١٠] الجلالين.

هذا نزلهم: النّزل مايعدّ للنّازل من الزّاد[١]

يوم الدّين: يوم القيامة[٢] يوم يدين الله عباده[٣] أي يجازيهم[٤]

قل يامحمّد لأولئك المنكرين للبعث إنّ الأوّلين والآخرين من بني آدم لمجموعون ومحشورون إلى وقت يومٍ معلوم هو يوم القيامة للحساب والجزاء، الثّواب أو العقاب. ثمّ إنّكم أيّها الضّالّون المكذّبون من أهل مكّة وسواهم، لآكلون من شجرة الزّقّوم الكريهة الطّعم الّتي تخرج في أصل الجحيم، طلعها المشبّه بطلع النّخل كأنّه رءوس الشّياطين، فمالئون منها البطون، فشاربون على شجر الزّقّوم المأكول الكثير من الماء الشّديد الحرارة والغليان، فشاربون من ذلك النّوع الأليم من الماء شرب الإبل الّتي أصابها داء العطش فلا تزال تشرب ولاترتوي حتّى تهلِك.

إنّ هذا النّوع من الشّجر هو الطّعام المعدّ لأولئك الّذين يدخلون نار جهنّم يوم القيامة الّذي يجازي فيه الله تعالى العباد، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

---

[١] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"نزل" ٦٣٢/٢.

[٢] الجلالين.

[٣] تفسير الطّبري ١١٣/٢٧.

[٤] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"دين" ٢٣٣/١.

(٥)

((بعض الأدلّة على قدرة الله تعالى على البعث))

الآيات (٥٧-٧٤)

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

فلولا تصدّقون: فهلّا تصدّقون بالبعث [١]

أفرأيتم ماتمنون: أفرأيتم أيّها المنكرون قدرة الله على إحيائكم من بعد مماتكم النّطف الّتي تمنون في أرحام نسائكم[٢]

أأنتم تخلقونه: أأنتم تخلقونه فيها[٣] وتجعلون المنيّ بَشَرا[٤]

نحن قدّرنا بينكم الموت: أي صرّفناه بينكم[٥] فعجّلناه لبعض، وأخّرناه عن بعضٍ إلى أجلٍ مسمًّى[٦]

وما نحن بمسبوقين: وما نحن بعاجزين [٧]

على أن نبدّل أمثالكم: أي نغيّر خلقكم يوم القيامة[٨]

---

[١] تفسير الطّبري ١١٣/٢٧ وتفسير ابن كثير ١٦/٨ والجلالين.

[٢] تفسير الطّبري ١١٣/٢٧.

[٣] تفسير ابن كثير ١٦/٨.

[٤] الجلالين.

[٥] تفسير ابن كثير ١٦/٨.

[٦] تفسير الطّبري ١١٣/٢٧.

[٧] تفسير ابن كثير ١٧/٨ والجلالين.

[٨] تفسير ابن كثير ١٧/٨.

وننشئكم فيما لاتعلمون: من الصّفات والأحوال[١] وفي أيّ خلقٍ شئنا [٢]

ولقد علمتم النّشأة الأولى: أي قد علمتم أنّ الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا[٣]

نحن خلقناكم أوّل مرّةً أيّها الضّالّون المكذّبون وجعلنا لكم السّمع والأبصار والأفئدة فهلّا تصدّقون بالبعث بعد الموت وبأنّ القادر على خلقكم أوّلَ مرّةٍ قادرٌ على خلقكم آخر مرّة. جاء في سورة الرّوم[٤] قوله تعالى:﴿ وهو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه. وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض. وهو العزيز الحكيم ﴾

أفرأيتم ماتصبّون من منيٍّ في أرحام النّساء، أأنتم تخلقونه بشراً سويّاً أم نحن الخالقون. نحن صرّفنا بينكم الموت فمنكم المتقدّم ومنكم المتأخّر، وما نحن بعاجزين على أن نبدّل أمثالكم، ونغيّر خلقكم يوم القيامة، وننشئكم فيما لاتعلمون من الصّور والصّفات والأحوال. ولقد علمتم أيّها الضّالّون المكذّبون النّشأة الأولى لأبيكم آدم عليه السّلام من العدم ولكم. فهلّا تذكّرتم تلك النّشأة الأولى واستدللتم بها على قدرتنا على إعادة الخلق مرّةً أخرى يوم القيامة.

---

[١] تفسير ابن كثير ١٧/٨.

[٢] تفسير الطّبري ١١٤/٢٧.

[٣] تفسير ابن كثير ١٧/٨.

[٤] الآية ٢٧.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أفرأيتم ماتحرثون: الحرث إلقاء البَذْر في الأرض وتهيّؤها للزّرع[١] أي أفرأيتم ماتثيرون في الأرض وتلقون البذر فيها[٢]

أأنتم تزرعونه: أأنتم تنبتونه في الأرض[٣]

لجعلناه: اللّام المزحلقة للتّوكيد[٤]

حطاماً: هشيماً لاينتفع به في مطعمٍ وغذاء[٥] يابساً لاحَبّ فيه[٦]

فظلتم: فيه حذف إحدى اللّامين تخفيفاً أصله ظللتم[٧]

تفكّهون: فيه حذف إحدى التّاءين قياسا[٨] أي تتعجّبون ممّا نزل بكم في زرعكم[٩]

---

[١] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حرث" ١٤٧/١.

[٢] الجلالين.

[٣] تفسير ابن كثير ١٧/٧.

[٤] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥٠/١٢.

[٥] تفسير الطّبري ١١٤/٢٧.

[٦] الجلالين.

[٧] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥٠/١٢.

[٨] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥١/١٢.

[٩] معاني القرآن للفرّاء ١٢٨/٣ وتفسير الطّبري ١١٤/٢٧ والجلالين.

إنّا لمغرمون: الغُرْم ماينوب الإنسان في ماله من ضَرَرٍ لغير جنايةٍ منه أو خيانة[١] أي إنّا لمغرمون نفقة زرعنا[٢]

بل نحن محرومون: ممنوعون من رزقنا[٣]

أفرأيتم أيّها الضّالّون المكذّبون الأرض الّتي تثيرون وتضعون فيها البذور. أأنتم تنبتون الزّرع في الأرض أم نحن الّذين ننبته. والجواب بطبيعة الحال معروف. لو نشاء لجعلنا ذلك الزّرع ابتداءً هشيماً ويابساً لاحبّ فيه فبقيتم تتعجّبون من البلاء الّذي حلّ بكم وتقولون: إنّا لملزمون بأن نغرم نفقة زرعنا. الحقيقة إنّا محرومون من رزقنا.

ويلاحظ مجيء الّلام المؤكّدة في القول:﴿لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ وكأنّ هذا التّوكيد بأنّ الحقّ جلّ وعلا هو الفعّال لما يريد في مقابل زعم الضّالّين المكذّبين بأنّ لهم يداً في الزّرع، وهو مالم يفعلوه بشأن كلٍّ من الماء والنّار. إنّ الحديث عن الماء والنّار قد خلا من التّوكيد، وربّما كان ذلك دليلاً على أنّهم لم يدّعوا القدرة على إنزال الماء وإيجاد النّار. والله أعلم.

---

[١] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"غرم" ٢/٤٦٦.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

من المزن: من السّحاب المضيء، والقطعة منه مُزْنة[١]

أجاجا: هو المِلْح المرّ الشّديد المرارة من الماء [٢] شديد الملوحة، فلم تنتفعوا به في شربٍ ولا غرسٍ ولا زرع[٣] .

أفرأيتم أيّها الضّالّون المكذّبون الماء العذب الفرات الّذي تشربونه وتستسيغونه. أأنتم أنزلتموه من السّحاب الثّقال أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلنا ذلك الماء العذب الفرات ملحاً أجاجاً لاتنتفعون به في شربٍ ولا زرع. فهلّا تشكرون لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة بتوحيده عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة وَحْدَه دون سواه.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أفرأيتم النّار الّتي تورون : الّتي تستخرجون من زندكم[٤] والزَّند العود الأعلى الّذي تُقْدح به النّار، والأسفل هو الزَّندة، والجمع زِناد وأزناد[٥] وللعرب شجرتان،

---

[١] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"مزن" ٢/٦٠٤.

[٢] معاني القرآن للفرّاء ٣/١٢٩.

[٣] تفسير الطّبري ٢٧/١١٦.

[٤] تفسير الطّبري ٢٧/١١٦.

[٥] المعجم الوسيط :"زند"

إحداهما المرخ، والأخرى العَفار. إذا أُخِذ منهما غصنان أخضران، فَحُكّ أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النّار[١]

تذكرة: تذكرةً لكم تذكرون بها نار جهنّم فتعتبرون وتتّعظون بها[٢]

ومتاعا: منفعة[٣]

للمقوين: للمسافرين إذا نزلوا بالأرض القِيّ، يعني القفر[٤] والقِيّ: القفر من الأرض، أبدلوا الواو ياءً طلباً للخفّة، وكسروا القاف لمجاورتها الياء. والقَواء، كالقِيّ[٥].

أفرأيتم أيّها الضّالّون المكذّبون النّار الّتي توقدون. أأنتم أنشأتم شجرتها كالمرخ والعَفار اللّذين يتناثر من غصنيهما الأخضرين شرر النّار إذا حُكَ أحدهما بالآخر، أم نحن المنشئون للشّجر الخالقون له. و الجواب بطبيعة الحال معروف.نحن جعلنا نار الدّنيا تذكرةً تذكرون بها نار الآخرة، ومنفعةً لكم، خاصّةً حينما تكونون مسافرين في أعماق القفار، وتحتاجون الطّعام والشّراب والدّفء.

فسبّح يامحمّد ويأيّها الإنسان باسم ربّك العظيم الخلّاق لما يشاء، الفعّال لما يريد، ونزّه الله تعالى عن كلّ ماألحقه به الظّالمون الضّالّون المكذّبون،،ممّا لايليق بجلاله وعظمته عزّ وجلّ.

---

[١] تفسير ابن كثير ١٨/٨.

[٢] تفسير الطّبري ١١٦/٢٧.

[٣] معاني القرآن للفرّاء ١٢٩/٣ .

[٤] معاني القرآن للفرّاء ١٢٩/٣ وتفسير الطّبري ١١٦/٢٧ والجلالين.

[٥] لسان العرب:"قوا"

(٦)

((كفّار مكّة المكذّبون للقرآن الكريم هلّا إذْ أنكروا البعث دفعوا عن أنفسهم الموت المفضي إلى البعث. وثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين))

الآيات (٧٥-٩٦)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

فلا أقسم: أقسم[١]

بمواقع النّجوم: بمنازل النّجوم[٢] والنّجم أحد الأجرام السّماويّة المضيئة بذاتها، ومواضعها النّسبيّة في السّماء ثابتة، ومنها الشّمس[٣] وتسمّى النّجوم الأنواء واحدها نَوْء. يقال: ناء النّجم ينوء نوءاً إذا سقط. وإنّما سمّي نوءاً لأنّه إذا سقط السّاقط منها بالمغرب ناء الطّالع بالمشرق، أي نهض وطَلَع بِثِقَلٍ وإبطاء. قال أبوعبيد: الأنواء ثمانيةٌ وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السّنة كلّها من الصّيف والشّتاء والرّبيع والخريف. يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلةً نجمٌ في المغرب مع طلوع الفجر، ويَطْلُعُ آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكلاهما معلومٌ مسمًّى. وانقضاء هذه الثّمانية وعشرين كلّها مع انقضاء السَّنة[٤] ومعنى ذلك فلا أقسم بمساقط النّجوم ومغايبها في السّماء ، وذلك أنّ المواقع جمع موقع، والموقع المَفْعِل من وقع يقع موقعاً[٥]

إنّه: أي المتلوّ عليكم[٦]

---

[١] تفسير الطّبري ١١٧/٢٧ وتفسير ابن كثير ٢٠/٨ والجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥٣/١٢.

[٢] تفسير الطّبري ١١٧/٢٧.

[٣] المعجم الوسيط:"نجم"

[٤] انظر لسان العرب:" نوأ"

[٥] انظر تفسير الطّبري ١١٧/٢٧.

[٦] الجلالين.

لقرآنٌ كريم: إنّ هذا القرآن الّذي نزل على محمّدٍ لكتابٌ عظيم[١]

في كتاب: مكتوبٌ في كتاب[٢]

مكنون: مصون وهو المصحف[٣]

لايمسّه: خبر بمعنى النّهي[٤] ولا نافية[٥]

إلّا المطهّرون: أي من الجنابة والحَدَث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطّلب. قالوا: والمراد بالقرآن. ههنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: أنّ رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ، مخافة أن يناله العدوّ. واحتجّوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطّئه عن عبدالله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم أنّ في الكتاب الّذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن لايمسّ القرآن إلاّ طاهر[٦].وجاء في كتاب التّبيان في آداب حملة القرآن للإمام النّووي[٧]:((فَصْل. يحرم على المُحْدِث مسّ المصحف وحمله. سواءٌ حمله بعِلاقته[٨] أو بغيرها. سواءٌ مسّ نفس الكتابة أو الحواشي أو الجلد. ويحرم مسّ الخريطة[٩] والغلاف والصّندوق إذا كان فيهنّ المصحف. هذا هو المذهب المختار. وقيل: لاتحرم هذه الثّلاثة . وهو ضعيف))

---

[١] تفسير ابن كثير٨/٢١.

[٢] الجلالين.

[٣] الجلالين.

[٤] الجلالين.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢/٢٥٣.

[٦] تفسير ابن كثير ٨/٢٢ وانظر الموطّأ ١/١٩٩ باب الأمر بالوضوء لمن مسّ القرآن.

[٧] ص١٥١ تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط . الطّبعة الثّانية. جدّة. ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

[٨] العلاقة بكسرالعين: مايعلَّق به المصحف ونحوه.

[٩] الخريطة: وعاءٌ من جلدٍ أو نحوه يشدّ على مافيه.

يقسم الحقّ جلّ وعلا بمواقع النّجوم في هذا الكون الفسيح الآخذ في الاتّساع . والنّجوم مضيئةٌ بذاتها ومولّدةٌ للطّاقة كالشّمس والأنواء الثّمانية والعشرين. ولايعلم عدد النّجوم ومواقعها على الحقيقة إلّا الله تعالى خالقها. وهذا الكون ينتظمه بقدرة الله تعالى قانون الجاذبيّة. وما أعظم الدّور المنوط بكلّ كوكبٍ ونجمٍ في هذا الكون. وبسبب عِظَم النّجوم وعظم مواقعها يقسم الحقّ جلّ وعلا بتلك المواقع. وإنّ هذا القَسَمَ عظيم، لو يعلم المخاطبون عظمته لعظّموا المقسم به عليه، وهو القرآن الكريم العظيم عند الله تعالى وعند المؤمنين . إنّ المتلوّ عليكم أيّها النّاس لقرآنٌ كريمٌ عظيم. مدوَّنٌ في كتابٍ مَصُونٍ وهو المصحف الشّريف. وهكذا تتمّ الإشارة إلى وسيلتي حفظ هذا الكتاب العزيز وهما الصّدر والسّطر، القراءة عن ظهر قلبٍ والقراءة نظراً. وهذا الكتاب العزيز لايمسّه ولايُمْسِكُه بأيديهم إلّا المطهّرون من الجنابة والحَدَث. وهذا الكتاب العزيز تنزيلٌ من ربّ العالمين، ووحيٌ خصّ الله تعالى به محمّداً ﷺ.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

مدهنون: مكذّبون غير مصدّقين[1] والإدهان المداراة والملاينة وترك الجِدّ[2]

وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون: وتجعلون شكر الله على رزقه إيّاكم التّكذيب[3]

أفبهذا الحديث أيّها المكذّبون الضّالّون أنتم مكذّبون غير مصدّقين، وبهذا القرآن الكريم أنتم متهاونون ولا تأخذون الأمور مأخذ الجدّ. وتجعلون رزق الله تعالى لكم بإنزال

---

[1] تفسير الطّبري ١١٩/٢٧.

[2] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني:"دهن" ٢٣١/١.

[3] تفسير الطّبري ١١٩/٢٧.

المطر أنّكم تكفرون نعم الله تعالى عليكم ولاتشكرون، وتشركون ولاتفردون الله تعالى بالعبادة، وتكذّبون الرّسول الكريم والقرآن العظيم ولاتصدّقون ولاتؤمنون.

عن زيد بن خالدٍ الجهنيّ أنّه قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصّبح بالحديبية، على إثْر سماءٍ كانت من اللّيل. فلمّا انصرف أقبل على النّاس فقال: أتدرون ماذا قال ربّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافرٌ بي. فأمّا من قال: مُطْرِنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكب. وأمّا من قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب[1].

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فلولا إذا بلغت الحلقوم: فهلاّ[2] إذا بلغت الرّوح وقت النّزع والاحتضار[3] الحلقوم وهو تجويفٌ خلف تجويف الفم، وفيه ستّ فَتْحات. فتحة الفم الخلفيّة، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة، وهي مجرى الطّعام والشّراب والنَّفَس[4]

وأنتم: ياحاضري الميّت[5]

تنظرون: إليه[6]

---

[1] الموطّأ ١٩٢/١ باب الاستمطار بالنّجوم وصحيح مسلم ٨٣/١ حديث رقم ١٢٥.

[2] تفسير الطّبري ١٢٠/٢٧.

[3] الجلالين وتفسير ابن كثير ٢٥/٨.

[4] المعجم الوسيط:"حلقم"

[5] الجلالين.

[6] الجلالين.

ونحن أقرب إليه منكم: وملائكتنا[1] ورسلنا الّذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم[2]

ولكن لاتبصرون: ولكن لاترونهم[3]

فلولا إن كنتم غير مدينين: فهلّا إن كنتم أيّها النّاس غير مجزيّين بأعمالكم وغير محاسبين[4] وغير مبعوثين بزعمكم[5]

ترجعونها: تردّون[6] هذه النّفس الّتي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأوّل، ومقرّها في الجسد[7]

إن كنتم صادقين: فيما زعمتم[8] وجواب قوله:﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ وجواب قوله:﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ جوابٌ واحدٌ وهو قوله:﴿ ترجعونها﴾[9]

فهلّا إذا بلغت الرّوح ساعة الاحتضار الحلقوم ومجرى الطّعام والشّراب والنَّفَس، وأنتم ياحاضري الميّت تنظرون إليه. ونحن أقرب إليه برسلنا وهم الملائكة الّذين يقبضون روحه، ولكنّكم لاترونهم بأعينكم. فهلّا إن كنتم غير محاسبين على أعمالكم بعد البعث، ترجعون تلك الرّوح إلى مكانها السّابق من الجسد، إن كنتم صادقين في زعمكم أنّه لابعث ولا حساب ولاجزاء. إنّ نفيكم للمسبَّب، وهو البعث بعد الموت والحساب والجزاء، من

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/٢٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٧/١٢١.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/١٢١.

(٤) تفسير الطّبري ٢٧/١٢١.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبري ٢٧/١٢١.

(٧) تفسير ابن كثير ٨/٢٥.

(٨) الجلالين.

(٩) تفسير الطّبري ٢٧/١٢١.

جنس نفي السَّبب، وهو الموت، فانفوا الموت دليلاً على نفي البعث. وفي ثبوت الموت وهو السَّبب ثبوتٌ للبعث وهو المسبَّب.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فأمّا إن كان: الميّت[1]

من المقرّبين: الّذين قرّبهم الله من جواره في جنانه[2] وهم الّذين فعلوا الواجبات والمستحبّات، وتركوا المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات[3]

فروحٌ: فله روحٌ[4] أي راحة[5]

وريحان: جنسٌ من النّبات طيّب الرّائحة [6] قال أبو العالية: لم يكن أحدٌ من المقرّبين يفارق الدّنيا حتّى يؤتى بغصنٍ من ريحان الجنّة فيشمّه ثمّ يقبض[7]

---

[1] تفسير الطّبري ١٢/٢٧.

[2] تفسير الطّبري ١٢١/٢٧.

[3] تفسير ابن كثير ٢٦/٨.

[4] تفسير الطّبري ١٢١/٢٧ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥٦/١٢.

[5] تفسير الطّبري ١٢١/٢٧ و ١٢٢.

[6] المعجم الوسيط:"روح"

[7] تفسير الطّبري ١٢٢/٢٧.

وأمّا إن كان: الميّت[1]

من أصحاب اليمين: الّذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة[2]

فسلامٌ لك من أصحاب اليمين: سلامٌ من عند الله وسلّمت عليه ملائكة الله[3]

أنت من أصحاب اليمين [4]

فنزل: النّزل مايُعَدّ للنّازل من الزّاد[5]

من حميم: من ماءٍ شديد الحرارة[6]

وتصلية جحيم: وحريق النّار يحرق بها. والتّصلية التّفعلة من صلاه الله النّار فهو يصليه تصليةً وذلك إذا أحرقه بها[7]

لهو حقّ اليقين: لهو الحقّ من الخبر اليقين الّذي لاشكّ فيه[8]

فسبّح باسم ربّك العظيم: فسبّح بتسمية ربّك العظيم بأسمائه الحُسْنى[9] روى البخاريّ في صحيحه[10] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النّبيّ ﷺ: كلمتان حبيبتان إلى الرّحمن خفيفتان على الّلسان ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم.

---

(١) تفسير الطّبري ١٢٢/٢٧.

(٢) تفسير الطّبري ١٢٢/٢٧ و٩٨ وتفسير ابن كثير ٤٨٩/٧.

(٣) تفسير الطّبري ١٢٢/٢٧.

(٤) تفسير الطّبري ١٢٣/٢٧.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني:"نزل" ٦٣٢/٢.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني :"حم" ١٧١/١.

(٧) تفسير الطّبري ١٢٣/٢٧.

(٨) تفسير الطّبري ١٢٣/٢٧.

(٩) تفسير الطّبري ١٢٣/٢٧.

(١٠) فتح الباري ٥٣٧/١٣ حديث رقم ٧٥٦٣.

فأمّا إن كان الميّت من المقرّبين الّذين قرّبهم الله تعالى إلى جواره بسبب استباقهم الخيرات فله راحةٌ في جنّات النّعيم وريحانٌ يشمّه دليلاً على رضا الرّحمن الرّحيم عنه. وإذا كان الميّت من السّابقين له راحةٌ ساعة النَّزع وريحانٌ من الجنّة يشمّه، فإنّ له بعد ذلك جنّات النّعيم الّتي فيها الرّاحة التّامّة، وأنواع الرّياحين والملذّات ، والنّعيم المقيم.

وأمّا إن كان الميّت من أصحاب اليمين الّذين يؤتون كتب أعمالهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة فسلامٌ له قولاً من ربٍّ رحيم على لسان الملائكة الأطهار، ومن أصحاب الجنّة الأخيار، وأمنٌ وطمأنينة. إنّه من أصحاب اليمين في جنّات النّعيم الّذين تدخل عليهم الملائكة من كلّ باب وتلقى عليهم السّلام.

وأمّا إن كان الميّت من المكذّبين الضّالّين عن سواء السّبيل فله ماءٌ شديد الحرارة قد أُعِدَّ له كي يتجرّعه، وله نار الجحيم الّتي يدخلها ويحترق بها.

إنّ هذا الخبر المتعلّق بالمقرّبين ، وأصحاب اليمين أو الميمنة، والمكذّبين الضّالّين أصحاب الشّمال أو المشأمة، لهو الحقّ من الخبر، اليقين الّذي لاشكّ فيه. فسبح يامحمّد ويا أيّها الإنسان باسم ربّك العظيم بقول: سبحان الله العظيم، وبجميع أسمائه عزّ وجلّ الحُسْنى وصفاته العُلَى.

تعقيب:

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١– سورة الواقعة من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ قبل الهجرة[١]

٢– عدد آيات السّورة الكريمة ستٌّ وتسعون آية. وعدد كلماتها ثلاثمائة وثمانٍ وتسعون كلمة. وعدد حروفها ألف وسبعمائة وثلاثة حروف[٢]

٣– عن ابن عبّاس قال: قال أبو بكر: يارسول الله، قد شبت. قال: شيّبتني هود، والواقعة ، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشّمس كوّرت[٣]

٤– رُوِي أنّ عبدالله بن مسعود ﷺ مرض مرضه الّذي توفّي فيه، فعاده عثمان بن عفّان ﷺ فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطّبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إنّي أمرت بناتي يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة. إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقةٌ أبدا [٤]

---

[١] انظر الإتقان ٤٣/١ وتفسير ابن كثير ٤٨٧/٧ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩٧/٢٧ والمحرّر الوجيز ٣٥٤/١٥ والكشّاف ١٩٢/٣ والبحر المحيط ٢٠٠/٨ وتفسير القرطبي ٦٣٦٤.

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩٧/٢٧.

[٣] تفسير ابن كثير ٤٨٧/٧.

[٤] تفسير ابن كثير ٤٨٧/٧ وتفسير القرطبي ٦٣٦٤ وتهذيب الأسماء واللّغات ٢٩٠/١.

٥- روى الإمام أحمد في مسنده عن سِماك بن حرب أنّه سمع جابر بن سَمُرة يقول : كان رسول الله ﷺ يصلّى الصّلوات كنحوٍ من صلاتكم الّتي تصلّون اليوم، ولكنّه كان يخفّف. كانت صلاته أخفّ من صلاتكم. وكان يقرأ في الفجر:" الواقعة" ونحوها من السّور[١].

٦- المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة قضيّة البعث بعد الموت. إنّ السّورة الكريمة تبدأ بذكر عددٍ من ملابسات قيام السّاعة . إنّها إذا قامت ليس ثمّة نفسٌ واحدةٌ تَنْفِيها كما نَفَتْها في الدّنيا. وهي تخفض الكافرين وترفع المؤمنين . والأرض ترتجّ لقيامها، والجبال تتفتّت وتصير هباءً منثورا. ويكون النّاس سابقين مقرّبين، وأبراراً أصحاب يمين، ومكذّبين ضالّين أصحاب شمال. وبشأن السّابقين المقرّبين يكون الحديث عن نعيمهم المقيم في جنّات النّعيم، ويُسْكَت عن نعوتهم المعروفة اكتفاءً بكونهم سابقين غيرهم، وكونهم يقرّبهم الرّحمن الرحيم منه إذا أدخلهم الجنّة. ويعامَل أصحاب اليمين بالطّريقة ذاتها. وهم إن كانوا دون المقرّبين في الدّرجة، فهم كذلك دونهم في النّعيم. والسّابقون المقرّبون كثيرون في القرون المفضّلة قليلون في آخر هذه الأمّة. والأبرار أصحاب اليمين كثيرون في كلّ القرون.

أمّا المكذّبون الضّالّون أصحاب الشّمال فإنّ صفاتهم السّيّئة تدلّ عليها الصّفات الّتي خلعتها السّورة الكريمة عليهم. إنّهم مكذّبون للرّسول الكريم، والقرآن العظيم، وبيوم القيامة. وهم ضالّون عن سواء السّبيل. وهم يؤتون كتب أعمالهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال إلى النّار وبئس القرار. والآيات الكريمات من الخامسة والأربعين إلى السّادسة والخمسين تذكر المزيد من الصّفات السّيّئة للقوم فهم في الدّنيا كانوا مترفين ويصرّون على الشّرك وعلى إنكار البعث. ويكون الرّدّ عليهم ووصف عذابهم الأليم في

---

[١] تفسير ابن كثير ٤٨٨/٧.

النّار. قال تعالى:﴿إنّهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرّون على الحِنْث العظيم. وكانوا يقولون أئذامِتنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون. أَوَ آباؤنا الأوّلون. قل إنّ الأوّلين والآخرِين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. ثمّ إنّكم أيّها الضّالّون المكذّبون. لآكلون من شجرٍ من زقّوم. فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم. هذا نزلهم يوم الدّين﴾

ومن أجل حمل المكذّبين الضّالّين على الإيمان بالبعث والعمل ليوم القيامة يكون الحديث عن عددٍ من مظاهر قدرة الحقّ جلّ وعلا. وأوّل هذه المظاهر عمليّة الخلق للمكذّبين الّتي يستدلّ بها على قدرة الله تعالى على النّشأة الآخرة. جاء في الآيات الكريمات من السّابعة والخمسين إلى الثّانية والسّتّين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿نحن خلقناكم لولا تصدّقون. أفرأيتم ماتمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدّرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين . على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون. ولقد علمتم النّشأة الأولى فلولا تذكّرون﴾

ثمّ يكون الحديث عن الزّرع الّذي ينبته الله تعالى، والماء الّذي ينزله الله تعالى من السّحاب، والنّار الّتي أنشأ الله تعالى شجرتها. وقد جاء النّصّ في الآية الكريمة الثّالثة والسّبعين على أنّ الحقّ جلّ و علا قد جعل نار الدّنيا تذكرةً يتذكّر بها المكذّبون الضّالّون أصحاب الشّمال نار الآخرة. قال تعالى:﴿نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمقوين﴾

وقد جاء في الآية الكريمة الرّابعة والسّبعين والآية الكريمة السّادسة والتّسعين الّتي تختم بها السّورة الكريمة القول:﴿فسبّح باسم ربّك العظيم﴾

وفي القسم الأخير من السّورة الكريمة يكون الحديث عن المنهج الّذي يهدي إلى الطّريقة الّتي هي أقوم، وهو القرآن الكريم، الموحى به من ربّ العالمين. وبذلك يستطيع المكذّبون الضّالون أن يصدّقوا ويهتدوا بإذن الله تعالى.

كما يكون في هذا القسم النّعي على المكذّبين عموماً، كفّار مكّة خصوصاً، تكذيبهم للقرآن الكريم، وإشراكهم مع الله تعالى الرّزّاق ذي القوّة المتين غيره في العبادة. ويكون الحديث في الآيات الكريمات التّاليات خاصّاً بالبعث ومتعلّقاته. إنّ كفّار مكّة إذا كانوا منكرين للبعث فلينكروا سببه وهو الموت، فعليهم أن يعيدوا الرّوح الّتي بلغت الحلقوم إلى الجسد. وبما أنّ الموت حقٌّ وهو السَّبب، فالبعث حقٌّ وهو المسبَّب. وكما كان الحديث أوّل السّورة الكريمة عن المقرّبين وأصحاب اليمين وثوابهم، وعن المكذّبين الضّالين وعقابهم، كان الحديث آخر السّورة الكريمة في هذه المعاني ذاتها . وهكذا يتلاقى أوّل السّورة وآخرها، وتأخذ الموضوعات بحُجَز بعض، وتتّضح الوحدة العضويّة للسّورة المكيّة الكريمة، سورة الواقعة.

ويتّضح ممّا سبق أنّ الحديث المستفيض عن المكذّبين الضّالّين على جهة الخصوص بقصد أن يهتدوا ويعملوا لما بعد الموت قوةٌ لقضيّة البعث بعد الموت، المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

سابعاً : سورة الحديد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ
وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾
لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ
مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ

يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا
فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣
يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ
وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ
مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥

۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا
يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ
مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا
يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ
وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ
ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ
شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ

إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن
نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ
ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ
بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ
بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ
فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا
بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ
وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا
حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل
لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ
ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((سبّح ما في السّماوات والأرض لله تعالى الّذي له الأسماء الحُسْنَى والصّفات العُلَى))

الآيات (١-٦)

سبح لله تعالى ونزّهه عن كلّ مالا يليق به جلّ وعلا كلّ ما في السّماوات والأرض من جمادٍ، ونباتٍ ، وحيوانٍ، وإنسانٍ، وملائكةٍ، وجان. إنّه هو المستحقّ أن يُعبَدَ وحده دون سواه، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، المستحِقّ أن يكون له وحده دون سواه الأمر والتقرير، قياساً على إنفراده وحده دون سواه بالخلق والتقدير . لله تعالى مُلْك السّماوات والأرض والتّصرّف فيهما وحده دون سواه. ومن الأدلّة على ذلك أنّه عزّ وجلّ يحيى من يريد إحياءه، ويميت من يريد إماتته، وهو على كلّ شيءٍ قدير، فلا يعجزه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. ومن صفاته العُلَى جلّ وعلا وأسمائه الحُسْنَى أنّه هو الأوّل فلا شيء قبله، وأنّه هو الآخر فلا شيء بعده، وأنّه هو الظّاهر فلا شيء فوقه، وأنّه هو الباطن فلا شيء دونه. وقد أحاط بكلّ شيءٍ علما. ومن مظاهر قدرته جلّ وعلا أنّه خلق السّماوات والأرض في ستّة أيّامٍ الله تعالى أعلم بحقيقتها، ثمّ استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته عزّ وجلّ. ومن مظاهر علمه عزّ وجلّ أنّه يعلم ما يدخل في الأرض كالماء والأموات، وما يخرج منها كالنّبات والمعادن، وما ينزل من السّماء كالرّحمة والعذاب، وما يصعد فيها كالملائكة والكلم الطيّب وهو جلّ وعلاَ مَعَنا بعلمه أينما كنّا، وبصيرٌ بكلّ أعمالنا. والله تعالى الّذي له الملك في الدّنيا ، ومن الأدلّة على ذلك ملك السّماوات والأرض، له الملك في الآخرة، فإليه تُرْجع أمور الخلائق يوم القيامة فيحكم بينها بعدله ، ويعاملها بفضله. ومن مظاهر قدرته جلّ وعلا أنّه يدخل اللّيل في النّهار فيطول النّهار صيفاً، ويدخل النّهار في اللّيل فيطول اللّيل شتاءً. والله

تعالى هو العليم بذات الصّدور، ودواخل النّفوس والقلوب ، ومن باب الأحرى إحاطته عزّ وجلّ علماً بما دون ذلك.

وهكذا نكون في هذا القسم الأوّل من السّورة الكريمة أمام حشدٍ من أسماء الله تعالى الحُسْنى وصفاته العُلَى جلّ وعلا.

وإذا كان يسبّح لله تعالى ويسجد كلّ ما في السّماوات والأرض فإنّه في ضوءِ الآية الكريمة الثّامنة عشرة من سورة الحجّ مَثَلاً يتبيّن أنّ كثيراً من جنس الإنسان لا يوحّد الله تعالى مع أنّه مكلّف ومن ثمّ فقد حقّ على هذا الكثير عذاب الله تعالى. ومن هذا الكثير كفّار مكّة الّذين تطاردهم رحمة الله تعالى والّذين تتحوّل إلى الحديث عنهم الآيات الكريمات في القسم التّالي كي يلحقوا بركب الإيمان.

(٢)

((حثّ جنس الإنسان الكفور على الإيمان بالله تعالى وبالرّسول ﷺ والإنفاق في سبيل الله تعالى ، والجهاد بالنّفس والنّفيس))

الآيات (٧– ١١)

آمنوا أيّها النّاس بالله تعالى، وبرسوله ﷺ وأنفقوا في سبيل الله تعالى ممّا جعلكم عزّ وجلّ مستخلفين فيه من المال الّذي آتاكم إيّاه، وأورثكموه من السّابقين ، وسيرثكم إياه اللاّحقون. فالّذين آمنوا منكم وأنفقوا في وجوه البرّ لهم أجرٌ كبيرٌ وثوابُ عظيم . وما الّذي يمنعكم من الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والرّسول محمّدٌ ﷺ يدعوكم لتؤمنوا بالله تعالى ربّكم الّذي أخذ عليكم العهد المؤكّد وأنتم في عالم الذّرّ بأن تفردوه عزّ وجلّ بالعبادة ، إن كنتم حريصين على الإيمان ومجاهدين في البحث عن السّبيل الموصل إلى توحيد الله تعالى. الله تعالى هو الّذي ينزّل على عبده محمّد ﷺ آيات الكتاب العزيز البيّنات،

وليخرجكم من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور التّوحيد والعلم . وإنّ الله تعالى بكم أيّها النّاس لرءوف رحيم إذ أرسل رسوله الكريم وأنزل كتابه العظيم.

وما الّذي يمنعكم أيّها المؤمنون أن تنفقوا في سبيل الله تعالى ، ولله تعالى ميراث السّماوات والأرض . إنّ ورثتكم سيرثونكم بأمر الله تعالى. وإنّ الله تعالى سيرث الأرض ومن عليها، فبادروا إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى . لا يستوي منكم أيّها المؤمنون من أنفق في سبيل الله تعالى من قبل فتح مكّة وقاتل . إنّ الّذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أعظم درجةً عند الله تعالى من الّذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، وذلك بسبب الحاجة الأشدّ قبل فتح مكّة . وكلاًّ من الفريقين وعده الله تعالى الجنّة والله تعالى بما تعملون خبيرٌ يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظواهرها. من ذا الّذي يقرض الله تعالى قرضاً حسناً بالإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته فيضاعف له المثوبة ، وله أجرٌ كريم وثوابٌ عظيم.

(٣)

((المؤمنون يسعى نورهم يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون والكافرون مأواهم النّار وبئس القرار))

الآيات (١٢-١٥)

كلٌّ من الّذين أنفقوا من قبل فتح مكّة وقاتلوا والّذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا وَعَدَه الله تعالى الجنّة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بمقدار إيمانهم بين أيديهم وبأيمانهم وبكلّ الجهات الأخرى الممكنة ، ويقال لهم بشارتكم اليوم الّتي تُبشرّون بها جنّاتٌ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار خالدين فيها. الخلود في جنّات النّعيم هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انتظرونا نستصبح من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم وعودوا من حيث أتيتم فالتمسوا نوراً في تلك الظّلمات المطبقة، فَضُرِب بين المؤمنين والمنافقين بسورٍ هو سور الأعراف الّذي يفصل بين الجنّة والنّار.

لذلك السّور باب . باطنه فيه الرّحمة والجنّة من ناحية المؤمنين . وظاهره من قبله وجهته الأخرى العذاب والنّار من ناحية المنافقين . ينادى المنافقون المؤمنين ويقولون لهم: ألم نكن معكم في الدّنيا ، نصلّي ونصوم، نغدو ونروح، نتعامل ونتعايش ! قالوا بلى، قد كان كلّ ذلك ولكنّكم فتنتم أنفسكم بالنّفاق، وتربّصتم بالإسلام وأهله الدّوائر، وشككتم في وحدانيّة الله تعالى وفي صدق محمّد ﷺ وخدعتكم الأمانيّ الباطلة بأنّ في العمر فسحةً للتّوبة والعودة إلى الله تعالى، حتّى جاء الموت بغتة، وخدعكم بالله تعالى الشّيطان الرّجيم، بأنّكم في مأمن من عذابه ومنجىً من عقابه. فاليوم لا يؤخذ منكم فداءٌ ولا من الّذين كفروا. مأواكم النّار هي أولى بكم . وبئس المصير والقرار النّار.

(٤)

((آن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى والقرآن الكريم وأن يلحقوا بالّذين أنعم الله تعالى عليهم ، وألاّ يغترّوا بالحياة الدّنيا ، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين))

الآيات (١٦-٢٠)

لمّا كانت الحياة الدّنيا ليست سوى طريقٍ موصلٍ إلى الآخرة حيث الجزاء وكان المطلوب من الّذين آمنوا أن يتعلّقوا بجدّ الأمور فإن الحقّ جلّ وعلا يوجّه الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم هذه الوجهة . وإنّ التّابعين لهم بإحسانٍ لاحقون بهم. لقد آن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى وما نزل من آي الكتاب العزيز الّذي أنزله الله تعالى بالحقّ وبالحقّ نزل، وبألاّ يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل ، وهم اليهود والنّصارى الّذين طال عليهم الزّمان بينهم وبين موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام، فقست قلوبهم فلا تخشع لذكر الله تعالى والوحي من الله تعالى، وكثيرٌ منهم فاسقون في أعمالهم خارجون عن الصّراط المستقيم.

اعلموا أيّها المؤمنون وأيّها النّاس أنّ الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بالغيث، وأنّه عزّ وجلّ هو القادر على إعادة الحياة والخشية إلى قلوبكم بعد موتٍ وقسوة فتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً. قد بيّنّا لكم آيات كتابنا العزيز الباهرات لعلّكم تستعملون عقولكم استعمالاً صحيحاً وتستبقون الخيرات.

إنّ المتصدّقين والمتصدّقات والّذين أقرضوا الله تعالى قرضاً حسناً فأرادوا وجه الله تعالى بما أنفقوا في سبيله عزّ وجلّ يضاعف لهم يوم القيامة ثوابهم ولهم أجرٌ كريم وجزاءٌ عظيم . والّذين آمنوا بالله تعالى وحده لا شريك له ، وصدّقوا رسوله ﷺ أولئك هم الصّدّيقون المبالغون في الصّدق والّذين صدّقت أفعالهم أقوالهم. والشّهداء عند ربّهم في جنّات النّعيم لهم أجرهم العظيم ونورهم الواسع الانتشار. والّذين كفروا بالله تعالى وكذّبوا بآياته عزّ وجلّ البيّنات أولئك أصحاب الجحيم.

اعلموا أيّها المؤمنون وأيّها النّاس أنّما الحياة الدّنيا عند أهلها الّذين لا يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى لعبٌ ولهو. إنّها لعبٌ حينما لا يراد بالأعمال وجه الله تعالى وبذلك فقدت شرط الإخلاص. وإنّها لهوٌ حينما لا تكون خالصةً لله تعالى ، ولا صواباً إذ لا تتّبع سنّة المصطفى ﷺ. إنّها فقدت شرطي الإخلاص والصّواب . والحياة الدّنيا وراء ذلك زينةٌ وبهرج، وتفاخرٌ بين النّاس ومباهاة، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد .

إنّ مَثَلَ الحياة الدّنيا على الحقيقة وعند الحصيف كمثل غيثٍ نزل بعد يأس، فأحيا الأرض بعد موتها وأعجب الزّرّاع نباته. إنّه ييبس بعد ذلك ويصفرّ ويكون هشيماً تذروه الرّياح. إنّ المؤمن لا تخفى عليه حقيقة الحياة الدّنيا. وإنّ الكافر يغترّ بها، ويعتبرها منتهى همّه، وكأنّ زهرتها لن تذبل. وهكذا يكون مصير الكافر العذاب الشّديد في الآخرة ويكون من نصيب المؤمن المغفرة من الله تعالى لذنوبه، والرّضوان من الله تعالى بمضاعفة الثّواب.

إنّ الحياة الدّنيا ليست إلاّ متاع الغرور، فعلى المؤمن أن يعمل فيها الصّالحات كي يحييه الله تعالى الحياة الطيّبة في الأولى، ويجزيه الجزاء الأوفى في الآخرة.

(٥)

((سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّةٍ نعيم، وفضلٍ من الله تعالى عظيم، واجعلوا الحزن صبراً ، والفرح شكراً))

الآيات (٢١-٢٤)

لمّا كانت الحياة الدّنيا متاع الغرور وكانت السّورة الكريمة قد حثّت الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم على أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى ولآي الذّكر الحكيم فمن باب الأحرى أن يندرج اللّاحقون في هذا الحثّ على خشية الله تعالى. سابقوا أيّها المؤمنون وتنافسوا في عمل الصّالحات الّتي تفضي بكم بإذن الله تعالى إلى مغفرة من ربّكم عزّ وجلّ لذنوبكم ، وجنّةٍ عرضها كعرض السّماء والأرض فكيف بطُولِها. إنّها أُعِدَّتْ للّذين آمنوا بالله تعالى وبرسله الكرام صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. ذلك الخلود في جنّات النّعيم فضل الله تعالى يعطيه من يشاء من عباده. والله تعالى ذو الفضل العظيم والخير العميم. واعلموا أيّها المؤمنون أنّ الإيمان شطران ، شطرٌ صبرٌ وشطرٌ شكر. إنّ كلّ ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض كالجدب والفيضان، وفي أنفسكم كالمرض والموت، مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ من قبل أن نخلق النّفوس. إنّ ذلك يسير على الله تعالى . عليكم أيّها المؤمنون أن تعلموا ذلك وتؤمنوا به لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدّنيا ، ولا تفرحوا فرح بطرٍ بما أعطاكم. إنّ عليكم أن تجعلوا الحزن صبراً ، والفرح شكراً . والله تعالى لا يحبّ كلّ متكبّر في نفسه فخورٍ على الآخرين . إنّهم الّذين يبخلون فلا يعطون أصحاب الحقوق حقوقهم الّتي جعلها الله تعالى لهم في أموال الأغنياء ، بل إنّهم ليأمرون الآخرين بأن يبخلوا مثلهم ويحذوا حذوهم . ومن يعرض عن عِظةِ الله تعالى فإن الله تعالى غنيٌّ عنه . إنّ الله تعالى هو الغنيّ عن خلقه المحمود على كلّ حال.

(٦)

((أرسل الله تعالى رسله بالمعجزات ، وأنزل كتبه للاهتداء، والعدل والحديد لإحقاق الحقّ ، فاتّبعوا ولا تبتدعوا، واتّقوا الله وآمنوا برسوله))

الآيات (٢٥-٢٩)

تبيّن آيات القسم الأخير من السّورة الكريمة مجموعةً من أهمّ معالم الطّريق في السّفر إلى الله تعالى. لقد أرسل الله تعالى رسله بالآيات البيّنات الّتي يؤمن بمثلها البشر، وأنزل معهم الكتب للاهتداء ، والعدل والحديد لإقامة القسط وإحقاق الحقّ سِلْمًا وحرباً ، وليعلم الله تعالى القويّ العزيز من ينصره ورسله بالغيب . آمنوا أيّها النّاس بالله تعالى، واتّبعوا رسوله ﷺ ، وانشروا العدل، وسخّروا القوّة لحماية الحقّ ونُصرة أهله. ولقد أرسل الله تعالى نوحاً أوّل رسل الله تعالى إلى البشر، وإبراهيم أبا الأنبياء ، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين ، وجعل في ذرّيّتهما النّبوّة والكتب السّماويّة، فمنهم مهتدون، وكثيرٌ منهم فاسقون. ثمّ أتبع الله تعالى على آثار المرسلين والنّبيّين السّابقين برسله جلّ وعلا، وأتبع بعيسى ابن مريم عليه السلام ، آخر أنبياء بني إسرائيل ، وآتاه الإنجيل ، وجعل في قلوب الّذين اتّبعوه رقّةً وشفقةً ورحمة ، ورهبانيّة ابتدعها الّذين اتّبعوه عليه السّلام ما كتبها الله تعالى ولا فرضها عليهم، لكنّهم ابتدعوها ابتغاء مرضاة الله تعالى فما أدّوها على وجهها. فآتينا الّذين آمنوا بالله تعالى واتّبعوا رسوله ﷺ أجرهم. وكثيرٌ منهم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم، فعليكم أيّها المسلمون بالاتّباع والبعد عن الابتداع.

يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ، وآمنوا برسوله محمّد ﷺ يؤتكم الله تعالى نصيبين من رحمته وليس نصيباً واحداً كالّذي كان من نصيب اليهود والنّصارى، ويجعل لكم نوراً تمشون به إلى جنّات النّعيم ، ويغفر لكم ذنوبكم. والله تعالى غفورٌ رحيم. أعلمكم الله تعالى بما خصّكم به يا أمّة محمّد ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله تعالى فيمنعونه، وليعلموا أنّ الفضل بيد الله تعالى وحده دون سواء يعطيه من يشاء من عباده . والله تعالى ذو الفضل العظيم والخير العميم.

التّفسير

(١)

((سبّح ما في السّماوات والأرض لله تعالى الّذي له الأسماء الحُسْنى والصّفات العُلَى))

الآيات (١-٦)

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢ ﴾

سبّح لله تعالى كلّ ما في السّماوات والأرض، ونزّهه عزّ وجلّ عن كلّ ما لا يليق به جلّ وعلا كلّ ما في السّماوات والأرض من جمادٍ ونباتٍ وحيوان . وكثيرٌ من النّاس سبّحوا الله تعالى ونزّهوه عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون المشركون ممّا يتعارض مع عظمته عزّ وجلّ . وهو جلّ وعلا العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وتدبيره، وتقديره، وحكمه ، وفي كل شيءٍ سبحانه، لا معبود بحقٍّ سواه عزّ وجلّ.

لله تعالى مُلْك السّماوات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ من ملائكة ، وجنٍّ، وإنسٍ،وسائر المخلوقات ، يحيي من يريد إحياءه، ويميت من يريد إماتته ، لا رادّ لحكمه، ولا مانع لقضائه، وهو جلّ وعلا على كلّ شيءٍ قدير،فلا يعجزه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

جاء في تسبيح السّماوات والأرض ومن فيهنّ الله تعالى قول الحقّ جلّ وعلا[1]: ﴿ تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ . وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنّه كان حليماً غفورا ﴾

﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٣ ﴾

الله تعالى هو الأوّل قبل كلّ شيءٍ بغير حدّ[2] والآخر بعد كلّ شيءٍ بغير نهاية[3] وقد قال عزّ من قائل[4] :﴿كلّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَه ﴾ والظّاهر على كلّ شيءٍ دونه،

---

[1] سورة الإسراء ٤٤

[2] تفسير الطّبري ١٢٤/٢٧

[3] تفسير الطّبري ١٢٤/٢٧

[4] سورة القصص ٨٨

العالي فوق كلّ شيء فلا شيء أعلى منه[١] الباطن جميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيءٍ منه كما قال[٢] : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [٣] والله تعالى بكلّ شيءٍ عليم ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء سبحانه.

الأوّل والآخر مستغرقاً كلّ حقيقة الزّمان ، والظّاهر والباطن مستغرقاً كلّ حقيقة المكان[٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

ثمّ استوى على العرش: الكرسيّ استواءً يليق به[٥]

يلج في الأرض : يدخل في الأرض[٦] كالمطر والأموات[٧]

وما يخرج منها : كالنّبات والمعادن[٨]

---

[١] تفسير الطّبري ١٢٤/٢٧

[٢] سورة ق ١٦

[٣] تفسير الطّبري ١٢٤/٢٧

[٤] في ظلال القرآن ٣٤٧٩/٦

[٥] الجلالين.

[٦] تفسير الطّبري ١٢٥/٢٧

[٧] الجلالين

[٨] الجلالين

وما ينزل من السّماء : كالرّحمة والعذاب[1]

وما يعرج فيها: وما يصعد فيها[2] من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصّحيح: يرفع إليه عمل اللّيل قبل النّهار، وعمل النّهار قبل اللّيل[3].

وهو معكم : بعلمه[4].

الله سبحانه وتعالى هو الّذي خلق السّماوات والأرض في ستّة أيّام، الله تعالى أعلم بحقيقتها، ثمّ استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله ، فارتفع عليه وعلا.يعلم ما يدخل في الأرض كالمطر والأموات، وما يخرج منها كالنّباتات والمعادن ، وما ينزل من السّماء كالرّحمة والعذاب، وما يصعد فيها كالملائكة والأعمال . والله تعالى معكم أيّها النّاس بعلمه أينما كنتم ، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. والله تعالى بما تعملون بصير، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ من النّيّات، والأقوال ، والأعمال ، وسيجازي كلاًّ على ما قدّم من خيرٍ أو شرّ.

﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝ ﴾

وإلى الله ترجع الأمور : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم في خلقه بما يشاء[5]

لله تعالى ملك السّماوات والأرض يتصرّف فيهما كيف يشاء ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه جلّ وعلا. وإلى الله تُرجع أمور الخلائق يوم القيامة ، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ويحكم في خلقه بما يشاء.

---

[1] الجلالين.

[2] تفسير الطّبري ١٢٥/٢٧

[3] تفسير ابن كثير ٣٤/٨ ونظر صحيح مسلم ١٦٢/١ حديث رقم ٢٩٣

[4] الجلالين

[5] تفسير ابن كثير ٣٥/٨

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦ ﴾

من مظاهر قدرته عزّ وجلّ أنّه يُدْخل اللّيل في النّهار فيطول النّهار بقدر ما نقص من اللّيل ، ويُدْخل النّهار في اللّيل فيطول اللّيل بقدر بقدر ما نقص من النّهار ، وأحياناً يعتدلان . ولله تعالى في كلّ ذلك الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة . والله تعالى عليمٌ بذات الصّدور، ودخائل النّفوس والقلوب . فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وهكذا تومئ الآية الكريمة إلى شيءٍ من قدرة الله تعالى المطلقة ، وعلمه المحيط جلّ وعلا.

(٢)

((حثّ جنس الإنسان الكفور على الإيمان بالله تعالى وبالرّسول ﷺ
والإنفاق في سبيل الله تعالى ، والجهاد بالنّفس والنّفس))
الآيات (٧-١١)

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ ﴾

وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه: وأنفقوا ممّا خوّلكم الله من المال الّذي أورثكم عمّن كان قبلكم فجعلكم خلفاءهم فيه[1]

نصّت الآية الكريمة الثّامنة عشرة من سورة الحج على أنّ الله تعالى يسجد له من في السّماوات ومن في الأرض والشّمس والقمر والنّجوم والجبال والشّجر والدّوابّ بغير استثناء، ويسجد لله تعالى كثيرٌ من النّاس وليس جميع النّاس مع أنّ الحقّ جلّ وعلا منّ على النّاس بنعمة العقل مناط التّكليف وبالإرادة أي حرّيّة الاختيار . وإنّ كفّار مكّة من بين هؤلاء الّذين لا يسجدون لله تعالى ولا يسبّحونه . والآية الكريمة تخاطب هذا الفريق من النّاس الّذي حقّ عليه العذاب إن لم يفرد الله تعالى بالعبادة . إنّ الآية الكريمة تأمر النّاس بأن يؤمنوا بالله تعالى وحده لا شريك له، وبأن يصدّقوا الرّسول ﷺ فيما بلّغ عن ربّه عزّ وجلّ . كما تأمرهم في تلك الفترة الّتي كان الجهاد في سبيل الله تعالى بحاجةٍ إلى المال كغزوة تبوك وساعة العسرة، تأمرهم بان ينفقوا من المال الّذي جعلهم الله تعالى مستخلفين فيه وأورثهم إيّاه عمّن كان قبلهم فجعلهم خلفاءهم فيه. وهذا المال الّذي ورثوه عن السّابقين سيرثه اللّاحقون . وهم إن لم يؤدّوا حقّ الله تعالى فيه كان وبالاً عليهم . ((فلعلّ وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك . أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان))[2]

---

[1] تفسير الطّبري ١٢٥/٢٧

[2] تفسير ابن كثير ٣٦/٨

روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال: " يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت "[1]

وتبشّر الآية الكريمة الّذين آمنوا وأنفقوا في سبيل الله تعالى بأنّ لهم أجراً كبيراً، وثواباً عظيماً.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ هُوَ ۝٨ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ ﴾

وما الّذي يمنعكم أيّها الكافرون من الإيمان بالله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة والرّسول محمّد ﷺ يدعوكم لتؤمنوا بالله تعالى الّذي ربّاكم بنعمه والّذي قد أخذ ميثاقكم وأنتم في عالم الذّرّ في ظهر أبيكم آدم عليه السّلام . ما الّذي يمنعكم من الإيمان إن كنتم حريصين على الإيمان حقّاً، مجاهدين في سبيل توحيد الله تعالى صدقا . لقد جاء بشأن الميثاق الّذي أخذه الله تعالى من ذرّيّة آدم عليه الصّلاة والسّلام وهم في صلبه بأن يوحّدوه عزّ وجلّ قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأعراف[2] :﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون ﴾ إن الله تعالى هو الّذي ينزّل على عبده محمّد ﷺ آياتٍ بيّنات وحججاً بالغات ليخرجكم أيّها

---

[1] تفسير ابن كثير ٣٦/٨

[2] الآيات ١٧٢-١٧٤

النّاس من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وإنّ الله تعالى بإنزال الآيات البيّنات لرءوفٌ بكم أيّها النّاس ورحيم.

﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠ ﴾

ألاّ تنفقوا : أن حرف مصدريّ . لا : نافية[1]

ولله ميراث السّماوات والأرض: وإلى الله صائرٌ أموالكم إن لم تنفقوها في حياتكم في سبيل الله[2].

من قبل الفتح : من قبل فتح مكّة . هذا هو رأي الجمهور[3]

الحُسْنَى : الجنّة[4]

وما الذي يمنعكم أيّها المؤمنون أن تنفقوا في سبيل الله تعالى فيكون لكم الأجر العظيم. ولله تعالى ميراث السّماوات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ بما في ذلك أموالكم فتكون في القريب للوارثين بأمر الله تعالى، وفي البعيد لله تعالى الّذي يرث الأرض ومن عليها، والّذي يبقى وجهه الكريم وحده دون سواه: ﴿ ولله ميراث السّماوات والأرض﴾

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٦٤/١٢

[2] تفسير الطّبري ١٢٦/٢٧

[3] تفسير ابن كثير ٣٧/٨ والجلالين وتفسير الطّبري ١٢٦/٢٧.

[4] تفسير الطّبري ١٢٧/٢٧

هلّا بادرتم إلى الإتفاق في سبيل الله تعالى من المال الّذي أعطاكم إيّاه. وائتمنكم عليه وأمركم بالإنفاق منه في سبيله جلّ وعلا.

لا يستوي منكم أيّها المؤمنون من أنفق في سبيل الله تعالى من قبل فتح مكّة المكرّمة في شهر رمضان المبارك سنة ثمان من الهجرة[1] وقاتل في سبيل الله تعالى، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل. إنّ الّذين أنفقوا في سبيل الله تعالى وقاتلوا من قبل فتح مكّة أعظم درجةً عند الله تعالى من الّذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، بسبب شدّة الحاجة قبل الفتح للجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس. وكلاً من الفريقين وعده الله تعالى الجنّة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

والله بما تعملون أيّها النّاس خبيرٌ يعلم بواطن الأمور فيجازي عليها ، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

قرضاً حسنا: سُمّي ما يُدْفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضاً[2] يقول تعالى ذكره: من هذا الّذي ينفق في سبيل الله في الدّنيا محتسباً في نفقته مبتغياً ما عند الله. وذلك هو القرض الحسن[3] .

تحثّ الآية الكريمة المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى في كلّ وجوه البرّ من جهادٍ في سبيل الله تعالى بالمال إلى إنفاق المال في كلّ المجالات الّتي فيها صلاح العباد والبلاد ابتغاء مرضاة الله تعالى والحصول على الأجر الكريم والثّواب العظيم. والآية

---

[1] السّيرة النّبويّة ٣١/٤

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "قرض ٥١٨/٢

[3] تفسير الطّبري ١٢٨/٢٧.

الكريمة تُنزّل ما ينفق في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته منزلة القرض الحسن بين العباد في الدّنيا . إنّ من متعلَّقات القرض الحسن أن يُرّدّ بدله على المقرض. وإنّ الحقّ حلّ وعلا يَعِد المقرض، ووعده الحقّ ، بمضاعفة ثواب المقرض إلى عَشْر أمثال الحسنة، فإلى سبعمائة ضعف ، فإلى أكثر من ذلك . وللمقرض وراء ذلك أجرٌ كريمٌ عند الله تعالى في جنّات النّعيم .

(٣)

((المؤمنون يسعى نورهم يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم والمنافقون والكافرون مأواهم النّار وبئس القرار))

الآيات (١٢-١٥)

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

يوم ترى المؤمنين والمؤمنات : وكلاً وعد الله الحُسْنَى يوم ترى[1]

بشراكم اليوم : بشارتكم اليوم أيّها المؤمنون الّتي تبشّرون بها[2]

وكلاً من الّذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكّة ، وأنفقوا وقاتلوا بعد الفتح وعد الله تعالى الجنّة ، يوم ترى أيّها المخاطب المؤمنين والمؤمنات يسعى نور إيمانهم أمامهم بين أيديهم بحسب إيمانهم ، وبأيمانهم. ويفهم أنّ النّور يُرى كذلك من كلّ الجهات الباقية الّتي يمكن أن يُرى منها النّور . ويقال لهم بشارتكم اليوم أيّها المؤمنون الّتي تُبَشّرون بها جنّاتٌ تجري من تحت أشجارها وقصورها أنواع الأنهار ، خالدين فيها أبدا. ذلك هو الفوز العظيم حقّا.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم

---

[1] انظر تفسير الطّبري ١٢٨/٢٧

[2] تفسير الطّبري ١٢٨/٢٧

بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

يوم يقول المنافقون والمنافقات : ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات[١] .

انظرونا : انتظرونا[٢] والنّظر: الانتظار . يقال: نَظَرته، وانتظرته، وأنظرته[٣].

نقتبس من نوركم : نستصبح من نوركم . والقبس: الشّعلة[٤] والقبس والاقتباس : طلب ذلك . ثمّ يستعار لطلب العلم والهداية[٥].

ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا : ارجعوا من حيث جئتم واطلبوا لأنفسكم هنالك نوراً ، فإنّه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا[٦].

فضرب بينهم بسور: فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بسور . وهو حاجزٌ بين أهل الجنّة وأهل النّار[٧] قال ابن زيد : هو الّذي قال الله تعالى[٨]:﴿ وبينهما حجاب ﴾ وهكذا رُوي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد. وهو الصّحيح[٩]

---

[١] تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

[٢] تفسير الطبري ١٢٩/٢٧

[٣] مفردات الرّاغب الأصفهاني: " نظر" ٦٤٣/٢

[٤] تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

[٥] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: " قبس " ٥٠٥/٢.

[٦] تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

[٧] تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

[٨] سورة الأعراف ٤٦

[٩] تفسير ابن كثير ٤٣/٨ وانظر تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

له باب: لذلك السّور باب[١] .

باطنه فيه الرّحمة : الجنّة[٢] من جهة المؤمنين[٣].

وظاهره من قبله العذاب: وظاهره من قبل ذلك الظّاهر[٤] وجهته وناحيته[٥] النّار[٦] من جهة المنافقين[٧].

ألم نكن معكم : في الدّنيا نصلّي ونصوم ونناكحكم ونوارثكم[٨] .

ولكنّكم فتنتم أنفسكم: فنافقتم.وفِتْنتُهُمْ أنفسهم في هذا الموضع كان النّفاق[٩].

وتربّصتم : بالمؤمنين الدّوائِر[١٠] .

وارتبتم : شككتم في دين الإسلام[١١]

وغرّتكم الأمانيّ:وخدعتكم أمانيّ أنفسكم فصدّتكم عن سبيل الله وأضلّتكم[١٢].

حتّى جاء أمر الله: الموت[١٣].

الغَرور: الشيطان[١٤] فأطمعكم بالنّجاة من عقوبة الله والسّلامة من عذابه[١٥]

---

[١] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[٢] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[٥] المعجم الوسيط: "قبل"

[٦] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[٧] الجلالين

[٨] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[٩] تفسير الطّبري١٣٠/٢٧

[١٠] الجلالين.

[١١] الجلالين.

[١٢] تفسير الطّبري ١٣٠/٢٧

[١٣] الجلالين.

[١٤] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧ والجلالين.

[١٥] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧

فدية: عوض وبدل[1].

هي مولاكم: النّار أولى بكم[2].

البشارة الّتي يُبَشّر بها المؤمنون والمؤمنات يوم القيامة جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انتظرونا نقتبس من نوركم كي نتبيّن طريقنا ، قيل ارجعوا من حيث جئتم واطلبوا لأنفسكم هنالك نورا. قال ابن عبّاس: بينما النّاس في ظلمة إذ بعث الله نوراً. فلمّا رأى المؤمنون النّور توجّهوا نحوه. وكان النّور دليلاً من الله إلى الجنّة . فلمّا رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنّا كنّا معكم في الدّنيا . قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظّلمة فالتمسوا هنالك النّور[3] فضرب الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين بسور هو سور الأعراف الّذي عبّرت عنه سورة الأعراف الكريمة بالحجاب. ولهذا السّور باب. باطنه فيه الرّحمة بمعنى الجنّة من ناحية المؤمنين . وظاهره من جهته الأخرى العذاب بمعنى النّار من ناحية المنافقين.

ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم في الدّنيا نصلّي ونصوم ونعيش معكم ونتواصل ؟ قالوا : بلى، كنتم معنا كما ذكرتم، ولكنّكم فتنتم أنفسكم بالنّفاق بعد الإيمان، وتربّصتم بالمؤمنين الدّوائر وشككتم في دين الإسلام ، وفي توحيد الله تعالى وفي رسالة مُحَمَّد ﷺ ، وغرّتكم الأمانيّ المعسولة، بأن تتوبوا مستقبلاً ، حتى جاء أمر الله تعالى بالموت وأنتم على نفاقكم ، وغرّكم بالله تعالى الشيطان الرّجيم، فأطمعكم بالنّجاة من عقوبة الله تعالى والسّلامة من عذابه. ففي يوم القيامة هذا لا يؤخذ منكم فداءٌ ولا من الذين كفروا ، النّار هي أولى بكم. وبئس المصير والقرار النّار.

---

[1] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧

[2] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧ وفتح الباري ٦٢٧/٨و٦٢٨

[3] تفسير الطّبري ١٢٩/٢٧

(٤)

((آن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى وللقرآن الكريم وأن يلحقوا بالّذين أنعم الله تعالى عليهم ،وألاّ يغترّوا بالحياة الدّنيا ، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين "

الآيات (١٦-٢٠)

﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾

ألم يأن: ألم يحن[١] أما آن[٢] .

وما نزل من الحقّ :وهو هذا القرآن الّذي نزّله على رسوله ﷺ[٣] .

أوتوا الكتاب من قبل: اليهود والنّصارى[٤] الّذين أوتوا التّوراة والإنجيل[٥].

فطال عليهم الأمد: الزّمن بينهم وبين أنبيائهم[٦] .

وكثيرٌ منهم فاسقون: أي في الأعمال. فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة[٧] .

أما حان الوقت وآن الأوان للّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى وتلين وترقّ ، ولما نزل من الحقّ من آي هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد. أما آن للمؤمنين ألاّ يكونوا كالّذين آتاهم الله تعالى الكتاب من قبل وهم اليهود أتباع موسى عليه السّلام الذي أوحى الله تعالى إليه التّوراة، والنّصارى أتباع عيسى عليه السّلام الّذي أوحى الله تعالى إليه الإنجيل . لقد طال على أهل الكتاب الأمد، وبعد الزّمان بينهم وبين كلٍّ من موسى

---

[١] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧

[٢] تفسير ابن كثير ٤٥/٨

[٣] تفسير الطّبري ١٣١/٢٧

[٤] تفسير ابن كثير٤٦/٨

[٥] تفسير الطّبري ١٣٢/٢٧

[٦] الجلالين.

[٧] تفسير ابن كثير ٤٦/٨

وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام، فقست قلوبهم، فلا تلين لذكر الله تعالى، ولا ترقّ لموعظة ، وكثيرٌ منهم فاسقون في أعمالهم خارجون عن الصّراط المستقيم.

عن ابن مسعود ﷺ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلاّ أربع سنين[1]

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧ ﴾

اعلموا أيّها النّاس وأيّها المؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى يحيى الأرض الميتة بالماء النّازل من السّماء ، وكذلك يهدي الكافر إلى الإيمان ، ويلين القلب القاسي، بآي الكتاب العزيز، النّازل من السّماء كذلك . وهكذا يكون الماء الّذي يحيى الأرض بعد موتها ، والقرآن الكريم الّذي يحيى القلوب بعد موتها، يجمع بينهما النّزول من السّماء. الماء عماد غذاء الأبدان. والقرآن الكريم عماد غذاء الأرواح. قد بيّنّا لكم أيّها النّاس وأيّها المؤمنون آيات الكتاب العزيز لعلّكم تستعملون عقولكم استعمالاً صحيحاً ، فيهتدي الضّالّ، ويخشع القلب القاسي.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩ ﴾

[1] تفسير ابن كثير ٤٥/٨ وانظر صحيح مسلم ٢٣١٩/٤ حديث رقم ٣٠٢٧

إنّ المصّدّقين : جمع المصّدّق ، اسم فاعل من اصّدّق زنة افّعّل بتشديد الفاء والعين . وفيه إبدال . أصله تصدّق . أبدلت التّاء صاداً للمجانسة، ثمّ أدغمت في فاء الكلمة بعد تسكينها . ثمّ زيدت همزة الوصل في أوّله للتّخلّص من السّاكن فأصبح اصّدّق . فوزن اسم الفاعل على هذا متفعّل بضمّ الميم وكسر العين[1]

والّذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون: والّذين أقرّوا بوحدانيّة الله وإرساله رسله فصدّقوا الرّسل وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربّهم أولئك هم الصّدّيقون[2] المبالغون في التّصديق[3] الّذين حقّقوا صدقهم بأفعالهم[4] .

إنّ المتصدّقين والمتصدّقات ، وأقرضوا الله تعالى قرضاً حسناً فأنفقوا في سبيله ابتغاء مرضاته كما قال تعالى[5]:﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾ يضاعف لهم الثّواب ولهم أجرٌ كريمٌ في جنّات النّعيم. والمتصدّقون والمنفقون في سبيل الله تعالى يفعلون كلّ ذلك بعد أداء الزّكاة المفروضة، وهذا مفهومٌ ضمنا. والذّين آمنوا بالله تعالى وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله ﷺ في كلّ ما أوحاه الله تعالى إليه، أولئك هم الصّدّيقون المبالغون في التّصديق، الّذين يصدّقون أقوالهم بأفعالهم. والشّهداء عند ربّهم جلّ وعلا لهم أجرهم العظيم في جنّات النّعيم ، ونورهم الخاصّ بهم الّذي يستنيرون به ويرشد إلى مكانهم الرّفيع.

والّذين كفروا بالله تعالى وكذّبوا بآيات الله تعالى الموحى بها إلى محمّد بن عبدالله ﷺ أولئك أصحاب الجحيم ، والعذاب الأليم.

وهذه الآية الكريمة الثّانية تتحدّث عن المرسلين والصّدّيقين، والشّهداء . وكأنّها

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٧٣/١٢

[2] تفسير الطّبري ١٣٢/٢٧

[3] الجلالين.

[4] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : "صدق" ٣٦٤/٢

[5] سورة الإنسان ٩

تومئ إلى ترتيب هذه الفئات الثّلاث من الّذين أنعم الله تعالى عليهم . ويلحق بالمرسلين النّبيّون. والصّدّيقون هم قومٌ دُوَين الأنبياء في الفضيلة[1] ولا شكّ أنّ الصّدّيق أعلى مقاماً من الشّهيد. كما رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في كتابه الموطّأ عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدّرّيّ الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى ، والّذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين.

اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديثٍ مالكٌ به[2]

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾

أعجب الكفّار : أعجب الزّرّاع[3] والكُفر في اللّغة ستر الشيء. ووصف الزَّرّاع بالكافر لستره البذر في الأرض[4].

ثمّ يهيج : ثمّ ييبس ذلك النّبات[5].

ثم يكون حطاماً : يكون تبناً يابساً متهشّماً[6].

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني: " صدق" ٣٦٤/٢

[2] تفسير ابن كثير ٤٨/٨

[3] تفسير ابن كثير ٥٠/٨ والجلالين.

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "كفر" ٢٥٩/٢

[5] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧.

[6] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧

اعلموا أيّها النّاس أنّ الحياة الدّنيا في حقّ أصحابها الّذين جعلوها منتهى همّهم والّذين لا يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إنّما هي لعبٌ حينما تفقد الأعمال شرط الإخلاص لله تعالى، ولهوٌ حينما تفقد شرط الإخلاص لله تعالى، وشرط الصّلاح بمقياس الإسلام. ووراء ذلك هي زينةٌ ظاهرةٌ زائلةٌ وتفاخرٌ بينكم ومباهاةٌ كاذبة ، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد . إنّ مصير كلّ ذلك الزّوال . وإنّ مَثَلَ الحياة الدّنيا وزهرتها الذّابلة كمثل غيثٍ نزل من السّماء من بعد ما قنط الزُّرّاع ، فأحيا به الله تعالى الأرض الميتة، فاهتزّت، وربت وارتفعت، وأنبتت من كلّ زوج بهيج. وهذا النّبات الّذي نما بالغيث وآتى أكله قد أعجب الزُّرّاع واستحوذ على اهتمامهم. وما لبث هذا النّبات أن يبس وغدا مصفرّ اللّون ثمّ أصبح حطاماً متهشّماً تطوّح به الرّياح في كلّ جهة.

هذه هي أوجه الشّبه بين زهرة الحياة الدّنيا ، وبين الزّرع الّذي يملأ العين لذّةً والنّفس بهجة. إنّ زهرة الحياة الدّنيا الّتي تعجب الكافر الّذي يستر الإيمان ويخفيه. وإنّ النّبات الّذي يعجب الزّارع الّذي يستر البذور ويخفيها،مصيركلٍّ منهما الذّبول والفناء.

أمّا المؤمن فإنّه يستثمر الحياة الأولى من أجل الحياة الآخرة، وذلك بعمل الصّالحات ، وعدم نسيان حظّه من الحياة الأولى، والإحسان إلى الآخرين كما أحسن الله تعالى إليه من الوجهتين الرّوحيّة والمادّيّة. وهكذا ينسجم المؤمن مع الحياة الأولى بعمل الصّالحات فيحييه الله تعالى الحياة الطيّبة فيها ويجزيه الجزاء الأوفى في الآخرة، ويغفر الله تعالى له ذنوبه ويرضى عنه بفضله.

أمّا الّذي جعل الحياة الأولى منتهى همّه فإن عذابه شديدٌ في الآخرة .

وهكذا يتأكّد أنّ الحياة الأولى ليست إلاّ متاع الغرور والغشّ والخداع ، لأنّ زهرتها ذابلة ، ومتاعها إلى زوال.

(٥)

((سابقوا إلى مغفرةٍ من ربّكم ، وجنّةٍ نعيم، وفضلٍ من الله تعالى عظيم ، واجعلوا الحزن صبراً ، والفرح شكراً))

الآيات (٢١-٢٤)

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ ﴾

سابقوا أيّها النّاس إلى مغفرة من ربّكم بعمل الحسنات الّتي تُذْهب بإذن الله تعالى السّيئات وإلى جنّةٍ يفضي إليها عمل الحسنات الّتي يتفضّل الله تعالى بقبولها والثّواب عليها . إنّ عرض الجنّة كعرض السّماء والأرض إذا وُصِلَتا ببعضهما . وهي جنّةٌ أعدّها الله تعالى للّذين آمنوا بالله تعالى وبرسله الكرام ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

ذلك الثّواب العظيم فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده الصّالحين. والله تعالى ذو الفضل العظيم والخير العميم . إنّه عزّ وجلّ هو الّذي خلق ، وأرشد، وهدى ، وأكرم ، وأنعم في الأولى والآخرة . لا نهاية لفضله ولا حدّ لنعمه سبحانه

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤ ﴾

ما أصاب من مصيبة في الأرض : ما أصابكم أيّها النّاس من مصيبةٍ في الأرض بجدوبها وقحوطها وذهاب زرعها وفسادها[1].

[1] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧

ولا في أنفسكم : بالأوصاب والأوجاع والأسقام[١]

إلاّ في كتاب: إلاّ في أمّ الكتاب[٢] يعني اللّوح المحفوظ[٣].

من قبل أن نبرأها : من قبل أن نبرأ الأنفس يعني من قبل أن نخلقها[٤].

لكيلا تأسوا على ما فاتكم : لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدّنيا فلم تدركوه منها [٥].

ولا تفرحوا بما آتاكم : ولا تفرحوا بما أعطاكم منها ربّكم وملّككم وخوّلكم[٦]

والله لا يحبّ كلّ مختال: والله لا يحبّ كلّ متكبّر بما أوتي من الدّنيا[٧].

فخور : فخور به على النّاس[٨].

ومن يتولّ : ومن يدبر معرضاً عن عظة الله[٩].

ما أصابكم أيّها النّاس وأيّها المؤمنون من مصيبةٍ في الأرض كالجدب والفيضان ، وفي أنفسكم كالمرض والموت إلاّ في كتاب هو اللّوح المحفوظ مدوّن فيه كلّ ذلك من قبل أن يخلق الله تعالى الأنفس. عليكم أيّها النّاس وأيّها المؤمنون أن تؤمنوا بذلك وتطمئنّ نفوسكم به لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ، ولا تفرحوا فرح أشرٍ وبطر بما أعطاكم الله تعالى من فضله. إنّ عليكم أن تحوّلوا الحزن صبراً ، والفرح شكراً. إنّ الإيمان شطرٌ

---

[١] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧

[٢] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧

[٣] الجلالين.

[٤] تفسير الطّبري ١٣٤/٢٧

[٥] تفسير الطّبري ١٣٥/٢٧

[٦] تفسير الطّبري ١٣٥/٢٧

[٧] تفسير الطّبري ١٣٦/٢٧

[٨] تفسير الطّبري ١٣٦/٢٧

[٩] تفسير الطّبري ١٣٦/٢٧.

صبرٌ وشطرٌ شكر. والله تعالى لا يحبّ كلّ متكبّر في نفسه فخور على الآخرين. إنّهم الّذين يبخلون فلا يعطون الآخرين حقوقهم الّتي أمرهم الله تعالى بإعطائهم إيّاها ، ووراء ذلك هم يأمرون النّاس بالبخل وبحرمان أصحاب الحقوق حقوقهم الّتي فرضها الله تعالى لهم في أموال الأغنياء . إنّ الّذي يعرض عن عظة الله تعالى فالله تعالى غنيٌّ عنه لأنّه عزّ وجلّ هو الغنيّ عن عبادة المحمود في كلّ حال.

(٦)

((أرسل الله تعالى رسله بالمعجزات ، وأنزل كتبه للاهتداء ، والعدل والحديد لإحقاق الحقّ، فاتّبعوا ولا تبتدعوا، واتّقوا الله وآمنوا برسوله))

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥ ﴾

وأنزلنا معهم الكتاب :بمعنى الكتب[١].

والميزان: العدل[٢].

ليقوم النّاس بالقسط: ليعمل النّاس بينهم بالعدل[٣].

وأنزلنا الحديد : وأنزلنا لهم الحديد[٤].

فيه بأسٌ شديد : فيه قوّةٌ شديدة[٥].

ومنافع للنّاس : ما ينتفعون به منه عند لقائهم العدوّ وغير ذلك من منافعه[٦]

وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب: بالغيب منه عنهم[٧]

لقد أرسلنا رسلنا من البشر بالآيات البيّنات الّتي آمن بمثلها البشر في العادة، وأنزلنا معهم الكتب السّماويّة الّتي تهدي إلى جنّات النّعيم ، وأنزلنا الميزان والعدل ليعمل النّاس بينهم بالعدل . وأنزلنا الحديد فيه قوّةٌ شديدةٌ في ميدان القتال ومنافع للنّاس وقت

---

[١] الجلالين.

[٢] تفسير الطّبري ١٣٧/٢٧.

[٣] تفسر الطّبري ١٣٧/٢٧.

[٤] تفسر الطّبري ١٣٧/٢٧.

[٥] تفسر الطّبري ١٣٧/٢٧.

[٦] تفسر الطّبري ١٣٧/٢٧.

[٧] تفسر الطّبري ١٣٧/٢٧.

السّلم كتكسير الجبال وقصّ الورق وما إلى ذلك. وليعلم الله تعالى علم ظهور من ينصره وينصر رسله بالغيب منه عنهم،وذلك بالجهاد في سبيله عزّ وجلّ بالسّنان واللّسان.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو القويّ ، وهو العزيز الغالب أعداءه وأعداء أوليائه.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧ ﴾

ثمّ قفينا على آثارهم برسلنا : ثمّ أتبعنا على آثارهم برسلنا الّذين أرسلناهم بالبيّنات على آثار نوحٍ وإبراهيم[1] .

رأفة : خشية[2].

ورحمة : بالخلق[3].

ورهبانيّة : رفض النّساء واتّخاذ الصّوامع[4].

---

[1] تفسير الطّبري ١٣٧/٢٧.

[2] تفسير ابن كثير ٥٤/٨

[3] تفسير ابن كثير ٥٤/٨

[4] تفسير الطّبري ١٣٨/٢٧ والجلالين.

ابتدعوها : أحدثوها[١].

ما كتبناها عليهم : ما افترضنا تلك الرّهبانيّة عليهم[٢]

إلاّ ابتغاء رضوان الله : لكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله[٣] تطوّعاً[٤] وفعلوها ابتغاء مرضاة الله [٥].

فما رعوها حقّ رعايتها: أي فما قاموا بما التزموه حقّ القيام. وهذا ذمٌّ لهم من وجهين. أحدهما : في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله . والثّاني: في عدم قيامهم بما التزموه ممّا زعموا أنّه قربةٌ يقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ[٦].

ولقد أرسلنا نوحاً عليه السّلام أوّل رسولٍ أرسله الله تعالى إلى النّاس، وإبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء. وإبراهيم عليه السّلام من ذرّيّة نوح عليه السّلام. وقد جعل الله تعالى في ذرّيّة هذين الرّسولين الكريمين النّبوّة والكتب السّماويّة. إنّ كلّ النّبيّين من ذرّيّة هذين الرّسولين الكريمين. وإنّ كلّ الكتب السّماويّة في ذرّيّتهما. وقد نصّ القرآن الكريم على كتبٍ سماويّةٍ أربعةٍ سابقة، هي صحف إبراهيم عليه السّلام، وتوراة موسى عليه السّلام ، وزبور داود عليه السّلام ،وإنجيل عيسى عليه السّلام . ومن ذرّيّة هذين الرّسولين الكريمين مهتدون، وكثيرٌ منهم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم .

---

[١] تفسير الطّبري ١٣٨/٢٧.

[٢] تفسير الطّبري ١٣٨/٢٧.

[٣] تفسير الطّبري ١٣٨/٢٨.

[٤] تفسير الطّبري ١٣٨/٢٨.

[٥] الجلالين.

[٦] تفسير ابن كثير ٥٤/٨

ثمّ أتبع الله تعالى على آثارهم برسله الكرام. ثمّ أتبع بعيسى عليه السّلام آخر أنبياء بني إسرائيل. وقد آتى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السّلام الإنجيل . وجعل في قلوب الّذين اتّبعوه عليه السّلام شفقةً ورحمة. ورهبانيّة ابتدعوها وانصرافاً عن النّساء واتّخاذاً للصّوامع انقطاعاً للعبادة . ما كتبنا الرّهبانيّة ولا فرضاها عليهم ولا شرعناها لهم ، لكن فعلوها تطوعاً ابتغاء مرضاة الله ، فما رعوا الرّهبانيّة حقّ رعايتها، وما قاموا بما فرضوه على أنفسهم من انقطاع للعبادة . فأعطى الله سبحانه وتعالى الّذين آمنوا منهم بالله تعالى واتبعوا عيسى عليه السّلام أجرهم وثواب أعمالهم الصّالحة . وكثيرٌ من أتباع عيسى عليه السّلام فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَـٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

كفلين : ضعفين[1] وحظّين[2] ونصيبين[3].

لئلاّ يعلم أهل الكتاب: لكي يعلم أهل الكتاب[4] وليعلم أهل الكتاب[5] اللام للتّعليل . أن: حرف مصدريّ ونصب. لا : زائدة . أي أعلمكم

---

[1] تفسير ابن كثير ٥٧/٨

[2] تفسير الطّبري ١٤٠/٢٧

[3] الجلالين.

[4] تفسير الطّبري ١٤٢/٢٧

[5] تفسير ابن كثير ٥٩/٨ والجلالين

بذلك ليعلم[1].

ألاّ يقدرون على شيء: أن مخفّفة من الثّقيلة. واسمها ضميرٌ يعود على أهل الكتاب . أي أنّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله[2].

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى اتّقوا الله تعالى حقّ تقاته وآمنوا برسوله محمّدٍ ﷺ حقّ الإيمان يؤتكم الله تعالى نصيبين من الأجر، وليس نصيباً واحداً من الأجر الّذي كان للسّابقين، وحظّين من الرّحمة وليس حظاً واحداً، ويجعل لكم نوراً تمشون به وتهتدون بهديه ، ويغفر لكم ذنوبكم. والله تعالى غفورٌ ذنب من استغفره، رحيمٌ شملت رحمته كلّ حيٍّ وشيء.

أعلمكم الله تعالى بذلك يا أمّة محمّد ﷺ ليعلم أهل الكتاب من اليهود والنّصارى أنّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله تعالى ، فلا يستطيعون ردّ ما أعطاه الله تعالى، ولا إعطاء ما منع الله تعالى، وليعلموا أنّ الفضل كلّه بيد الله تعالى يعطيه من يشاء من عباده. والله تعالى ذو الفضل العظيم والخير العميم.

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : مثلكم ومثل اليهود والنّصارى كمثل رجلٍ استعمل عمّالاً فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النّهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثمّ قال: من يعمل لي من نصف النّهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النّصارى . ثمّ قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشّمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الّذين عملتم.فغضبت النّصارى واليهود وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقلّ عطاءً قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا: لا . قال: فإنّما هو فضلي أوتيه من أشاء[3].

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٨٤/١٢.

[2] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٨٤/١٢.

[3] تفسير ابن كثير ٥٨/٨ وانظر فتح الباري ٤٩٥/٦ حديث رقم ٣٤٥٩ و ٤٤٦/١٣ حديث رقم ٧٤٦٧ و٥٠٨ حديث رقم ٧٥٣٣.

تعقيب :

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الحديد من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ بعد الهجرة[١] وفي السّورة الكريمة بعض المعاني المتعلقّة بما بعد الهجرة وبالفترة المدنيّة. إنّ الآية الكريمة العاشرة تشير إلى أنّ الّذين أنفقوا من قبل فتح مكّة وقاتلوا أعظم درجةً من الّذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا . والآية الكريمة الثّالثة عشرة تذكر المنافقين والمنافقات بصريح اللّفظ.

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وعشرون آية. وعدد كلماتها خمسمائة وأربعٌ وأربعون كلمة. وعدد حروفها ألفٌ وأربعمائة وأربعةٌ وسبعون حرفاً[٢]

٣- عن العِرْباض بن سارية أنّ النّبيّ ﷺ كان يقرأ بالمسبّحات قبل أن يرقد ويقول : إنّ فيهنّ آيةً أَفْضَلَ من ألف آية. يعني بالمسبّحات الحديد، والحشر ، والصّفّ، والجمعة ، والتّغابن[٣] والآية المشار إليها في الحديث هي والله أعلم قوله: ﴿ هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم ﴾[٤].

٤- المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة البعث بعد الموت. إنّ الآية الكريمة الخامسة يجيء فيها النّصّ على أنّ الأمور ترجع إلى الله تعالى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ له ملك السّماوات والأرض وإلى الله تُرجع الأمور﴾ والآية

---

[١] الإتقان ٤٣/١ وتفسير ابن كثير ٣٠/٨ والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١١٧/٢٧ والمحرّر الوجيز ٣٩٦/١٥ والبحر المحيط ٢١٦/٨ وتفسير القرطبي ٦٤٠٥

[٢] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١١٧/٢٧

[٣] تفسير القرطبي ٦٤٠٥

[٤] تفسير ابن كثير ٣٠/٨ والآية الكريمة هي الثّالثة.

الكريمة العاشرة تنصّ على أنّ الله تعالى وَعَدَ الجنّة كلاً من الّذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكة المكرّمة وبعد الفتح. قال تعالى:﴿ وكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنى ﴾ والآيات الكريمات من الثّانية عشرة إلى الخامسة عشرة تتحدّث عن المؤمنين والمؤمنات الّذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم والّذين يُبَشَّرون بالخلود في جنّات النّعيم، وعن المنافقين الّذين يطلبون من المؤمنين أن ينتظروهم كي يقتبسوا من نورهم فلا يستجاب لهم. إنّ مصير المنافقين والكافرين النّار وبئس القرار. قال تعالى:﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فَضُرِب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرّحمة وظاهره من قِبَلِه العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فديةٌ ولا من الّذين كفروا مأواكم النّار هي مولاكم وبئس المصير﴾ وإنّ ثواب المتصدّقين والصّدّيقين والشّهداء عظيمٌ في جنّات النّعيم ، أمّا المكذّبون والكافرون فإنّهم أصحاب الجحيم ، جاء في الآيتين الكريمتين الثّامنة عشرة والتّاسعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ إنّ المصّدّقين والمصّدّقات وأقرضوا الله قرضاً حَسَناً يضاعف لهم ولهم أجرٌ كريم. والّذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون. والشّهداء عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم . والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهذه الحياة الدّنيا متاع الغرور وفي الآخرة عذابٌ للكافرين وثوابٌ للمؤمنين . وإنّ على النّاس أن يسابقوا إلى جنّةٍ عرضها كعرض السّماء والأرض. جاء

في الآيتين الكريمتين العشرين والحادية والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباتُهُ ثمّ يهيج فتراه مصفراً ثمّ يكون حُطاماً . وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوان. وما الحياة الدّنيا إلاّ متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّةٍ عرضها كعرض السّماء والأرض أُعِدّت للّذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم ﴾ والآية الكريمة الثّامنة والعشرون تبشّر المؤمنين المتّقين بمجموعة من البشائر. قال تعالى: ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفورٌ رحيم﴾ .

٥- نودّ أن نبيّن بإيجاز أخذ موضوعات السّورة الكريمة وقضاياها بأطراف بعض. بحيث يبدو التّرابط في قمّته والتّلاحم في أوجه بين عناصر السّورة الكريمة:

صَدْرُ السّورة الكريمة الّذي ينزّه الله تعالى عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون ممّا لا يليق به عزّ وجلّ يشتمل على عددٍ موفورٍ من أسماء الله تعالى الحسنى المنصوص عليها، ومن صفات الله تعالى المستفادة من المعاني المتعلّقة بالّذات العليّة الّتي تتحدّث فيها الآيات الكريمات. ويصحّ أن نشير إلى مجموعة من أسماء الله تعالى الحسنى المنطوقة والمفهومة على السّواء المستفادة من صدر السّورة الكريمة. والمعروف أنّ اللذّات العليّة اسماً واحداً هو لفظ الجلالة: ﴿ الله ﴾ أمّا بقيّة الأسماء فصفاتٌ لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.ويصحّ أن تكون الأسماء الحسنى على النّحو التّالي .الله ، العزيز ، الحكيم ، الملك، المحيي ،

المميت، القدير، القويّ ،الأوّل ، الآخر، الظّاهر ، الباطن ، العليم، الخالق، البارئ، المصوّر، المبدئ، المعيد، المدبّر ، الخبير، البصير.

ويصحّ أن يقال إنّ من الصّفات الّتي يكاد يختصّ بها صدر سورة الحديد الاشتمال على حشدٍ كبيرٍ من أسماء الله تعالى الحُسْنى المنطوقة والمفهومة.

وإنّ الحقّ جلّ وعلا الّذي تلك نعوته ، والّذي يستحقّ أن يفرد بالعبادة يأمرنا بأن نؤمن به عزّ وجلّ، وبرسوله محمّد ﷺ وبأن ننفق في سبيله عزّ وجلّ من المال الّذي أعطانا إيّاه وجعلنا مستخلفين فيه، فنحن نرثه عن السّابقين، وسيرثنا إيّاه اللّاحقون. والله تعالى يرث الأرض ومن عليها، ويعد المؤمنين والمنفقين في سبيله بالأجر الكبير.

والله تعالى يحثّ النّاس على الإيمان. وها هو ذا الرّسول الكريم ﷺ يدعوهم إلى الإيمان، والله تعالى أخذ عليهم الميثاق بالإيمان وهم في عالم الذّرّ، وينزّل على عبده ورسوله آيات الكتاب العزيز البيّنات ليخرجهم من الظّلمات إلى النّور. وينصّ السّياق على اسمين آخرين للذّات العليّة هما الرّءوف الرّحيم.

والله تعالى يحثّ المؤمنين على الإنفاق في سبيله عزّ وجلّ ويبيّن أنّ الّذين أنفقوا وقاتلوا من قبل فتح مكّة أعظم درجةً عنده جلّ وعلا من الّذين أنفقوا وقاتلوا من بعد الفتح. وكلاً من الفريقين وعد الله تعالى الجنّة. والمعروف أنّ الجنة درجات.

وثمّة حثٌّ على إقراض الله تعالى قرضاً حسناً، فللمقرض الثّواب المضاعف والأجر الكريم.

ومن مظاهر الأجر الكريم للمؤمنين المجاهدين المنفقين في سبيل الله تعالى النّور الّذي يسعى أمامهم وعن أيمانهم في طريقهم إلى جنّات النّعيم

الّتي تجري من تحتها الأنهار والّتي يخلدون فيها. وفي طريق المؤمنين إلى الجنّة يقول لهم المنافقون والمنافقات انتظرونا نستصبح بنوركم فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً لكم وهيهات. إنّ الآخرة دار الثّواب والعقاب، وإنّ الأولى دار العمل. ويُضْرَب بين المؤمنين والمنافقين بسور الأعراف الّذي له باب. باطن ذلك الباب من ناحية المؤمنين فيه الرّحمة والجنّة وظاهر ذلك الباب من ناحية المنافقين فيه العذاب والنّار. وينادي المنافقون المؤمنين، ويذكرّونهم بمعايشتهم لهم في الدّنيا، ويريدون معايشتهم في الآخرة. ويذكر المؤمنون حشداً من صفات المنافقين السّيّئة الّتي قعدت بهم عن الِلّحاق بالمؤمنين. ولا يكاد يوجد في القرآن الكريم مثل هذا الحشد من صفات المنافقين في آيةٍ كريمةٍ واحدة. جاء في الآية الكريمة الرّابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور﴾ إنّ مأواهم النّار هم والّذين كفروا.

ولمّا كانت استجابة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لوجوب خشوع القلوب لذكر الله تعالى وللقرآن الكريم متفاوتة فقد كان ثمّة الحثّ للصّحابة خصوصاً، المؤمنين عموماً، على العمل من أجل أن يكون الخشوع في المستوى المطلوب. كذلك كان التّحذير من أن يغدو المؤمنون كأهل الكتاب من اليهود والنّصارى الّذين قست قلوبهم بسبب بعد الزّمن بينهم وبين موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام، والّذين انحرف كثيرٌ منهم عن سواء السّبيل. وعلى الّذي قَسَى قلبه ألاّ ييأس من رحمة الله تعالى الّذي يحيي الأرض بعد موتها، والقلوب بعد قسوتها.

وتنصّ السّورة الكريمة على بعض فئات المنعم عليهم من المتصدّقين، والصّدّيقين، والشّهداء، كي يجتهد المؤمنون بالله ورسوله في محاولة الِلحاق بهم ، إنّ لهؤلاء الثّواب العظيم في جنّات النّعيم، وإنّ للكافرين المكذّبين العذاب الأليم في نار الجحيم، بسبب جعلهم الحياة الدّنيا منتهى همّهم.

وكما بيّنت السّورة الكريمة الكثير من صفات المنافقين في آيةٍ كريمةٍ واحدةٍ بيّنت صفات الحياة الدّنيا وشبّهت زينتها وأطوارها بالنّبتة الّتي تعجب الزّارع وهي خضراء، كما تعجب الحياة الدّنيا الكافر بزهرتها حال الإقبال. إنّ مصير كلٍّ من النّبتة والحياة الدّنيا الذّبول والفناء.إنّ الكافر هو الّذي يغترّ بالحياة الدّنيا، ومآله العذاب الشّديد. وإنّ المؤمن هو الّذي يقبل على الآخرة، ومآله المغفرة من الله تعالى والرّضوان. إنّ على المؤمنين أن يسبقوا إلى العمل الّذي يفضي بهم بإذن الله تعالى إلى المغفرة من الله تعالى، وإلى الجنّة الّتي عرضها كعرض السّماء والأرض. وإنّ عليهم أن يعلموا أنّهم في سفرهم إلى الله تعالى محلّ ابتلاء بالشّرّ والخير فتنة. إنّ عليهم أن يحوّلوا الحزن صبراً، والفرح شكراً، وأن يوقنوا بأنّ كلّ ما أصابهم إنّما هو من الله تعالى، فعليهم أن يستبقوا الخيرات، وعليهم أن يتواضعوا لله تعالى، وأن ينفقوا في سبيل الله تعالى، وأن يحثّوا الآخرين على استباق الخيرات، وأن يبتعدوا عن الصّفات الذّميمة من اختيالٍ، وفخر ، وبخلٍ، وأمرٍ للنّاس بالبخل والشّحّ.

ولمّا كان الحقّ جلّ وعلا قد أرسل جميع المرسلين بدين الإسلام وجعل لكلّ أمّةٍ شريعةً ومنهاجاً حتّى بعث خاتم الأنبياء والمرسلين وجعل أمّته خير الأمم فإنّ السّورة الكريمة تتحدّث في هذه المعاني. إنّ الله أرسل رسله بالآيات البيّنات، وأنزل معهم الكتب والميزان ليقوم النّاس بالعدل، وأنزل

الحديد الّذي فيه البأس الشّديد والمنافع للنّاس، ليعلم عزّ وجلّ علم ظهور الّذي ينصره ورسله جلّ وعلا بكلّ أنواع الأسلحة البيانيّة، والماليّة، والقتاليّة، والجسديّة. وقد جعل الله تعالى النّبوّة والكتب في ذرّيّة نوحٍ وإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام. وقد آتى الله تعالى عيسى عليه السّلام آخر أنبياء بني إسرائيل الإنجيل، وجعل في قلوب الّذين اتّبعوه رأفةً ورحمة. وقد ابتدع الأتباع الرّهبانيّة الّتي فرضوها على أنفسهم ابتغاء مرضاة الله تعالى فما رعوها حقّ رعايتها، والّتي لم يفرضها الله تعالى عليهم.

إنّ عليكم أيّها المسلمون الاتّباع، وأن تبتعدوا عن الابتداع. إنّكم حينما تستمسكون بهدي السّماء يعطيكم الله تعالى نصيبين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به بين أيديكم وبأيمانكم ، ويغفر لكم ذنوبكم، ويزيدكم من فضله، ذلك الفضل الّذي بيده جلّ وعلا وحده دون سواه، والّذي ليس شيءٌ منه بيد أهل الكتاب الّذين يزعمون أنّهم أبناء الله تعالى وأحبّاؤه، ومن باب الأحرى غير الزّاعمين.

وهكذا تأخذ المعاني بأطراف بعض، ويتأكّد التّرابط الوثيق بين قضايا السّورة الكريمة، وتتّضح وحدتها العضويّة.

٦- جاء في الآية الكريمة الثّالثة خمسةٌ من أسماء الله تعالى الحسنى. قال عزّ من قائل:﴿ هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيءٍ عليم ﴾ وإنّ الاسمين الكريمين، الأوّل والآخر، يشملان مطلق الزّمان. وإنّ الاسمين الكريمين، الظّاهر والباطن، يشملان مطلق المكان. وقد جاء في السّورة الكريمة في الآية الكريمة الثّالثة عشرة لفظا الباطن والظّاهر بشأن باب سور الأعراف الّذي باطنه فيه الرّحمة والجنّة في حقّ المؤمنين، والّذي ظاهره فيه العذاب والنّار في حقّ المنافقين. وجاء في الآية الكريمة التّاسعة من أسماء الله

تعالى الحسنى الرّءوف الرّحيم. قال عزّ من قائل:﴿ هو الّذي ينزّل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظّلمات إلى النّور . وإنّ الله بكم لرءوفٌ رحيم ﴾ وقد جاء في الآية الكريمة السّابعة والعشرين النّصّ على أنّ الله تعالى جعل في قلوب الّذين اتّبعوا عيسى عليه السّلام رأفةً ورحمة.

٧- يصحّ أن يقال إنّ سورة الحديد تتألّف من مقدّمة تنتهي بالآية الكريمة السّادسة ، ومن خاتمة تبدأ بالآية الكريمة الخامسة والعشرين، ومن موضوع يقع بينهما . والله تعالى أعلم .

وصلى الله وسلّم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الجمعة ١٤٢٣/٧/١٣هـ
الموافق ٢٠٠٢/٩/٢٠م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد با جودة
أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصّفحة
المقدّمة		٣
أوّلاً : تمام سورة الذّاريات		٥
بين يدي التّفسير		٧
التّفسير		١٢-٣٦
١- على المشركين أن يتّعظوا بهلاك قوم لوطٍ عليه السّلام وفرعون وملئه، وعادٍ وثمود وقوم نوح عليه السّلام.	٣١-٤٦	١٣
٢- وجوب الاستدلال بما خلق الله تعالى الرّزّاق ذو القوّة المتين على وحدانيّته، والاتّعاظ بهلاك المكذّبين السّابقين، والويل للكافرين من يوم القيامة.	٤٧-٦٠	٢١
تعقيب		٢٦
ثانياً : سورة الطّور.		٣٧
بين يدي التّفسير		٤٠
التّفسير		٤٨-٨٣
١- عذاب الكافرين الشّديد في نار جهنّم جزاء سوء عملهم في الدّنيا.	١-١٦	٤٩
٢- ثواب المؤمنين الواسع في الجنّة وثواب ذرّيّتهم بسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وَحْدَه.	١٧-٢٨	٥٥
٣- انقاد المشركون للشّيطان الرّجيم ولهوى النّفس الأمّارة بالسّوء فأصرّوا على الكفر بالله تعالى وبالرّسول الكريم والقرآن العظيم.	٢٩-٤٤	٦٣

٤- عذاب المشركين في الدّنيا والآخرة، وتسلية النّبيّ ﷺ .	٤٥-٤٩	٧١
تعقيب		
ثالثاً : سورة النّجم.		٨٤
بين يدي التّفسير		٨٨
التّفسير		٩٤-١٣٥
١- معجزة المعراج.	١-١٨	٩٥
٢- لا تشفع الملائكة إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فكيف تشفع الأصنام الّتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وعقاب المسيئين وثواب المحسنين.	١٩-٣٢	١١٠
٣- الله تعالى علاّم الغيوب، الخلاّق، الفعّال لما يريد، فاعملوا ليوم القيامة، واعبدوا الله تعالى وَحْدَه.	٣٣-٦٢	١٢١
تعقيب		١٣٠
رابعاً: سورة القمر.		١٣٦
بين يدي التّفسير		١٣٩
التّفسير		١٤٧-١٨٣
١- أصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن آيات الله تعالى الكونيّة والبيانيّة، ويوم القيامة يكون حسابهم وعقابهم.	١-٨	١٤٨
٢- أصرّ قوم نوح عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم فأهلكهم الله تعالى بالطّوفان.	٩-١٧	١٥٤
٣- أصرّت عادٌ على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله تعالى بالرّيح الصّرصر.	١٨-٢٢	١٥٩
٤- أصرّت ثمود على كفرها وتكذيبها فأهلكها الله	٢٣-٣٢	١٦٢

تعالى بالصّيحة الواحدة.		
٥- أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على كفرهم وتكذيبهم وإتيان الذّكور فقلب الله تعالى قراهم رأساً على عقب.	٣٣-٤٠	١٦٧
٦- أصرّ فرعون وآله على تكذيب موسى عليه السّلام فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر	٤١-٤٢	١٧١
٧- للمجرمين عذابُ الأولى والآخرة، وللمتّقين ثوابُ الأولى والآخرة.	٤٣-٥٥	١٧٣
تعقيب		١٧٩
خامساً: سورة الرّحمن		١٨٤
بين يدي التّفسير		١٨٨
التّفسير		١٩٤-٢٢٩
١- الرّحمن علّم الإنسان القرآن والبيان، وخلق الشّمس والقمر والنّبات، ورفع السّماء ووضع الأرض والعدل ينبغي الشّكر لله تعالى.	١-١٣	١٩٥
٢- الله تعالى خالق الإنس والجنّ ، وربّ مشرق الشّمس ومغربها شتاءً وصيفاً، وخالق البحرين العذب والمِلْح اللّذين يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان وتجري فيهما السّفن.	١٤-٢٥	٢٠٢
٣- كلّ من على الأرض فان، ولا يبقى إلاّ وجه الله تعالى الّذي يحقّق المطالب، ويحاسب الخلائق، ويدخل	٢٦-٤٥	٢٠٧
المجرمين النّار.		
٤- نعوت جنّتي السّابقين.	٤٦-٦١	٢١٣

٥- نعوت جنّتي أصحاب اليمين.	٦٢-٧٨	٢١٨
تعقيب		٢٢٥
سادساً: سورة الواقعة		٢٣٠
بين يدي التّفسير		٢٣٤
التّفسير		٢٤١-٢٨٢
١- القيامة حينما تقوم تخفض الكافرين وترفع المؤمنين، وترتجّ الأرض وتكون الجبال هباءً منثورا.	١-٧	٢٤٢
٢- السّابقون المقرّبون في جنّات النّعيم.	٨-٢٦	٢٤٥
٣- أصحاب اليمين وثوابهم الجزيل.	٢٧-٤٠	٢٥٢
٤- أصحاب الشّمال وعذابهم الأليم في نار الجحيم .	٤١-٥٦	٢٥٨
٥- بعض الأدلّة على قدرة الله تعالى على البعث.	٥٧-٧٤	٢٦٣
٦- كفّار مكّة المكذّبون للقرآن الكريم هلاّ إذْ أنكروا البعث دفعوا عن أنفسهم الموت المفضي إلى البعث، وثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين.	٧٥-٩٦	٢٧٠
تعقيب		٢٧٩
سابعاً : سورة الحديد.		٢٨٣
بين يدي التفسير		٢٨٧
التّفسير		٢٩٦-٣٣٦
١- سبّح ما في السّماوات والأرض لله تعالى الّذي له الأسماء الحُسْنَى والصّفات العُلَى.	١-٦	٢٩٧
٢- حثّ جنس الإنسان الكفور على الإيمان بالله تعالى وبالرّسول ﷺ والإنفاق في سبيل الله تعالى، والجهاد	٧-١١	٣٠٢

بالنّفس والنّفيس .		
٣- المؤمنون يسعى نورهم يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون والكافرون مأواهم النّار وبئس القرار.	١٢-١٥	٣٠٨
٤- آن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى وللقرآن الكريم وأن يلحقوا بالّذين أنعم الله تعالى عليهم، وألاّ يغترّوا بالحياة الدّنيا، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين.	١٦-٢٠	٣١٣
٥- سابقوا إلى مغفرة من ربّكم، وجنّة نعيم ، وفضلٍ من الله تعالى عظيم، واجعلوا الحزن صبراً، والفرح شكراً.	٢١-٢٤	٣١٩
٦- أرسل الله تعالى رسله بالمعجزات، وأنزل كتبه للاهتداء، والعدل والحديد لإحقاق الحقّ، فاتّبعوا ولا تبتدعوا، واتّقوا الله وآمنوا برسوله.	٢٥-٢٩	٣٢٣
تعقيب		٣٢٩
فهرست الموضوعات		٣٣٧